

كِتَابٌ

سَبِيلُ السَّعَادَةِ

(في فلسفة الأخلاق الدينية وأسرار الشريعة الإسلامية)
« واثبات الروحانيات وفيه رد جليل على الطبيعيين »

تأليف

« فضيلة الأستاذ العلامة الجليل »

(الشيخ يوسف أحمد نصر الدجوى)

« حقوق الطبع والاعادة محفوظة للمؤلف »

سنة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م

« كل نسخة لم تكن مختومة بختم المؤلف أمدسروثة ويحاكم حامليها »

مطبعة النهضة للإبتيافافريد سن الجقوف

تقاريط

سبيل السعادة

— الخيز الواحد لا يسع اثنين في آن واحد —

ستجلى عليك هذه التقاريط مرتبة يتلو بعضها بعضاً، لئلا يقصده
الناس في التقديم والتأخير من وضعها على حسب درجات مقرظيها ،
فان ذلك يجب أن لا يكون في كتاب أخلاق مثل كتاب (سبيل
السعادة) بل يجب عليه أن يحارب تلك العادة وأمثالها ، وهاك ما
كتبه أولئك الفضلاء ، أصحاب التوقيع

كتابك يادجوى فاتحة البشرى ومشرة الاخلاق بل آية كبرى
أتى على الأم الإسلامية حين من الدهر وهم في غفلة معرضون
لا يقرأون من العلم الا قشوره ، ولا يعلمون من الكتاب الا سطوره ،
فضرب على آذانهم في الكهف بضع قرون ، ومرضهم الشيطان فتمزقوا
وهم عزون ، وذاق بعضهم بأس بعض بما نسوا ما يقرءون ، أو ما علموا
أن الكتاب انما نزل للهدى والرحمة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم
متمم لمكارم الاخلاق (وانك لعلی خلق عظیم)

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
فذكرهم الامام الغزالي في القرن الخامس ما أغفلوه ، وعلمهم ابن
رشد في السادس ما جهلوه ، فأعرضوا عنهما واستكبروا ، وعبسوا وبسروا
وقالوا ان هذا الاضلال مبین ، فعوقبت الامة بالتتار ، فاجتاحت

المملكة العباسية ، وبالاسبان فاستأصلوا الأم الإسلامية الاندلسية ،
ذلك لغفلة علمائهم ، وجهل كبرائهم ، ونبد حكمائهم ، وها هو الزمان
قد استدار كيئته ، فقام فاضل من فضلائها وحكيم من حكمائها ، يحاول
أن يرجع الأمة سابق مجدها ، وقديم عهدها ، بأرجاعها الى أصول دينها
حتى تعرف أسرارها وتجتلي أنوارها ، وعسى أن يتبعه في ذلك السبيل
رجال الازهر الشريف فيتشبهوا بالسلف الصالح في علوم الدين ، فقد
فتح لهم الباب الاستاذ الدجوى في علم الاخلاق ، وهذا العمري بارقة
الامل ، وفاتحة العمل ، وان كتاب الاستاذ لنور على نور ، والله
عاقبة الامور

طنطاوى جوهرى

المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية فى عشرين نوفمبر سنة ١٩١٢

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله خلق فسوى ، وقدر فهدى ، والصلاة والسلام على سيدنا
محمد الذى جاهد فى الله حق جهاده ، تارة بلسانه وطوراً بفضله وسنانه
حتى قوض أركان الرذيلة ، وتم مكارم الاخلاق ، وعلى آله وصحبه
الناهجين نهجه المقتفين أثره

وبعد فقد عنيت بقراءة كتاب (سبيل السعادة) للاستاذ الامعى

البجائة المدقق الشيخ يوسف المدجوي أحد كبار المدرسين
بألازهر الشريف

قالفيه قد رق لفظه ، ودق معناه ، وافنت أساليبه ، وتهدت
أفانيه ، وأينت ثماره وطاب جناه

ووجدت منه بحراً ولكن عذب ماؤه ، وآسعت أرجاؤه ، وبعد
غوره ، وكثرت لآله حتى زاحت ماءه وضاعت رواءه

فأله أنت (أيها الفضال) كم لك من حسنات وراء حسنات
تنقطع دونها أنفاس النظراء وتلهب من أجلاها قلوب الاعداء سرت في
(سبيل العادة) على منبج لم ينسج عليه قبلك ناسج وطرقت فيه أبوابا
لم يطرقتها دونك طارق

جلت بفكرك السامى وعقلك الثاقب في مشارق الارض ومغاربها
وارتقيت الى النجوم وأفلاكها ، ودخلت في القلوب وسويدائها فأتيت
على ما فيها من الاسرار وما تحويه من العجائب

أخذت بيد الطائشين من شبان اليوم حتى لمسوا الفضيلة وشعروا
بضرورة الدين ،

وطالما تنزلت معهم (على رفعة قدرك) حتى سحرت عقولهم وخطبت
قلوبهم فاتقادوا لك خاضعين وامتلأوا ارشادك صاغرين

حاججت الطبيعيين فأدحضت حججهم ، وأزلت شبهتهم ، وكشفت
عوارهم بعد ما أطلت جوارهم فلم تغن عنهم الحفريات شيئاً ولم تجدهم
الماديات نفعا

وانى وان كنت (أيها السيد) قد قرأت قبل كتابك هذا كتابا
فى الاخلاق كثيرة ولكن ما كل ماء كصداء ولا كل عطر
عطر عروس

والحق الذى لا مرية فيه أن كتابك سبيل السعادة هو سبيل
السعادة على الحقيقة وما سواه مجاز ولا غرابة فكل الصيد فى
جوق الفرا

أمتع الله بك وبكتبك ووقفنا وإياك الى ما فيه النفع العام للامة
والدين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

كتبه مصطفى عنانى

المدوس بمدرسه المعلمين الناصرية

(سبيل السعادة)

من شاء أن يرى الروح كيف يفيض من الملاء الاعلى ، وما علاقة
النفس الانسانية بذلك الروح الامين ، وكيف تشرق بنوره المبين
فتنشق ظلمات الكون ، ويظهر جماتها من أدناس الطبيعة فتطيب
اعراقا ، وتكرم اخلاقا ، وتلطف ادراكا وذوقا ، حتى تتصل بالملاء الاعلى
نزوعا وشوقا ، وما علاقتها بهذا الوجود ، ومنزلتها منه ووظيفتها فيه ، وكيف
تعمره ، وتهيمن على عوالمه ، من شاء أن يكون على شريعة من أمره فى
ذلك كله فليسلك سبيل السعادة ، وما سبيل السعادة ، كتاب كريم

لأستاذ عليم عرف ادواء قومه الدينية وبلواهم الدنيوية وعالمهم الاجتماعية
وعوائقهم عن السعادة الحقيقية وتبين كيف يجلب الشيطان عليهم بخياله
ورجله، وكيف تأخذهم جنود الباطل عن أيمانهم وعن شئائهم، وكيف
يعمهمون في ظلماته ويتيهون في مجاهله، ذلك الأستاذ هو الشيخ يوسف
الدجوى، خادم العلم ناصر الدين، فحاشت نفسه والمرء من اذا أبصر
قومه على خطر أخذته الحمية وثارت في قلبه النجدة فلم يدخر وسعا في
نصرهم ولم يأل جهدا في انقاذهم وانتشالهم من أوحالهم فاتهم بهذا
الكتاب المبين، في الدين وأسراره، والاخلاق وفلسفتها
والارواح واثباتها، والاحاد وادحاضه والمادة ونقضها وتزييف القول بها
فجاء الكتاب في تمكّنه من النفس، وجلاله عنها، أشبه الكتب
بموضوعاتها، فهو كالروح يظهر من حيث يخفى، ويقرب من حيث يئأى
تذوقه النفس ولا تحده، وتدركه المشاعر ولا تراه، ويلمسه العقل وهو
يعجزه، وكذلك روح الله اذا أمد به عبده بهر العقول وحيروا الافهام
فانى لمثل أن يأتي على أسرارها بيانا، ودقائقه حداً ووصفا وأناحياله
على حد قول سلطان العاشقين

وما عنه لم تفصح فانك أهله وأنت غريب عنه ان قلت فاصمت
وحسبى من القول فيه ان أتقدم الى شباننا وأبناء عصرنا، ناصحهم ان
يتصفحوه قراءة ويأتوا عليه دراسة ثم ليكونوا بعد ذلك كما شاءوا فأنا زعيم
بانه لا يبقى في نفس عاقل ريبا ولا في صدر متدبر شبهة، الا من كابر جحداً،

او عرض عناد الله تعالى يقول (قد بينا الآيات لقوم يعقلون) وفق الله الاستاذ
وأيدده على سبيله في خدمة قومه ، وأكثر أمثاله في أئمة المسلمين آمين

محمد عبد المطلب

بمدرسة القضاء الشرعي

وما الناس الا واحد بقبيلة يعدو الف لا تعد بواحد
الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه
الى فضيلة الاستاذ الدجوى رئيس جمعية النهضة الدينية الإسلامية
أيها الاستاذ أيديك الله ، كم لك من أياد يعجز عنها الشكر ،
ويضيق عندها البيان ، أبرزت للناس في العام الماضي كتابك
(الجواب المنيف) فكان سلاحاً جديداً في يد الاسلام ، على أحدث
طراز وأبدع منوال

نهضت نهضتك المعروفة ، فأستت جمعية العلماء والاعيان ،
للمدافعة عن الدين ، والاخذ بناصر المسلمين

حاربت أعداء الدين بما تكتبه من آن لآخر ، على صفحات
الصحف السيارة مما كان خطراً على جمعيات التبشير ، وقضاء مبرماً على
هيكلمها الفخيم

نقلت لنا في كتابك (الجواب المنيف) من شهادات فلاسفة أوروبا للدين
الاسلامي ما لا مزيد عليه مما احمر به وجه التبشير خجلاً ، وضحك له سن الاسلام
سروراً

نظرت بعد أن فرغت من جبادك الخارجى الى أحوال أمتك
الداخلية ، فقامت تقوم من أودها ، وتصلح من أبناءها ، فألفت لهم
سبيل السعادة ، (وانه لسبيل السعادة)

كتاب أتى على أمراض الامة المتنوعة ، وأصول أدوائها المختلفة
فقضى عليها بالحجة الناصعة ، والبيان الواضح

كتاب يذكرنا عبيد ابن سينا فى القرن العشرين ، ويعيد لنا عبيد
الغزالي ، بعد ما تطاول عليه الالام ، فحيلة النفوس ، ونسبته الاقلام
كتاب يأخذ بيد الضال الى مناهج الهدى ، ويبقى الغوى مصارع

الردى

كتاب اذا نظر فيه الملحد تجلت له شمس الحق من سماء براهينه ،
وان نظر فيه المؤمن الكامل ازداد بآيات بيانه كمال يقينه ، وان نظر
فيه محب الفلسفة العلمية وجد ضالته المنشودة ، أو محب الدين
المتعشق لما جاء فيه من اللطائف والاسرار وجد بغيته المقصودة
وان نظر فيه المتعلم أوصله الى سعادته من أقرب طرقها ، وأوضح
مناهجها ، فله أنت من حكيم بعد نظره ، واتسعت فى الاصلاح
خطاه ، فلم يدع الى الدين دعاء من ينحى على الدنيا انحاء الجامدين
ولم يجعلها كل المقصد ، وغاية المرمى ، شأن الجاهلين (بل كان بين
ذلك قواما) وراثه نبوية ، وحكمة محمدية ، وأنظار قدسية ، وتأيدات
ربانية

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

فجزاك الله يا أستاذ أحسن ما جازى به المخلصين لدينهم وأمتهم ،
وأكثر من أمثالك ، ونفع المسلمين بجليل أعمالك ، انه على ما يشاء
قدير ، وبالأجابة جدير
نور الدين محمد
أحد علماء الحنفية بالازهر الشريف ١٥ مارث سنة ٩١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ، وصلى الله على سيدنا
محمد وآل وآل واصحاب ،

أما بعد فانك قد تعلم (عصمنا الله واياك من الزلل) أن من الناس من
يأبون كبرا وعظمة أن يكون لهم اله يخضعون لأمره ، تنفذ فيهم ارادته ،
وتتصرف فيهم قدرته ، وتهذبهم تعاليمه ويؤدبهم دينه ، ولكنك تراهم مع
هذا الترفع الشامخ ، والعزة السامقة يأكلون من فضل ما أنكروه ،
ويشربون من فيض من جحدوه ، ويعيشون فى ملكه ، ولا يستطيعون
أن ينفذوا من أقطار سماواته وأرضه ، ثم اذا مسهم الضر فآليه يجأرون
ومنهم من اعترفوا بمولاهم الذى خلقهم وسواهم ، ولكن أخذتهم العزة
أن يعلمهم بشر رسول ، واستكبروا عن الاديان الالهية والكتب
الساوية ، وزعموا أن فيهم من العقل ما يغنيهم عن هدى الرسل واتباع
ما جاءوا به من دين الله (أفغير دين الله يبعثون وله أسلم من فى السموات
والارض طوعا وكرها واليه يرجعون) ومنهم من أسلمت ألسنتهم

فشهدوا بر بهم و برسوله و ندیت قلوبهم بر شحات من السنهم لا تروى
ولا تغنى من صدی ، فاذا رأيتهم تعجيبك أجسامهم ، ولكنهم مراض
القلوب ، ربذت أيديهم في أعمال دنياهم ، ولكنهم عن زاد الآخرة
شلاء

ومنه من طابت نفوسهم فلما سمعوا منادياً ينادى بالإيمان استمعوا
له وأنصتوا ورأوا الحق حقاً فاتبعوه ورأوا الباطل باطلاً فاجتنبوه ، وكانوا
في ذلك أزواجاً اختلفت درجاتهم ، وتفاوتت مراتبهم ، وكلهم من
خشية ربهم مشفقون ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ،
وبعد فيأبى الأستاذ الحكيم لا تعرض عن هذا ولا ذاك ، واذكر
أنهم عباد الله ، وأحب عباد الله إلى الله أنفعهم لعباده ، فداو بالدين
أمرأضهم و اشرح بالقرآن صدورهم واغذ بالسنة أرواحهم ، وأيقظهم من
سباتهم ، وأنصرهم على أنفسهم وشياطينهم ، وصل عليهم ان صلاتك
سكن لهم ، واصدع بما تؤمر ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، فعسى أن
يرى مبصر ، ويسمع واع ، وما أرى نفار أولئك الذين ذكرتهم عن
هدى الاسلام ، واعتساف المعتسفين عن جادته ، وتنكب المتنكين
عن سنته ، وتخلقهم بغير أخلاقه ، واستشفاءهم بغير طبه ، الا لانهم
رأوا صورة لم ترقهم فحسبوها صورته ، وسمعوا جرساً أزعجهم فتوهموا
نداءه ، ولقنوا تلقينا ظنوه تعاليمه ، فتحسسوا من روحه فلم يجدوا به
حراً كما فزعوا أنه دينا عادى العقول أو كاد ، فيأبى الحكيم قل لهم
هاؤم اقرأوا كتابيه ، واني أرجوا أن تلبوا دعائيه ، فلعلكم ترون منه

صورة الاسلام غير ما رأيتم ، وتسمعون من حسن ندائه غير ما سمعتم
وتطالعون من أخلاقه على خلاف ما اظلمتم ، وتعلمون من طبه سوى
ما علمتم ، فيقين لكم أنه لا روح الا روحه ، ولا اعتقاد الا ببرهانه
ولا عقل الا بتعاليمه ، ولا عدل الا بقضائه ، ولا أخلاق الا بتربيته ،
ولا اعتصام الا بجبله ، ولا علم الا هو منه بسبب متين ، ولا سعادة الا
بكتابه المبين ، كتاب أحكت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ،
ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ،
أيها الحكيم قد تلوت من كتابك ما تلوت ، فشكرته فشكر الله لك
كتابك ، ونظرت فيه فرأيت أنه قد أنار طريق الدين للسالكين ، فزاد
الله بصيرتك نورا ، وسأله ما ذا يراد بك ، فقال وجه الله تعالى ونفع
عباده ، فقلت له بشر صاحبك بأنه يدعو الى الله تعالى الذى يقول
(ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) (وهل جزاء الاحسان الا
الاحسان)

حسن منصور

مدرس بمدرسة القضاء الشرعى فى شهر ابريل سنة ٩١٤

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى أنعم على من اصطفى من النفوس البشرية بكوؤوس
المعرفة حتى أرواها وأرشدتها بنور الالهام فلم يجذبها عن الجادة هواها
وشرف الفضلاء بما أودع فيهم من الاخلاق المرضية ، وفضل العلماء

بما ورثهم من حفظ أسرار الشريعة الإسلامية ، والصلاة والسلام على من فضله الله على كافة الخلق على الإطلاق لتتميم مكارم الاخلاق سيدنا محمد الذي ما نطق في تبليغ شريعته الغراء عن الهوى ، وما ضل في هداية أتباعه عن الحق وما غوى ، وعلى آله وأصحابه الذين قاموا بتشيد الحق وتأييده ، وتقويض الباطل وتبديده ، ومن تبعهم فسلك بهم سبيل السعادة ، وفاز من فيض الله بالخشى وزياده

أما بعد فقد سرحت نظري في مواضع من كتاب سبيل السعادة في فلسفة الاخلاق الدينية ، وأسرار الشريعة الإسلامية ، تأليف العلامة المحقق والفهامة المدقق ، من له في سبيل التحقيق الجمع والقصر ، الاستاذ الفاضل الشيخ يوسف احمد نصر ، فوجدته كتابا بديعا لم ينسج ناسج على منواله ، ولم يحم أحد من المؤلفين حول شكله ومثاله ، لما احتوى عليه من بدائع المعاني التي يخالها الناظر مثاني ، ومن فوائد تزي بالدرر صيغت في الفاظ حسان غرر لم تصدر الا عن ملكة رصينة البنيان ، اذ تكهلت بأحكام هاتيك المعاني في قالب التبيان ، فناهيك به من كتاب جلت مقاصده ، وطابت مصادره وموارده ، تقتطف من أوراقه ثمرات التحقيق ، ويفوح من أدراجه عبير التدقيق ، ويفوق بحسنه كل مؤلف ، ويسمو بروقه على كل مصنف ، قد أودعه مؤلفه ما يكشف عن الابحاث القويمة غشاء غمتها ، ويحل من صعاب المشكلات العقيمة وثاق عقدتها - فلعمرى أن مؤلفه جاد بهذا التأليف على فضلاء هذا العصر وأجاد ، وحاز بهذا التصنيف رتبة الانفراد ، تقبل الله منه هذا

العمل الجليل المبرور ، وضاعف له عليه جزيل الاجور ، ونفع به
الطلاب ، وبلغنى واياها الطلاب ، وجعلنا ممن اثمر بالكتاب والسنة
وانتهى ، والى الخير والكمال انتهى

عبد الغنى محمود

أحد علماء الازهر والمدرس بمدرسة القضاء الشرعى
ابراهيم الحيدى من هيئة كبار العلماء بالازهر أول ما يوسنة ٩١٤

تقريظ المفضل الكبير صاحب العزة

﴿ حفى بك ناصف ﴾

(وقد أرسلنا اليه بعض الموضوعات فطالها ثم كتب عليها)
قرأت هذا الباب وهو بعض الكتاب ، فاستفدت منه ما لم أستفده
من عدة أسفار ، ووقفت منه على كشف كثير من الاسرار ، معان عاليه
وعبارات شافية فشكراً لفتح هذا الباب وثناءً على عمله المستطاب

(تقریظ امام اللغة الاستاذ العظيم الشيخ حمزه فتح الله)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيد رساله محمد وآله

أي شيخ الدين

تصفحت كتبيك الذي أسميته سبيل السعادة فأكبرته تكريماً
وصغرته تعظيماً لكوني آنت منه محتاحاً لأوهام الرين كخوينيه
(١) لبید (فی احدى الروایتین) مع جواهر عبارات يروق ر واؤها
كالخمر بعد الجمود ، والجمر قبل الجمود
أما مقدمته فقد تلوتها جمعاء لأنها عين جواده النجلاء فأحمدته
وما فررته ، بل قالت ان الجواد عينه فراره (٢) ومع وضوح الحق منه
كيف يراد بالهوان عراره ، فالقد شخصت الداء فنجع الدواء
أجل أن صحة التشخيص هي الطب بعينه غير انه قلما يهتدى
اليها ،

(١) يشير الى قول لبید

وكل أناس سوف تنزل بينهم دويبيه تصفر منها الانامل

وفي روايه خوينيه وهى بمعناها

(٢) مثل يضرب لمن يدل ظاهره على باطنه وأصله من فر الدابة

كشف عن أسنانها لينظر ما سننها وهو مثاث الفاء

قالوا لان أعراض الاخلاق قد تتشابه لسبب ما وهنالك منزلة
اقدام النطس ، لانها اذا عولجت حسب ظاهرها كان الدواء شراً
من الدواء ،

يألم الشيخ وحق له أن يألم من نبد بعض أحداثنا دينهم ، ولو
درى أن لا ثب لذللك سوى استحكام الشهوات البهيمية فى نفوسهم
الدنية لمان عليه الخطب فاتهم قلدوا بعض متعلمى الفرنج وهم أولوا
القوة الآن فى أن المروق من الدين شرط لكل مستنير بالعلوم التى
يسمونها عصرية لانه يحظر عليهم تلك الشهوات بعد اطلاق الحرية
وثالثة الاثافى فقدان الوازع والاسوة ببعض من شأنه أن يقتدى
به وزعمهم أن فى تلك العلوم ما لا ينطبق على الدين فنسبوه للقصور
والجمود وعدم الصلاحية للقرن العشرين فاجترأوا عليه بالاحاد وطفروا
لنحلة الاجتهاد ولو عقلوا ما أنتجه هذا المروق لأراحوا واستراحوا ،
ياهىء مالى (١) مع كونهم لم يعرفوا من الدين غير اسمه ولا من علمه
سوى رسمه ولا ان المرتد لم يكن مؤمناً والا اقلب العلم جهلاً ثم
نضم الى السبب السابق جيشان سورة الراح الذى لم يبق من عقولهم
الا مقدار ما بقى فى الاقداح وكأنما عناهم من وصفها بقوله :

مضى بها ما مضى من عقل شاربها وفى الزجاجة باق يطلب الباقى
ولولا أنه ليس فى الشر خيار لقلنا أنهم لم يحسنوا الكفر كما أحسنه

شيخهم أبيس اذ توكأ على شبهة عنصرية باطلة ، وما دروا أن تقليدهم من ذكر مقتض لثباتهم على الدين فجعلوا المقتضى مانعاً والموجب سالباً ذلك لان صاحبه عليه الصلاة والسلام صح عنه الاخبار بما كان وما يكون ^(١) حتى هذا التقليد وحتى المسألة الشرقية ^(٢) التي تجيش مراجعها الآن مشبهاً لها بما شبهتها به أوروبا وتلك معجزة أخرى ونسوا أو تناسوا أن أساطين الفلاسفة في أوروبا وأمريكا مجمعون الآن على أن كثيراً من مكتشفات هذه العلوم حدس وتخمين ورجم بالغيب وأنه عسى أن يثبت لهم غداً ضد ما أثبتوه اليوم كما ثبت لهم اليوم ضد ما أثبتوه أمس

ونحن لا نبخسهم أشياءهم في تقدمهم المادى وانهم في ازدياد منه

(١) الاخبار بما كان وما يكون في صفحة ١٠٦ من الجزء الرابع

من صحيح البخارى

(٢) قال في مشكاة المصابيح عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم توشك الامم أن تتداعى لقاتلتكم وكسر شوكتكم وسلب ما ملكتموه من الديار والاموال كما تتداعى الابل الى قصعتها فقال قائل أمن قلة يومئذ قال بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل (اى) لقلة شجاعتكم ودناءة فئدركم وخفة أحلامكم وعدم اتحادكم ثم قال فى آخر الحديث ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن رواه أبو داود والبيهقي فى دلائل النبوة

كل يوم ونؤيد اجماعهم هذا بأن ظواهر الكون لا تكاد تنهاى وانه
يجوز أن يكون لها دواع خفية هى أسبابها الحقيقية المطابقة للدين ،
فالأوباء مثلاً سببها الدينى فشوا الكبار فان لم ينقضوا ما اكتشفوه
من ان سببها فساد الجو وتلك المكروبات فيجوز أن ذلك يخلق
عند هذا الفشو وعلى ذلك فقس

وقد تقرر عند الفضلاء أن عدم العلم بشيء لا يستلزم عدمه وان
عدم الدليل لا يقتضى عدم المدلول ولا مانع أيضاً من أن يكون لجلة
هذه المكتشفات أو كلماتها سابقة فى الوجود أخنى عليها الذى أخنى
على لبد وان فى بناء الاهرام وحفظ جثمان للوتى الذى لا تزال تجهله
أوروبا وفى تلك الصور المنقورة فى جزر مقابر الملوك تجاه مدينة
الاقصر واختلاف ألوانها التى تتغير بأدنى ضوء بيد من يتأملها مع شدة
ظلام قيعانها المنحوتة فى قاع الجبال واستحالة صنعها فى ذلك الظلام
وهى الآن كأنما رفعت عنها يد الصناع ما فيه كفاية للمنصف ولذا
ضعفت ثقتهم بالمادة وأولعوا بما وراءها كما ستسمع

اما ان شيئاً من تلك المكتشفات متحل عنا أو متوارد عليه فمحقق
حتى فى الجاهلية كالتنويم لمعرفة المجهول واستحضار الارواح وارقة
الزيت فى البحر وتلقيح الرياح وبرد الحمى بالماء وتتريب مولغ الكلب
والعلاج بالحفا وأما التيقظ لتلك المعرفة كما فعله بعض الخلفاء فلم يبلغنا
استعماله فى أوروبا ويرحم الله جار الله حيث يقول :

العلم للرحمن جل جلاله وسواه فى جهالاته يتقمم (١)

(١) تقمم ذهب فى الماء وغمر به حتى غرق

ما بالتراب والعلوم وتم يحيا ليعلم أنه لا يعلم
لا جرم أن في المركبات العنصرية خواص تستتبع آثاراً عجيبة
كالمغناطيس والكهرباء والحجر الباغض للخل إذا أهوى به إليه انحرف
فسقط بعيداً عنه وكالحجر الجاذب للمطر مع قصر العقول عن معرفة
كنه الخواص الناشئة عنها تلك الآثار وأنه يجوز أن يدرك بحاسة
ما يدرك بالآخرى كل ذلك فرغت منه علماء الملة السمحة قبل خلق
أولئك الاساطين ولست أحييك على كتبنا بل على تلك الفلاسفة
راجع المقتطف والحلال بعنوان آياته في خلقه والفتاة الإيطالية التي تبصر
بالسمع وتذوق باللمس وما قاله رئيس وزراء إنجلترا سابقاً المسيو بلفور
وقد رأس مجمع ترقى العلوم البريطانية بمدرسة كمبرج الجامعة اثناء
أغسطس سنة ١٩٠٤ مما قضى به على معرفة كنه المادة وأن تنتهى
علمها مبتدأ جهلها كما يقول الشاعر العربي

كأن الحب دائرة بقلبي فحيث الابتداء الانتهاء

وصرح بعض جهابذتهم بأنه متخوف جداً من أن علومهم التي
يفتخرون بها الآن يظهر بعد مائة سنة أنها باطلة منسوخة وهى شذشنة
أعرفها من أخزم فإن دعائم الفلسفة القديمة أفلاطون وأرسطو
و بطليموس وجالينوس قادحون فى الحس

بلى ان الجاهل من رمى الدين بالجمود اذ هو كافل لصلاح العالم
معاشا ومعادا

وفى قضاء أمير المؤمنين على عليه السلام فى نازله ان أهون السقى

التشريع وقول عمر بن عبد العزيز تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا
من الفجور وما لا يحصى من هذا القبيل غناء لمن تدبر ، فما أحسن
قولك من أنت يا رسطواخ (١)

نعم واذا كرنى مقولك في العقل ما ذهب اليه الشيخ الا كبر قدس
سره من تقديم الدليل الثقلي على العقلي فقال :
على السمع عولنا فكنا أولى النهي ولا علم الا ما يكون على السمع
وقال :

كيف للعقل دليل والذي قد بناه العقل بالكشف انهم
الى أن قال :

كل علم يشهد الشرع له هو علم فيه فليعتصر
واذا خالفه العقل فقل طورك الزم ما لكم فيه قدم
ويؤيده قول الامام الشافعي رضى الله تعالى عنه ان للعقل حدا
ينتهي اليه كما ان للبصر حد اينتهى اليه وقول الامام الغزالي ولا تستبعد
أيها المعتكف في عالم العقل ان يكون وراء العقل طور اخر يظهر فيه
مالا يظهر في العقل الى آخر ما قاله وقال أيضا أنه بعد وقوع بعثة الرسل
وثبوت تصديقهم بالمعجزات ينتهي تصرف العقل ويتلقى من الرسول

(١) يشير الى قولنا اثناء الكتاب في بعض الموضوعات

من أنت يا رسطوا ومن أفلاط قبلك قد تفرد
ما انتموا الا الفرا ش رأى السراج وقد توقد
فدني فاحرق نفسه ولو اهتدي رشدا لا بعد

عليه الصلاة والسلام ما يقوله في الله تعالى وفي أمر المبدأ والمنعاد . وليس في عدم ادراك العقل حكمة بعض الشرعيات كالتعبدات من مناسك الحج وغيرها وكالتقضاء والتقدير من ضير لقصور الافهام من أغلب المكلفين والنهي عن تحديثهم بما لا يفهمون اشفاقا عليهم والا فلذلك من أحسن الحكم ما تمنع له أعظم العقول السليمة لانه اذا كانت أفعال عقلاء العباد تصان عن العبث فكيف بالمعبود تقدست أسماؤه وجل ثناؤه ومع قيام القواطع العقلية والنقلية على وجوب انصافه تعالى بكل كمال وتنزيهه عن كل نقص كيف يسأل عما يفعل وفي القوانين الحرية المتبعة الآن في أوروبا وغيرها أن أوامر القواد واجبة التنفيذ فورا ولو كان فيها حتف المأمور وانه لو قال لا أمره لم ذلك لكان جوابه اطلال دمه وأنت لو استفتيت وجدانك لشعرت باستقباح ذلك لمخدومك أو رئيسك بل لمن تحترمه وتعتقد كماله من أمثالك لان لم رية تشعر بالهمة وهي سبب الخذلان الابدی لا بليس وحزبه

أي هذا اللاحق أتدرى من اتهمت وعلى من اجترأت وفي من ارتبت ومن أسمائه الحسنى الحكيم وما قدروا الله حق قدره سبحانه فلولا حلمه لهوى عرشه

وان قميصا خيط من نسج تسعة وعشرين حرفا عن معاليه قاصر
ويكفيك من هذا الجمال اشارة ودعه مصونا بالجلال محجبا
لا في عبد مثلك تكسره الجوعة وتطفيه الشبهة وتستفزه بوادر
القوة الغضبية وتستعبده الشهوة الحيوانية .

على ان في الاذعان مع خفاء الحكمة كسراً لحدة النفس الامارة
وتربية لها وتدريباً لترقيتها وشتان بين من يعمل لمجرد الاتقياد والخضوع
لرب العباد وبين من يعمل عالماً بالحكمة والمصلحة اذ ربما خالطه
العجب فاحبط أعماله

وبالاجمال فقد أحسنت يشيخ الدين وأديت فرض الكفاية عن
علماء المسلمين وشفيت السقام ورويت الأوام وكشفت اللثام عن ان في
الفلسفة قديماً وحديثاً ما وهن ووهى وان الى ربك المنتهى
الفقير اليه عز شأنه
حمزه فتح الله

في ٢٤ ربيع الانور سنة ١٣٣٢

﴿ فهرست كتاب سبيل السعادة ﴾

صحيفه	
٣	مقدمة الكتاب
٧	ايقاف القارىء على بعض ما فى الكتاب
١١	مقدمات يشيد عليها صرح ببناء الاخلاق
١١	الانسان مجمع العجائب والغرائب
١٥	حقيقة فلسفية ضل فيها كثير من الناس
٢٠	الروحانيات
٢٠	اثبات الروح
٢٣	ايضاح وبيان
٢٨	سبب اشتباه الماديين وغلطهم فى هذا الموضوع
٣٣	شرح بعض صفات الروح
٣٤	أدلة اثبات الروح من كلام علماء الاو بنوتزم والاسبرتزم
٤٠	ما نقل عن حجة الاسلام أبى حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية فى هذا الموضوع
٤٢	محاورة علميه مع بعض ذوى العلوم الجديدة
٤٤	بيان شوق الارواح الى العلوم والمعارف
٤٥	السر فى تفضيل اللذة المعنوية على اللذة الحسية
٤٦	بيان ان النفس اذا تزكت اطاعت على المغيبات
٥٠	الفرق بين الاولياء وغيرهم فى هذا الموضوع

٥٣	بيان معنى مرض القلوب وموتها والسبب في عدم احساس الناس بذلك
٥٧	النفس وما جبلت عليه بعد اتصالها بهذا الهيكل الجسماني
٦١	سبب تقدم المنافقين ورفعتهم
٦٢	بيان السبب في أن الانسان لا يعرف عيب نفسه
٦٦	بيان ما هو الطريق الى معرفة عيوب النفس
٦٨	بيان اختلاف الناس في قبول الاخلاق وما للمخالطة من الآثار الحسنة والسيئة
٧٢	بيان تفصيل المملكة الانسانية وذكر أمثلة لها
٧٤	وجبة أخرى في البيان
٧٨	بيان ما تكتسب به الاخلاق الفاضلة
٨٢	كلمة بمناسبة ذكر القوانين
٨٤	توجيه نظر الى أمر يفيدك
٨٦	بيان أن سعادة الانسان وشرفه ليسا بكثرة المال
٨٨	بيان أن طالب الدنيا محال عليه أن يستريح
٩٠	بيان أن الناس متساوون في السعادة والراحة لولا توهم باطل
٩٣	الكافر يطلب الدنيا والمؤمن يطلب الدنيا والآخرة
٩٦	القول الفصل فيما جاءت به الشريعة من اللذائذ البدنية والمطالب الدنيوية
١٠٢	تمة للموضوع بذكر سانحة فيه
١٠٤	الشرعيات
١٠٤	الشريعة منبع السعادة

- ١٠٧ ذكر شيء مما جاءت به الشريعة على التفصيل
- ١١٦ مقارنة الشريعة بالقوانين الوضعية
- ١٢٠ الاسلام دين الرحمة والحكمة لا دين القسوة والتعصب
- ١٢٥ الدين منبع السياسة الحقيقية والتربية الصحيحة
- ١٣٣ أحاديث نبوية في مكارم الاخلاق
- ١٣٩ ذكر شيء من شمائله صلى الله عليه وسلم
- ١٤١ آيات من القرآن العزيز
- ١٤٤ أوصاف المتقين
- ١٤٤ أوصاف المنافقين
- ١٤٥ عجيب أن يعادوه في بلادهم ويدعوننا اليه ههنا
- ١٥٠ أسباب الشقاء التي يجب البعد عنها
- ١٥٣ غلطات ينبغي التنبيه لها
- ١٦٢ كلمة عن العلماء
- ١٦٥ بيان السبب في أن الدين لا يؤبه له ولا يرتفع صوته
- ١٧٠ بيان الواجب في هذا الموضوع على الامة عموماً وعلى مشيخة الازهر خصوصاً
- ١٧٤ تكميل جليل في فوائد متفرقة
- ١٩٢ الفرق بين اهل الدين وغيرهم
- ١٩٦ تأثير عمل الخير والشر في نفوس العاملين
- ١٩٩ خاتمة في بيان معنى العالم الذي نوه الدين بذكره

(تذييه)

يوجد بالتقاريف بعض غلطات مطبعة خفيفة لما اقتضاه الحال من
الاسراع بطبعها وهى من الواضح بحيث لا تحتاج الى هذا
التذيه الاجمالى



كِتَابٌ

سَبِيلُ السَّعَادَةِ

(فى فلسفة الأخلاق الدينية وأسرار الشريعة الإسلامية)
« واثبات الروحانيات وفيه رد جليل على الطبيعيين »

تأليف

« فضيلة الأستاذ العلامة الجليل »
(الشيخ يوسف أحمد نصر الدجوى)

« حقوق الطبع والاعادة محفوظة للمؤلف »

سنة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م

« كل نسخة لم تكن محتومة بختم المؤلف تدمر وثة ويحكم حامليها »

مطبعة النهضة للإبتيافافريد سرسنة الجفوف



تشتمل على سبب تأليف الكتاب وبيان بعض أوصافه
قد أضمنت حقائق كثيرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على آلائه ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ، وآله
وأصحابه (وبعد) فقد منى الاسلام من أبنائه بما شوه وجهه
الجميل ، وكاد يذهب بروائه وبهائمه ، ويمثله للأجانب فى شكل
المعتقدات الخرافية ، أو الصور الخيالية ، وقد وجدنا الأخلاق الدينية
والتعاليم الاسلامية قد عفت رسومها ، وانمحت آثارها من نفوس
كثير من شباننا الذين دهمتهم تلك النزعات الجديدة ونفوسهم
مستعدة لقبول ما يغرس فيها من خير أو شر ، ولكن لسوء حظهم
وعدم حفظنا بهم لم يتيح لهم الا ذلك الشر المستطير (فصادف قلباً
خالياً فتمكنا) فضاعوا منا وما كان أحوالنا اليهم وما كان أقوامهم
لو كانوا معنا لا علينا

وأن لهم لدى الانصاف ما يحرك منك الرحمة ، فتلتمس لهم بعض

المعاذير كما أن لا يأتهم وعلمائهم وأمتهم من الذنب ما تأبى غيرتك
وحميتك أن تغفده لهم حيث أغفلوا تربيتهم الدينية، ولم يعنوا بما يجب
أن يكونوا عليه من المالكات الفاضلة، والاخلاق السكاملة، واصلاح
ظاهرهم وباطنهم، ودينهم ودنياهم، فعلى الأمة أن تتلافى ذلك الخطر
الذى لو دام (لا قدر الله) لآتى على بنيانها من التواعد وفكك
أعظم روابطها، وقضى على أكبر جامعة لها، فانفصمت عراها، وقد
كانت أقوى العرى، وأنجع الوسائل فى ائتلاف العناصر المختلفة
والشعوب المتباينة، وعلى العلماء ان يستثيروا الحية من قلوبهم، ويؤدوا
واجب وظيفة الدينية، ويقوموا بمقتضى وراثتهم النبوية فقد كان
ينبغى أن يكونوا حماة الدين، ومثال اليقين، ولا يدعوا أبناء المسلمين
تخطفهم من حولنا بهرجة المدنية الغربية التى اعتقدوا كمالها فى العلوم
والمعارف، والاخلاق والعادات، فرجعوا الى تعاليمها فى كل شئ حتى
فى الأمور الدينية، والاسرار الروحانية، كما اعتقدوا (ونعتقد معهم)
كمالها فى الصناعات والاختراعات وجميع الجثمانيات، فليهبوا العلماء من
سباتهم كي يرفعوا الدين مناره، ويبينوا للناس أسرارهم، وليتحركوا أيدهم
الله بمحركة هذا العصر الجاضر فأن الحكيم ابن وقته، وأنى أجلهم أن
لا يكون قد قرع سمعهم صوت هذا العصر الذى أزعج عوالم الماء
واخترق جو السماء، وأن المتكلمين فى الدين اليوم الذين يزعمون
أنهم حماة وأنصاره لا يكادون يتخطون أحد رجلين:
رجل لم تبعثه التقلبات على كثرتها، والحوادث على شدة شكيמתها،

من مرقد جهوده على ما ورت مما كان يناسب قومًا آخرين وكأنه
وهو بين ظهرانينا) من رجال عصر لا ينبئك عنه سوى التاريخ فلم
جمع بذلاً الانقلاب في الأفكار والتبدل في طريقة الاستبصار (وقد
بصر الداء فيجب تغيير الدواء) فتراه يجهل ذلك كله فاذا خطب
ينقب عن أسرار الدين تنقيب العالم الحكيم، فيبرزها ناصعة تتجلى
، ثوب من الضياء، وقد أقشعت عنها غيوم الخفاء، فراها ضعيف
لنظر، ولم يعش عنها كليل البصر، بل تجده يحيطها بما شاء له استعداد
من قشور سمكة، وحجب كثيفة، وربما سار بها في طريق التخيلات
ومزجها بكثير من الترهات، فنفرت منها العقول، ونبت عنها أنظار
القلوب، وقد يدعوا ذلك الى شدة انتقاد وسوء اعتقاد

واذا كتب فأنما يكتب بقلم دفن تحت أطباق الثرى حتى
البحات أجزاءه، وتفرقت عناصره، فأصبح غير كاف في الافاده،
ولا صالح للكتابة

ورجل عصرى عرف ما تداوى به الادواء، وتميل اليه الاهواء
وقد كاد يرجي منه الشفاء لولا انه غير مكين في العلم ومعرفة أسرار
الدين ومراميه، وليس له من سعة النظر ومتانة اليقين ونور البصيرة
ما يوقفه على مزايده، ودقائق خفاياه فلم يستطع أن يرد بعدة عامه
الضئيل تيار المعلومات الجديدة، ويقاوم جيش تلك الافكار الحادة
وكثيراً ما تغلب عليه المحافظة على العلوم الحديثة، والرسوم الجديدة
(وهي مزبته التي امتاز بها على غيره) فيعدل بالدين عن سنته،

وينحرف به عن طريقه ، غير متغلغل الى روحه الباطن ، ولا واصل الى
مرماد البعيد ، فكانت النتيجة أنه أراد أن يهديهم فأضلوه ، وأن يأخذهم
فأخذوه ، فانه أوتى من الحظ اللسانى أكثر مما أوتى من الحظ القلبي ،
فأحييت أن أبرز لك مؤلفاً تجد فيه طلبه روحك وبدنك ، وبغية
علمك وعقلك ، وسعاده دينك ودنياك ، وأنى معك على ما تحب من
الدليل والبرهان ، والدوق والوجدان ، فهناك كتاباً يجمع بين الطريقة
العصرية ، والدقة الفلسفية والوجهة الدينية ، والبراهين العقلية ، ويوافقك
بما تتوق اليه نفسك من أسرار الدين ، ومكارم الاخلاق ، وعلاج أدواء
النفوس ، مرشداً الى أن التريية ليست على ما يظن الناس ، مبنياً ما أودع
فيك من أسرار غفلت عنها ، وأوغلت فى البعد منها ، وقد كنت بها
روح المكنونات ، ومرتأة تتجلى فيها جميع الصفات الالهية ، ومظهراً لجميع
العوالم العلوية والسفلية ، وأن ما تشرئب اليه وتتلهف عليه ولا تدري
متى تصل له من الراحة والسعادة يجب أن تبحث عنه فى طوايا نفسك
التي كمن فيها من نفائس الكنوز ما يجعلك ملكاً عظيماً ، أو ملكاً
كريماً ، فتستوى على عرش العزة القعساء ، وتمر على كل من فى الدهماء
بأثنيه والخلاء ، لا أن تطلبه من الخارج الذى أوجب لك الشقاء
وأضاع منك الهناء

دواؤك فيك وما تشعر * ودواؤك منك وما تبصر
وتحسب أنك جرم صغير * وفيك انطوى العالم الاكبر
الى آخر ما تقر به عينك ، ويصفوا به عيشك ، ويستريح له وجدانك

ن شاء الله ، وسأفرغ الوسع في بيان محاسن الدين الاسلامي لأبناء
لامة الذين جيلوه فعادوه ، مزيلاً سوء التفاهم بينهم وبين العلماء ،
ووفقاً إياهم فيما يريدون من عرض كل شئ على العقل ، ووزنه بميزان
لفهم ، غير أنه ليس من الحق في شئ أن يكون كل عقل حاكماً
في كل شئ ، وإذا كنت لا تحكم في المسائل الطبية إلا بعد مراجعة
الطبيب بل لا تثق بنفسك في شأن من شؤون حقولك إلا بعد
مشاورة الزراع ، ولا في أمر قضايك إلا إذا عرفت رأى علماء القانون
فليس من الانصاف بعد ذلك أن تحكم بعقلك في كل ما تسمع من
أمور الدين ، دون أن تراجع فيه الكلمة من ذويه الذين أفنوا فيه
أعمارهم واستنفدوا قوتهم . عالمين أن له مراعى بعيدة تناسب واضعه
(الحكيم الا كبر عن وجل)

(ايقاف القارىء على بعض ما في الكتاب)

قد أذكرنا في هذا الكتاب من ذكر الأمور الروحانية
والحقائق الدينية ، وتوجيه الانظار الى طلب السعادة الحقيقية ، رغبة
في اقتلاع أصول الشقاء من قلوب اخواننا العصريين الذين أعدوا
نفوسهم للعدوى بكل أمراض الغريين ، وقد سبقت الى ألواح
نفوسهم نقوش المدنية الجديدة التي تعادى الدين ، وتحقر المسلمين
فنحن نحاول بكل جهد وتلطف أن نزيل تلك النقوش من ألواح
النفوس ، ونثبت فيها نقوشاً اسلامية نكثر فيها من ذكر الارواح

مذهبهم بين شباننا ومتعلمينا اغتراراً بما تعلموه من ظواهر الطبيعة
التي قال فيها الفيلسوف الكبير (باكون) من أخذ علم الطبيعة رشفاً
بأطراف الشفاء كان ملحداً ، ومن شربه عباً أوصاه الى الخالق
هذا وقد سميته (سبيل السعادة) ليكون اسماً ينبئ عن مساه
ولفظاً يشير الى معناه ، والله المستول أن يرزقني فيه خالص الاخلاص
ويرزقك به مزيد الانتفاع في دينك ودنياك

وانى مستعيد به من تشدق المتفهبين ، وتنطع الجامدين ، وقصور
الجاهلين ، وتناول الحاقدين ، انه على ما يشاء قدير ، وبتحقيق أمل
الآملين جدير

يوسف نصر الدجوى
المدرس بالأزهر الشريف

(تنبيه) — وقع في هذه المقدمة تلك العبارة (سيراً تكلفياً لا طبيعياً)
وقد أثرتنا التعبير بذلك مع كون قواعد النسب توجب حذف الياء
فيقال طبيعى لا طبيعى علماً بأن السامع اذا سمع مثلاً كلمة طبيعى أو
بدهى فى طبيعى وبدهى أخذت غرابتها بنفسه فانصرف عن
المعنى مع ملاحظة ان كتب الاخلاق انما ترمى الى تكيف النفوس
بمعانيها فليست على نحو كتب الادباء التي ترمى الى الاغراض اللفظية
(واسكل وجهة هو مرليها) ولعل أفضل ما ترمى اليه كتب الاخلاق
هو تكيف النفس بالسهولة والسيولة وعدم الجود وترك التكلف فى
الاشياء كلها . وقد أخرجنا هذا التنبيه ولم نضعه هناك حرصاً على قاب
القارىء ان يتفرق قبل تمام الموضوع

(مقدمات يشيد عليها صرح ببناء الاخلاق)

« الانسان مجمع العجائب والغرائب »

يخيل لى عند ما أردت شرح الانسان وبيان ما فيه من عجائب
الصنع وبدائع الخالقة ، أنى كلفت نفسى أن تقتلع جبل (أفرست (١)
أو تستنزل الثريا من مكانها الرفيع ، بل أن تعرف جميع ما فى العالم
من أرضه وسماؤه ، وفرشه وعرشه ، وتزن ذلك كله وزنه الحق بميزان
فكرها الضئيل ، وتنظره ببصر عقلها الكليل ، ولعلك تستغرب من ذلك
التهويل ، وتعدده ضرباً من مبالغة الكاتبين ، ولكن يزول عجبك
ويستقر وهمك هادئاً مطمئناً ، اذا عرفت ان هذا الانسان الضعيف
نسخة من العالم الكبير يمثل كل ما فيه ، بل ان شئت فقل انه يزيد
عليه بخصائص لا توجد فى غيره . ولذلك جعله الله خليفة عنه فى هذه
العوالم الارضية ، وأسجد له ملائكته المقربين ، فله اذاً الرياسة والشرف
على جميع العوالم العلوية والسفلية ، بل يزداد فرحك واعجابك بنفسك
اذا عرفت أنك مستعد لأن يفاض عليك من الصفات الالهية
ما يجعلك ربانياً تفعل عنك العوالم كلها ، وناهيك بمن يقول الله فى
شأنه (اذا أحببت عبدي كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى

(١) هو جبل بسلسلة جبال همالايا بآسيا ارتفاعه ٦٨٤٠ متراً
ويقال انه أكبر جبال الدنيا

يصر به ويدعاه التي يبطش بها)؛ فماذا يكون حاله؟ وإلى أى حد يبلغ بطشه؟ وإلى أين ينتهى بصره؟ اللهم ان هذا فضل عظيم وملك جسيم قد رشحوك لأمر لو فطنت له * فأربأ بنفسك أن ترعى مع الحمل وما سمعنا بهذا الفضل وذلك الاستعداد لأحد من المخلوقات، ولعلك بعد هذا قد أشرقت شمس بصيرتك فتفهم من قوله تعالى مخاطباً لابلis (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) أن هذه النشئة إشارة الى انه لم يوجد من المخلوقات مستعداً لأن يكون مظهراً لصفات الالهية المتقابلة ، كزيد الرحمة وشدة الانتقام ، واتقبض والبسط وغير ذلك ، الا الانسان دون غيره من المخلوقات حتى الملائكة فان من خلق منهم للرحمة مثلاً لا يستطيع أن يتصف بغيرها فليس للملك الا صفة واحدة خلق عليها ، وأما ظهور تلك الآثار المتضادة ، والاتصاف بتلك الصفات المختلفة المتقابلة فهو من خصائص الألوهية التي تدبر كل شئ ، وتفيض على كل شئ وقد اصطفاك أيها الانسان الكريم فجعلك مظهراً لتلك الصفات كلها ، ولكنك جهلت قدرك ، وأغفلت أمرك

إذا فهمت ما ذكرناه من أن تلك الآية التي تشير من طرف خفي الى أن غير الانسان قد خلق بيد واحدة وأما هو فقد خلق باليدين جميعاً لم تكن مبعداً ، ولا متعسفاً ، وأظنك (وقد وصلت الى هذا الحد من شرف الانسان) قد امتلأ قلبك بفضله وكماله ولكن أراني مضطراً ان أتلوا عليك من نبأ تقصه عجباً يدهش اللب ويحير القلب فأقول :

ان الانسان وان كان جامعاً لتلك الفضائل التي تقدم اجمالها، الا أن فيه بأزاء تلك الكمالات التي لا تنهاى نقائص لا يحصرها التعداد . ولا يأتى عليها البيان ، ففيه من كل شر خلقه الله في العوالم كلها ، فاذا تصورت في الاسد قسوة شديدة وافتراساً هائلاً ، أوفى الدب شربها ممقوتاً أو في الحيات ايذاء مفرعاً أو في الثعلب روغاناً محيراً أو في القرد تلوناً مدهشاً، الى أن تأتى على جميع أنواع الحيوانات (١) فاعلم أن تلك الطباع كلها موجودة في الانسان بأتم معانيها، وعلى النحو الذي لا يوجد في شئ من أفراد الحيوان ، فان الانسان معه العقل الذي يدبر ذلك الشر ، والفكر الذي يصرفه حتى يظهره على فنون شتى، وأساليب كثيرة ويتوسع فيه ما شاء أن يتوسع ، حتى يشبع غريزة خبثه التي لا تشبع (وليس في الانسان شئ يشبع) بل اذا دقت النظر وعينت بالتدقيق عن الفلسفة في ذلك الموضوع وجدت الانسان قابلاً لأن ينزل عن حضيض الحيوانات بما لا يعلمه الا الله (والانسـان لا يقف أصلاً بمقتضى حقيقته فهو في صعود دائم أو هبوط دائم ولا نهاية للنقص ولا للكمال) فاذا نظرت للعقرب مثلاً لم تجد فيه من خصال الشر غير شئ واحد ، واذا نظرت للثعلب وجدته كذلك الى آخره وربما اشتبهت نفسك أن ترى شيئاً يكون نمراً وعقرباً ودباً وثعلباً في

(١) أستسمحك في مثل هذا الجمع وأحب أن تغلب علىك الوجهة العقلية على ان الشهاب في شرح الشفاء أجاز أن يجمع منا لا يعقل بالالف والتاء مطلقاً

آن واحد فيتدروهمك يعارضك بأن ذلك شئ تختصره كما تشاء ولا
يتأتى أن يكون له وجود بل لا يكاد يدخل في عالم الامكان
فاذا تاقت نفسك الى ذلك المخلوق العجيب فبشرها أنك
ظفرت بما تريد وفوق ما تريد مما لا يدور لها بخلد ، ولا يخطر لها على
بال . ذلك العقرب الذى هو ثعلب وهو بعينه نمر كما هو قرد هو
الانسان الذى يتلون تلون الحرباء ، فبينما تراه أتقى الاتقياء اذ تراه
أشقى الاشقياء ، وبينما تراه أعدل العاديين ، اذ تراه أظلم الظالمين ،
وبينما تراه يمثل الارانب فى ضعفها وخورها ، اذ تراه يمثل الاسود فى
شدة بأسها وعظم سطوتها ، وبينما تراه أول قانع ، اذ تراه أكبر طامع
وبينما تراه فيلسوفاً قد سار الركبان بحديث نظرياته ، اذ تراه قد تمهوس
فى بعض الضروريات وانحط الى أسفل الدركات ، ولقد أصبحت
ولا أجدنى أستغرب من تضارب الآراء وتناقض الأذكياء ،
وصرت أشك فيمن أصطفاه لعلمى انه بعض الأنعام كالانسان الذى
يعجبك شكله ويستهويك قوله يضم بين جوانحه من الصفات التى
يتقلب فيها متى شاء وكيف شاء ما يربوا على ردائل الحيوان ،
وخبائث الشيطان

واذا نظرت اليه من وجهة أخرى وجدت فيه ما يشبه الجواد
والنبات والبحار والجبال والارض والسماء وتبين لك أن نسبة الروح
الى الجسم كنسبة العرش الى المخلوقات ، والدماغ كالكرسى الذى
ورد فى لسان الشرع والحواس كالملائكة الذين يطيعون الله طبعاً ولا

يستطيعون خلافاً والاعصاب والاعضاء كالكواكب ، والقدرة
كالطبيعة المسخرة المركوزة فى الاجسام ، ومرآة التخيل كاللوح
المحموظ الى غير ذلك مما لا يعيننا القول فيه الان
فانخلاصة أن الانسان مستعد لأن يكون أرفع المخلوقات على
الاطلاق وأحطها على الاطلاق وأنه ممكن جميع الفضائل والبرذائل
ومظهر المتضادات ومجمع العجائب والغرائب.

(حقيقة فلسفية ضل فيها كثير من الناس)

تعلم رعاك الله أن بعض الناس الذين رقى دينهم ، وغلظ حجابهم ،
يتكلمون فيما نسب الى الانبياء مما لم يدروا له تأويلاً ، ولم يعرفوا له
معنى فتراهم ينكرون ما جاء فى الدين من الروحانيات ، وأمور الآخرة
لان طبعهم الخبيث لا يقبله واستعدادهم الضعيف قاصر عنه ، وكثيراً
ما يؤثر ذلك فى قراءة الصحف والمجلات ، فأردنا أن نحذرهم
من تقليد أولئك الجهلاء فى مقالنا هذا وبحاولنا أن نرجع ذوى
الثروة الذين يريدون أن يطيروا بأجسامهم الثقيلة فى جو سماء الارواح
الى خطة الانصاف ، حتى يعرفوا أن لهم درجة من العلم والاستعداد
يجب عليهم أن يقفوا عندها ويدعوا ما وراء ذلك ولا يخوضوا فيه

وقد نشرت هذه المقالة بمجلة الملاجىء العباسية منذ زمان طويل
فأثرنا نقلها برمتها لما فى الكتاب من الموضوعات الكثيرة التى تعلوا
عن استعداد بعض الناس حتى اذا لم يصلوا اليها لم ينكروها فيكونون

من الذين يؤمنون بالغيب وهو نوع من الهداية وهناك نص المقالة بعد الديباجة:
أن التفاوت الذى بين أفراد الانسان لم يتفق مثله لا فرد نوع
آخر فليس هناك فرد يساوى ألف فرد أو أكثر من أفراد نوعه غير
الانسان وأنه باعتبار أفرادها لا ترفع الانواع على الاطلاق وأخطأ على
الاطلاق وليس لكل فرد من تلك الافراد علم الا عن نفسه ولا
خبر لديه عن معلومات الفرد الآخر وما هو عليه .

أن كل انسان لا يعرف الا ما يناسب استعداده الخاص ولا
يمكنه أن يعرف ما يناسب ما فوقه من الاستعدادات وما لذلك من
الاحكام الخاصة التى تعلو عن درجته فذلك عالم آخر بالنسبة اليه
محجور عليه دخوله بمقتضى استعداده السافل ، حتى انه لا يكاد يصدق
بأوضحها عند أربابها ، وربما كان البعد فيما بين ذلك وبين استعداد
شاسعاً فلا ينفع فيه البرهان ، ولا يمكنه أن يدركه ، وكان كالذى يكلف
أن يرى ما بعد عن متناول بصره ، وقوة نظره من المراتب لغيره ، ولو
ذكرت الكهرباء وآثارها للمصرى الساذج منذ مائة سنة ما صدقك
ولو أقمت له على ذلك ألف برهان ، بل ذلك يجده الانسان من نفسه
إذا تأمل فى أحواله وتنقلاته فى أدواره المختلفة يعرف أنه كان فى دور
السذاجة ينكر ما يعتقد الآن فى دور العلم ، ولا يزال هكذا يترقى فى
معرفة الحقائق « يعتقد اليوم ما كان ينكره بالأمس »

وقد استبانت تلك الحقيقة لأساطين الفلسفة فى أوربا فاعترفوا
بأن ما مجهولون أكثر مما يعلمون وان هناك فوق استعدادهم ما لم يصلوا

اليه حتى الآن، وقد قل انيسوف (سينار نومبروزو) في كتب ألفه
في اثبات الاسبرترزم « استحضار الارواح » (لنحذر من ادعاء دقة
العقل ، واعتقاد ان كل من سوانا مخرفون واهمون ، ونحترس من الزعم
بأننا وحدنا العلماء دون غيرنا فان ذلك يوقع ولا شك في الضلال
والخيرة) ولو ذكر لا رسطو وأفلاطون وسقراط ان الماء مركب وأن
الذهب غير مركب، لأنكروا ذلك كل الانكار، كما أنك تعد انحصار
العناصر في الأربعة التي يذكرها القدماء الذين يجعلون الماء بسيطاً
والهواء كذلك، جبالاً عظيماً أو خرافة لا تسمع ، فليس من العقل ان
نحكم في كل شئ بالاحكام الجازمة ، بل يلزمنا ان نعتقد ان وراء
استعدادنا ما لا يدخل تحت مداركنا

ولو فرضنا ان حاسة الشم مثلاً كانت مفقودة من العالم كله
لأنكروا نوع المشمومات بأسره لفقد آلة ادراك فيهم

ولعل هناك من الأشياء ما لا يدرك الا بحاسة سادسة لم تخلق
فيها أوفى بعضنا ، فكانت تلك الاشياء عنده داخلية في عالم العدم
لا في عالم الوجود ، وهكذا كل انسان محصور في سجن استعداده
المحيط به من كل جهاته ، لا يمكنه ان يرفع رأسه الى ما فوق سقف
ذلك السجن ، ولا ان يجاوز بصره ما وراء حيطانه ، وان كان في وسط
ذلك العالم الفسيح ، والاشياء موجودة في أنفسها لا يؤثر فيها جهل
الجاهلين بها، وكل يرى منها على قدر بصر عقله، فليست الاشياء كلها
موجودة في حقك ، أو لست أنت موجوداً الا في بعض يسير منها ،

وان كان يخيّل لك انك فى الكون كله

وبهذا تعلم ان حكم الطبقة الدنيا على الطبقة العليا لا يكاد يقرب من محل الصواب الا بالصدفة والاتفاق^(١) ، أو بالقرب من درجة تلك الطبقة العالية، بل اذا رأينا شخصين من طبقة واحدة وقد صدر منهما فعل واحد لم يمكننا ان نحكم عليهما حكماً واحداً حتى نعرف مبدأ الفعل وباعثه وغايته التى تراد منه عند كل منهما ، فقد تكون صورة الفعل واحدة وهو حسنة كبرى بالنسبة الى شخص وسيئة عظمى بالنسبة الى آخر، ودرجات الافعال فى ذلك وجزاؤها على ما يقتضيه وزنها الحقيقى لا يتضح فى هذا العالم الا نوعاً من الاتضاح ، ولا يقوم بالجزاء الحق الا من علم كنه الاشياء على ماهى عليه فى الواقع، وليس الا الله تعالى كما قال (وان كانت مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسين) ولا بد ان تكون قد علمت بعد هذا ان كل انسان انما يحكم على حسب ما يريه بصره الضعيف أو القوى (المحدود على كل حال) وما بعد عما يتناوله ادراكه هو بالنسبة اليه فى عالم العدم، وان من الجهل ان يعتقد الانسان ان كل شئ يدخل تحت علمه ، ويمكنه ان يصل اليه

كما خلقت على حد محدود فى القوة الجثمانية، فلا تستطيع ان تنقل

(١) أستسمحك فى التعبير بكلمتى الصدفة والاتفاق وأمثالها ولا أزال أكرر انه خير لك فى مثل هذا الكتاب أن تغلب عليك الوجهة العقلية

لصخر، ولا أن تحرك الجبل، ولا أن تسمع من الاصوات أو ترى من
لبصرات الا على مسافة مخصوصة، ولا يمكنك أن تصل الى ما وراء
ذلك ولو جئدت سمعك وأتعبت بصرك، كذلك خلقت على حد
محدود فى عقلك وادراكك، فأنت محدود فى جميع أمرك مقيّد فى
ستعدادك الباطنى، تقييدك فى استعدادك الظاهرى، وان كان يمكنك
أن تترقى ولكن الى حد محدود أيضاً، ولكل من الدرجتين علوم
نخصها لا يمكنك فى كلتا الحالتين أن تتجاوزها الى ما وراءها

وليس ذلك الاطلاق الذى تتخيل، والقوة غير المحدودة فى كل
شئ، والعلم غير المتناهى، الا لله تعالى، وتعلم أن من الحكمة بعد ذلك الزام
كل حده حتى لا يحكم الصغير العقل، الضعيف الاستعداد، القليل
المعلومات، النازل الدرجة، على العظيم فى كل ذلك

واذا أيننا على السوق الساذج ان يتكلم فى السياسة، ويحكم على
قادة الأمم وكبرائها، بأحكامه الجائرة التى لا يشك هوفى عدالتها
ويخطئهم فى آرائهم التى لا يعرف أسرارها، ودخائلها، فكيف لأنابى
على هؤلاء "زعانف الذين لم يعرفوا من العالم المحسوس الا ظواهره
فضلاً عن العالم الروحانى الذى لم يشمواله رائحة ان يتكلموا فى
الانبياء والمرسلين، ويحكموا عليهم بجهلهم حكم من فى الارض على من
فى السماء، فأمر الدين أدق وأغمض من أمر السياسة، وأرفع من ان
يصل اليه أو تشك الجئانيون، وبينهم وبين الانبياء أبعد مما بين الملوك
والسوقة، وأرفع مما بين الفرش والعرش، وان العلم أشبه شئ بالبحر ومن

نزل البحر ولم يحسن السباحة أدركه الغرق لا محالة ، وليست كل سفينة
تصلح لكل بحر ، ولا ربانها يسير بهامع كل عصفه ،
فعليك أيها الراغب في سعادتك ، الخطأ لأمر دينك ، الخائف على
نفسك ، ان تنتقى لأمرض قلبك من العلماء كما تنتقى لأمرض بدنك
من الحكماء ، وان تحتاط في تحصيل مزاياك كما تحتاط في اكتساب
قضاياك ، فإزاء ذلك شقاء ما له غاية ، أو سعادة ليس لها نهاية

﴿ الروحانيات ﴾

« اثبات الروح »

رأينا أن نذكر لك كلمة عن الروح حتى تعرف خصائصها ، فلعلك
تشتاق إليها ، وتسعى لها سعيها ، فتجيا حياة طيبة ، وتسعد سعادة أبدية
وتكون انساناً تام الانسانية ، ولا تكون ممن أغفلها أو أنكرها ، فخرس
خسراناً مبنياً (فأنت بالروح لا بالجسم انسان) غير اني أشرت عليك
قبل الخوض في الموضوع أن تتجرد عن كل ما علق بذهنك
وتحكم عقلك ووجدانك ، ولا تنفر من أول الامر كما يفعل كثير من
جيلة المتعصبين الذين يرثى لهم

وإذا لم يصل فهمك الى شيء مما نذكره فلا ينبغي أن تجزم
بعدم صحته ، وتسارع الى انكاره ، فلعله من الأمور التي جزم
بها غيرك

وإذا كنت تسلم لأرباب العلوم الطبيعية آراءهم في كل شيء

وتحسن الظن بهم فلا تبحث وراءهم في شيء، وتقول أنهم اكتشفوا (١)
من النواميس الطبيعية ما لم نكتشفه ، فلعن أرباب العلوم
العقلية أو الدينية قد اكتشفوا أيضاً من النواميس الروحانية ما لم
تكتشفه أنت ، ولا وجه لأن تكذب في هذه وتصدق في تلك مع
كونك بالظواهر الروحانية أجهل منك بالظواهر الطبيعية

وإذا لم تر الهلال فسلم * لأناس رأوه بالابصار

وقد تقدم في المقالة السابقة ما يكفي لاقتناعك وإيقافك عند حدك

وبعد هذا فأنا نصدع بالحق الصراح وندعك تعتقد ما تشاء فنقول :

أن في الانسان جزءاً آخر غير ما نشاهده من هذا الجسم ، له من
الخصائص ما يبين خصائص الاجسام ، فهو يقبل توارد المتضادات
عليه ، واجتماعها اليه ، في وقت واحد ، فيدرك الموت والحياة ، والارتفاع
والانسفل ، الى آخر المتضادات ، بخلاف الجسم فلا يقبل السواد مع البياض
مثلاً ، ولا الطول مع القصر ، وهي مدركة للروح معاً في آن واحد ، وإذا لم
يقنعك هذا الدليل أتينا لك بدليل آخر عسى أن يكون أبين في
نظرك وأقرب الى اقتناعك وأوفق بعلمك واستعدادك ، وهو أنهم
قرروا أن الجسم بمنزلة الثوب الذي يستبدله الانسان بغيره كل
مدة من الزمان ، فكذلك الجسم يزول عنك بواسطة التحليل

(١) يقال كشف بتشديد الشين ولا يقال اكتشف كما في كتب اللغة
وان كان شائعاً ولكن عبرنا بذلك لكونه المأنوس المؤلف على أن باب
التجوز لا حرج فيه

والتعويض كل مدة سبع سنين ، على ما يراه بعضهم ، فتطرحه
وتلبس غيره

ولو كان كل غذاء ينقلب بعد أدوار الهضم جزءاً من جسمك
بلا تحليل ، لكنت اليوم أكبر من الجمل ، وأعظم من الفيل ، فالجسم اذاً
يتبدل ويتحلال لا محالة

ولكنك تحس بشئ فيك لا يتغير ولا يتبدل على تعاقب
الحدثان ، تنسب اليه الافعال التي كانت منذ صغرك ، لأنه هو هو لم
يطراً عليه تحليل ولا تعويض ، وأيضاً من قطعت يده أو رجله أو غالب
أجزائه يقول (أنا) ، بكل معنى الأناية ، فهذا الجزء الذي تمر به الايام وهو
كما هو لا يطراً عليه زوال ولا يعتريه اضمحلال هو الروح وهو الذي
يعبر عنه الانسان بـ (أنا) ولو قطعت جميع أجزاء بدنه

ولو رجعت الى وجدانك الصحيح ، وزالت عنك تلك الغشاوات
كلها لرأيت أن هذا النظر الواسع ، وذلك الفكر الكبير ، وتلك الغرائز
التي لا يكفيها هذا العالم الذي نحن فيه ، ولا يصلح لها الا عالم لا نهاية
له ، حتى يشا كلها في أحوالها ، ومطالبها ، لا يتأتى أن يكون لهذا الجزء
المادى الأرضى الذى لا يفارق بقية المواد الأرضية فى شئ ويتعين
أن تكون هذه الاحساسات وتلك الادراكات هى شئ آخر علوى
سماوى مجرد عن المادة وعلاقتها ، صالح للبقاء السرمدى ، والا كان وضع
تلك الغرائز فيه التى تكره الحدود والنهايات عبثاً محضاً لا يليق
بحكمة الحكيم عز وجل

وأما لوازم الأجسام فعلى الضد من هذا، ومعلوم أن تنافي اللوازم
يوجب تنافي الملزومات. وإن كان لا بد لك من الرجوع الى أقوال الغربيين
وآرائهم ويعسر عليك أن تقلد سواهم ولو بعد الدليل والبرهان فارجع
الى ما قرره علماء الاسبرترم (استحضار الارواح) في ذلك تر العجب
العجاب وسنقل لك نبذة منه بعد

(ايضاح وبيان)

ان الانسان يحمل في ذاته شعوراً غير محدود، ويعرف كلاً
لانهاية له ، والعالم الجسماني كله محدود، فلا بد أن يكون هذا الشعور
لعالم آخر ليس من طبيعة الأجسام،
أن من ينكر الروح لمزيد كثافته، وضيق نظر عقله كمن ينكر
وجود الافلاك العلوية لعدم وقوع بصره عليها ، وما أضعفه برهاناً
وأسمجه احتجاجاً

أن المادة قد تعسر الوصول الى حقيقتها البسيطة وهي المسماة
بالهيولى أو الاثير، وذلك لبعدها في حالتها الأولى عن تلك الكثافة
التي سمحت لها أن تبصر وتحس، فاذا كان هذا شأن المادة الغليظة
الكثيفة ، فكيف يكون شأن الروح التي هي من طبيعة أخرى وعالم
آخر؟ وقد بلغت في اللطافة حداً لم يبلغه شيء سواها. (ولئن كانت أخفى
الاشياء بحقيقتها فاتها أظهرها بلوازمها وآثارها)

ان من ينظر في الجسم يجد كل ما فيه آلة لشيء خاص، قد نيط

بها وظيفة خاصة ، فلا بد أن يكون مستعمل تلك الآلات كلها في الأغراض المختلفة شيئاً آخر ، يعتبر فاعلاً لا آلة

إننا قد نرى الولدين الصغيرين على غاية التباين في الاخلاق ، فيكون أحدهما كذاباً خداعاً جباناً ، ويكون الآخر لا يعرف الكذب ولا يرضاه ، ويأبى الغش والخديعة ، وينفر من الجبن والثواكل ، فلو كان الامر مادياً صرفاً لما وجد هذا التباين ، لأن الشئ الواحد لا ينشأ عنه أثران متباينان ، فلا بد أن يكون ذلك راجعاً الى أرواحهما التي تدير أبدانهم ، والافعالوا لنا ذلك تعليلاً طبيعياً معقولاً ، في هذين الولدين اللذين نشأ في بيت واحد ومدرسة واحدة ، بين أب واحد ، وأم واحدة لعلمك تعلم أن جسم الانسان تتحلل أجزاؤه دائماً ، ويخلفها غيرها حتى اذا مضت عليه سبع سنين لم يبق من أجزائه الاولى شئ ، فلو لم يكن وراء المادة فيك أيها المتبصر عالم آخر ، يرجع اليه أمر العلم لوجب أن تذهب علومك القديمة مع أجزائك التي ذهبت حيث أنها مرتسمة فيها ، وليس وراءها عالم آخر من الروحانيات لا يخضع لسلطان الفناء على هذا الفرض ، والا فهل كتبت المادة الذاهبة علومها في المادة الجديدة قبل أن تمضي الى شأنها؟؟!! أم لقتها تلك العلوم شفهاً؟ وان قلنا ذلك فأين كانت تلك الكتابة وذلك التلقين وهما لم يجتمعا في جسم الانسان لحظة واحدة؟ بل لا تجيء الاجزاء الجديدة الا بشرط انعدام الاجزاء القديمة ، (ولعلها اعنت حضرات الماديين أرسلت لها من ينسخ

فيها علومها بعد ذهبها، ويوصيها بالاحتفاظ بها، ويبين لها درجاتها
المتفاوتة على حسب ما كانت عند سلفها من الأجزاء المتحالة) :
نرى الانسان يعقل الأشياء المعنوية الصرفة كاستحالة اجتماع
المضدين مثلاً، وبالضرورة لا يحتاج في ذلك الى شيء من الحواس، بل
كلما تباعد عن المحسوسات كان ادراكه لتلك المعقولات أكثر
وأتم، وليس ذلك شأن الأجسام.

لو كانت الروح مادة جسمية لكان الارتسام فيها على نحو
الارتسام الذي نعرفه في المادة، فكان لا يرسم فيها بالضرورة الا
علوم محدودة على قدر طولها وعرضها، لأن المحدود لا يرسم فيه غير
المحدود، ونحن نراها تقبل من العلوم والمعارف ما لا نهاية له، ويبقى
منقوشاً فيها الى ما لا نهاية له، ولم نرها تضيق به يوماً من الايام، بل
تتسع لكل ما يرد عليها، وتزداد به قبولا أسواه، (على عكس المادة)
أفلا يكون هذا النوع من الانتقش وذلك التباين الكلي برهاناً
ساطعاً على أنها شيء آخر غير المادة؟ التي عرفنا كل أحكامها التي من
أخصها أنها محدودة، وكل محدود لا يقبل الا محدوداً، والا فليقولوا لنا
كيف تحفظ تلك المدركات الخارجة عن النهاية في تلك النقطة التي
يخصصونها لذلك من المخ؟ وما مقدار تلك النقطة؟ وكيف وسعت علم السموات
والارض؟ وكيف انتقش فيها؟ وكيف يقبل المتناهي غير المتناهي؟، أن
أمر الادراك وحفظ المدركات لمن أعجب الأشياء! ولا يقبل الوجدان
السليم أن يكون مادياً أصلاً، بل يجب أن يكون من ظواهر طبيعة

عالم أرقى من المادة، وما صرفنا عن التفكير فيه حتى صرنا نستهبين به
ولا نلتفت إليه الا كثرة اعتيادنا إياه، وكل أمر معتاد لا يلتفت إليه
نرى النفس تستهبين بكل مطالب البدن عند ما تريد أن تحصل
فضيلة من الفضائل، فربما استمر الانسان غافلاً عن غذائه ودوائه في
سبيل ما يكمله من العلوم والمعارف، فلو كانت النفس جسمانية لما تركت
ما يقيمها من الغذاء الحسى وعدلت عنه، باختيارها، مع أن في ذلك
اضمحلال للجسم، ولكن لكونها من العالم الاعلى قدمت غذاءها
المعنوى على غذائه الحسى، قال (أرسطو) ومما يدل على ذلك أن
النفس الناطقة تقاوم لذات البدن وشهواته، وتمنع منها وتستهبين بجميعها
في طلب الفضائل التي تريد أن تتكامل بها،

والاشياء المتقوية من شئ لا تعاند ما به قوامها، ولا تمنع منه، بل
تطلبه لان في منعها منه بطلانها، ولا شئ يطلب ما يبطله، وانما يطلب
ما يقيمه ويزيد فيه،

ثم قال أن للنفس فعلاً ذاتياً وحركة ذاتية لا يستعمل بها شئ من
الآلات، بل الآلات كلها عاتقة عن تمامها، وذلك في ادراك المعقولات
الصرفة مما دل على مفارقة النفس للبدن حقيقة، وعلم بذلك أنها باقية
دائمة البقاء، وأما ما يتوهم من توقف الادراك على الآلات الجسمانية
فانما هو في الامور المحسوسة المادية

قل للماديين أى مانع من وجود أشياء لم تدركوها بحواسكم ولا
آلاتكم التي وصلتم اليها حتى الآن؟ بعد أن قلتم ما قلتم في (المكروبات)

وفى (الاثير) الذى لم تعرفوه بأقوى آلاتكم، وانما تظنون ظناً وما أنتم
بمستيقنين، مع ان ذلك كله من هذا العالم فبالكم بالعالم الآخر
الروحانى الذى يبين هذا العالم كل المبينة، وان شئت فانظر الى ظنونهم
فما قالوه من أن العوامل أو القوى الكيماوية وهى الحرارة والكهربائية
والمغناطيسية، ما هى الا انشاق من الاثير وهو الاصل الذى يجمع
المواد الاربع غير القابلة للوزن فى مادة واحدة، وهذه الاربعة هى
الثلاثة المذكورة ويزاد عليها النور، فأى مانع من وجود أشياء تعجز
حواسكم معشر الماديين عن ادراكها؟ وقد تحقق ذلك بالموجودات
الميكروسكوبية التى لا تدرك بالبصر المجرد، وأى مانع من وجود أشياء
يحتاج ادراكها الى حاسة أخرى لم توجد فيكم ؟

هل يؤوب الطبيعيون الى رشدكم حيث لم يمكنهم أن يعملوا لـ
ذلك النسيج الذى فى بدن الانسان من العظم واللحم وغيرها ولم يعرفوا
كيف يتكون ذلك من تلك الاغذية الميته؟ فيقولوا أن ذلك لا يكفى
فيه اجتماع المواد الكيماوية التى نعرفها، بل لذلك شرط وراء ما نشاهده
وهو تسلط الروح الربانى الذى هو من أمر الله على ذلك الجسم الحيوانى
الذى جهلنا ما تسلط عليه من تلك الروح فلم ندرك حقيقتها، وان كنا
نعرف كل المواد الموجودة فى ذلك الجسم، ونعلم ظواهرها الطبيعية
وتفاعلاتها الكيماوية، وكل ما ينجم عن ذلك، ولكن (من يهد الله فهو
المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً)

(سبب اشتباه الماديين و غلطهم في هذا الموضوع)

لعلك تتساءل كيف أنكر الماديون وجود الروح؟ مع اعترافهم بأنهم لم يصلوا الى ادراك سر الحياة ، ولم يمكنهم أن يعالوها تعليلاً صحيحاً حتى قال بعض فلاسفة (الظلمات) وهما (دوتروسيه) (وييشا) حينما عجزا عن الوصول الى ذلك كما عجز غيرهما (أن الحياة فلتة طبيعية ضد النوايس العامة للمادة، وتعطل وقتي لقوانينها الطبيعية ، ولا تلبث أن تخضع تلك الفلتة الاستثنائية لقوانينها، وترد الحى الى أصله الميت) وكأنهم بعجزهم هذا عن حل مسألة الحياة يقررون قوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا) ، وهل لذلك الانكار من سبب بعد ما سبق من الأدلة ؟ وبعد ظهور أن أمر الادراك يجب أن يكون من ظواهر طبيعة أخرى لعالم آخر ، وقد قال بعض كبار فلاسفة أوربا (أنا لا أصدق أن هذا الانسان المتفكر ليس فيه شئ غير تلك المواد التى يتركب منها الفحم والحديد الى غير ذلك مما قالوه وهو كثير

فاعلم أن سبب ذلك الخلط والذم زج بهم فى ظلمات بعضها فوق بعض ، حتى صادموا الاحساسات الانسانية ، وأنكروا أوائل العلوم البديهية ، وضرَبوا فى تيهاء من الوهم والخيال ، ومثلوا لنا الانسان فتوغراًفاً يتكلم على مقتضى تركيب الآلات الخاصة ، والاجيزة المعروفة ذلك السبب هو أنهم رأوا أن لأعضاء الجسم وظائف تقوم بها ، واذا

أختل شئٌ منها تعطلت وظيفته وكذلك المخ الذى هو محل التفكير
والادراك

وان ما قالوه صحيح ، ولكن اشتبه فيه الحق بالباطل ، والصحيح
بالعاطل ، وما اتبعوا فى ذلك الا الظن والتخمين ، بلا دليل علمي ، ولا
برهان نظري ، ونحن نعرفهم سنة الله فى ذلك ، ثم نناقشهم الحساب بعد
ان الله عز وجل اقتضت حكمته (وهو الحكيم) أن لا يفيض
الروح الا على ما هو مستعد لها ، وليس من سنته أن يعطى الشئ جزافاً
أو يجعل أمر الایجاد فوضى ، لا نظام له ، كلا ، بل تأبى حكمته أن يسلط
الروح الانسانية على الاحجار ، أو يفيض الحياة البشرية بما لها من
الآثار على أصناف النباتات والاشجار ، لعدم القابلية وفقد التناسب
ومن المقرر فى علم الفلسفة أن الامداد على حسب الاستعداد ، وليس
يستعد لذلك الا الجسم الانسانى لما أودع فيه من دقة الصنع ، وبدائع
الأسرار ، وانظر كيف جعل مركز تعلق الروح بالبدن ألطف شئ فيه
ولم يجعل محله اليد أو الرجل أو الظهر مثلاً ، بل جعله المخ الذى هو
ألطف شئ بالانسان ، وعلى ما تراه فى كلام الأقدمين جعله القلب
الصنوبرى ، لكونه مبعث ذلك الروح الحيوانى ، المنتشر الى جميع أقطار
البدن ، ولا شك أن هذا الروح الحيوانى الذى مركزه القلب الصنوبرى
هو ألطف شئ فى الجسم ، فهناك تناسب كبير بينه وبين الروح الانسانى ،
الذى هو من أمر الله ، وستعلم فيما تتلوه عليك بعد أن العوالم مترتبة

فى الكثافة والاطافة ترتيباً غريباً ، وفيها كل الدرجات الممكنة حتى
تصل الى ما يتعالى عن ادراك الحس بوجه من الوجوه
وأما زعمهم أن العلم يقتضى ذلك فهو من الكذب على العلم ، وقد
جاء فى أحد أعداد المجلة الطبية الباريسية هذه الجملة كما فى الحديقة
الفكرية (ليست الفكرة الواحدة الا اتحاداً يشبه اتحاد حمض
(الفوسفوريك) والتفكر نفسه ناتج من انفوسفور الذى هو فى تركيب
المنخ) ، فرد عليها العلامة الطبيعى الشهير (كاميل فلامريون) قائلاً
(من أخبركم بذلك يا حضرات المحررين أن الناس يتوهمون أن
معلمكم يعلمونكم هذه الهذيانات ؟ مع أن الامر بخلاف ذلك لأن هذه
الادعاءات ليست امام النظر العلمى الا هباء منثوراً ، على أنى لا أدرى
أى الامرين يستحق أن تعجب منه أكثر ؟ أمن هذه الجسارة
الصادرة من هؤلاء الممثلين العجيبين للعلم ؟ أم من سخافة ادعاءاتهم
أن (نيون) كان يقول (يظهرلى) و (ديكرت) كان يقول :
أنى أستنزل حلمكم فى هذه الفروض) ولكن هؤلاء يقولون نحن
نحن ثبت ؟ نحن ننكر ؟ هذا موجود ؟ هذا غير وجود ؟ العلم قد
حكم ؟ العلم قد أقر ؟ العلم دحض ؟ مع أنه ليس فيما يقولون ظل من
البرهان العلمى ، الى أن قال : انكم تتجاسرون أن تعزوا للعلم هذا
العبء الثقيل ولئن سمعكم العلم أيها السادة (ويجب أن يسمعكم) لأنكم
أبناءؤه فقد حقه أن يضحك استهزاء من غروركم ؛ أنكم تقولون
العلم ثبت ، العلم ينفى ، العلم يأمر ، العلم ينهى ، وبذلك فأنتم تضعون

على شفتي هذا العلم المسكين هذه الكلمات الضخمة ، وتدخلون الى
فؤاده همزة الكبر والعجب)!!!

فأنت ترى مكان تلك الطنطنة الفارغة، امام الفلسفة الصحيحة
والعلوم الحقمة التي يعرفها مثل (كاميل فلامريون) وغيره، على أننا
نقول لهم اذا كان التفكير افرازاً من افرازات المخ (ولسنا نعقل ذلك
ولا يعقله أحد) وان قال بعضهم أنه مثل افراز الكبد للصفراء
والكلتين للبول) فهل يمكن أيها المجترئون على مالا تعلمون أن يفرز
الانسان من الصفراء، ما شاء متى شاء، كما يمكنه أن يتفكر كذلك أم
هذا قياس فاسد؟ ونظر كاسد ثم نقول لهم :

هذه مادة المخ معروفة العناصر والخصائص فهل من خاصة
الفسفور أو غيره مما تركب منه المخ ما يعقل أن يكون محلاً لهذا الادراك
الكبير والتفكير العجيب وتلك العلوم الواسعة وكيف يدرك الفوسفور أو
غيره من مواد الاخشاب التي نحلمها وتركبها، كيف شئنا وهي بين أيدينا مادة
ميتة تبعد عن العلم والادراك بعد الصواب من الخطأ والحق من الباطل،
وماذا عسى أن يفعله الفسفور في أمر الادراك والعلم ولو توقد ناراً؟ وماذا
تفعل النار فيما هو من تلك الخصائص الانسانية ، والعواطف
البشرية، والطائفة الروحانية بل يمكننا أن نناقش هؤلاء المتبجحين
الذين جملوا أقدارهم، وتعدوا طورهم، سائلين ايهم فيما زعموا أنهم عرفوه،
وهو أقل مما نحن فيه! كيف اقتضت بعض تقط المخ الادراك ، وبعضها
الحركة ، وبعضها الأَبصار، الى غير ذلك فانكم تعينون لكل شئ من هذه

نقطة مخصوصة في المخ، فهل يمكنكم معشر الماديين أن تبينوا لنا العلاقة بين تلك النقط وما يناط بها؛ وما وجه اختصاص كل بكل؛ مع كون العناصر متحدة في الجميع، ولا فرق بينها في الجواهر، وهل يعقل أن المادة المتحدة الجواهر تنتج آثاراً مختلفة متباينة. مع وحدة أجزائها وعدم اختلاف عناصرها؛ اللهم أن هذا لا يستطيع أن يقوله أحد حتى الماديون أنفسهم، فإذا تقول في حل تلك المعضلة بلسان العلم والتبصر: أن المخ شرط في الإدراك، أو في تعلق الروح بالبدن أو هو الرابطة بين العالم السماوى والعالم الارضى، وليس من الجائز أن يكون العلم والإدراك نتيجة تلك المواد الصماء، التي يمكننا أن نجعلها ونعرف ظواهرها كلها، وإن كان ذلك شرطاً في إمداد الروح بالبدن، ومعدداً لقبول فيضان آثاره عليه، ومحققاً لصلاحية جعله مظهرًا للحياة، وأن الفرق بين الشرط والفاعل وبين السيف والقاتل لمن أوضح الواضحات، فكأن المخ مرآة تتجلى فيها صور العالم الأدنى للعالم الأعلى أو تقول انه بمنزلة التليفون الموصل بما فيه من الأعصاب أخبار الأجسام إلى الأرواح، ومن البديهي أن المرآة ليست هي الرأى وإن كانت شرطاً في الرؤية، ولا آلة التليفون المكهربة هي المتكلم أو المخاطب، وإن كان لا بد منها في تحقيق الخطاب فليس يعقل فيها الفاعلية بوجه من الوجوه، ويستحيل أن يكون الاختيار والإرادة والتقن وسعة العلم خاصة من خصائص المادة الصماء العمياء، ولكنهم خاضوا بكتائبهم الطبيعية وظلماتهم المادية فيما لم يحيطوا به علماً من عالم اللطافة ومشرق الأنوار ومنبع الأسرار وأن الأمر على

ما يقول الله عز وجل (فانها لا تعصى الا بأمر ولكن تعصى القلوب
التي في الصدور)

وستسمع في هذا الموضوع ما يشفي الغليل ، ويبرئ العليل في
القسم الذي أفردناه من الكتاب للرد على الطبيعيين ان شاء الله

(شرح بعض صفات الروح)

هذه الروح لها من التأثيرات العجيبة ما يزيد على كل ما تعرف
من تأثيرات الاجسام ، فانها أقبل للفيض الالهي في كل شئ ، وكل
ما كان من العالم الادنى فهو تحت تصرف ما يكون من العالم الاعلى ،
دون العكس ، ولكن تأثيراتها ليست على نحو ما تعهد من قوانين
تأثيرات الأجسام ، فانها تؤثر في الأشياء البعيدة عنها من غير مماسة
ولا مجاورة ، وكأنني بك وقد نسيت الشرط السابق وسارعت الى
الانكار ، (فرويدك أيديك الله) وانظر الى حال الحاسد مع المحسود
كيف يؤثر فيه التأثير الهائل ولو كان من أقوى الاقوياء وأعظم
الأشياء بمجرد توجيهه اليه ، وانفعال نفسه باستحسانه مع الحقده عليه ،
وأما تعليل رشدى بك لذلك في كتاب التنويم المغناطيسى بأنه من
تأثير الاعتقاد فلايكاد يقرب من الصواب ، فان الحاسد يؤثر في الحيوان
الاعجم وفي النباتات والأشجار مما لا يتأتى منه الاعتقاد ، وان شئت فطالع
ما ينقل عن أرباب الانوتزم (التنويم المغناطيسى) حتى تعرف مقدار
ما وصلت اليه روح المنوم (بالكسر) من التأثير في المنوم (بالفتح)

الذى يكون طوع اشارته فى كل شئ ، حتى لو أمره أن يقتحم لجة البحر أو وهج النار لما استطاع أن يخالف له أمراً ، أو يعصى له إرادة بل ذكروا أغرب من هذا وهو أنه اذا وقع فى نفسه أن يقتل أحدا بادر المنوم الى قتله من غير أن يأمره بشئ أو يتلفظ له بكلمة ، ولا بعدى هذا فإن النفوس تحس بما فى النفوس فاذا أحست به (وقد فرضنا أنها خاضعة لسلطان هاتيك النفس الأخرى منفذة لارادتها) لم يكن ما سمعناه عنهم بدعاً من العلم أصلاً ، ولننقل لك نبذة عنهم فى ذلك الموضوع تقيماً للفائدة ، ورجاء أن ينتفع به كثير من شبان المسلمين فنقول :

(أدلة اثبات الروح)

« من كلام علماء الاونبوتزم والاسبترزم »

قال حضرة الفاضل صاحب الأيادى البيضاء فى هذا الموضوع (الاستاذ فريد وجدى) فى دائرة معارفه : —

روى الاستاذ (اكزاكوف) الروسى أن امرأة الاستاذ الانجليزى (دومرجان) اعتادت تنويم امرأة وارسال روحها الى المحل الذى تعينه لها ، فقالت لها يوماً وهى نائمة (اذهبي الى منزلى الذى كنت أسكنه قديماً) فقالت النائمة (قد فعلت وطرقت الباب بشدة) فقالت امرأة الاستاذ فذهبت بنفسى فى اليوم التالى لأتأكد من صدقها فى تلك المسألة فسألت عما حصل فى تلك اللحظة فأجابنى

السكان بأنهم سمعوا طرقاً شديداً على الباب فذهبوا فلم يجدوا أحداً
فعلموا أن ذلك فعل شقياء الاطفال ، يقول (اكرا كوف) عن
هذه الحادثة وأمثلة أخرى تثبت بطريقة لا تقبل الشك أن للروح
وجوداً متميزاً عن المادة ، وأنها تستطيع أن تعمل ما يعين لها بنفسها
واستشهد أيضاً بهذه الحادثة الغريبة وهي أن (لويس) النوم المشهور
أنام امرأة مرة أمام جماعة ، وأمرها بأن تذهب الى بيتها فتتظر ماذا
يعمل أهلها ، فقالت ذهبت فوجدتهم يشتغلون بأشغال منزلية وبينهم
امرأتان تشتغلان بالمطبخ ، فقال (لويس) المسى احداهما بيدك ، عند
ذلك أخذت المنومة تضحك قائلة قد لمست احداهما كما أمرتني فخافت
خوفاً شديداً ، فسأل (لويس) الحاضرين عما اذا كان فيهم من
يعلم بيت المرأة ؟ فأجاب بعضهم بالاجاب ، فالتمس منهم أن يذهبوا
الى بيتها ليعرفوا ما حصل فذهبوا وعادوا مؤكدين أن ما قالته النائمة
صحيح !! وذلك أنهم وجدوا أهل ذلك المنزل في غاية الهرج من
شده الخوف فسألهم عن السبب فأجابوا بأنهم رأوا شبحاً في المطبخ
يمشي ثم جاء فلمس احدى المتين كائناتيه

ويقولون أن الروح وهي على حالها الأول بعد خروجها من الجسد
يمكن مكالمتها ورؤيتها بواسطة شخص يكون فيه الاستعداد لأن
يقع في خدر عام عند ارادته تحضير الروح ، فتستفيد الروح من
استعداده فتكلم الناس بفمه بلغات يجهلها كل الجاهل وتنبئ الحاضرين
عن أمور لأقاربهم وخاصتهم لا يدري الواسطة منها شيئاً ، بل

وتكشف من أسرار العلم والفلسفة والرياضيات العويصة ما يجيله
الواسطة والسمع ، ولا يدركه على سطح الأرض الا فريسير ، وقد
تستولى على يده وتكتب (وعينه مغمضة أو مربوطة) صحفاً ورسائل
وقد تظهر بجسم مادي محسوس بينما يكون الواسطة ملقى امام المجربين
مكتوفاً على كرسيه ، وسبب ربطه هكذا أن الذين يبحثون في هذه
الامور المدهشة من العلماء ملحدون ماديون لا يصدقون بشئ ولا أجل
أن يثقوا من صدق مشاهداتهم التي تهدم لهم كل مقررات فلسفتهم
لا يرضون الا أن تكون الغرفة مغلقة والفرش مفتشاً والواسطة مربوطة
على كرسيه بأربطة متينة مسمرة أطرافها بالأرض ولا يكتبون بذلك
أيضاً بل منهم من وضعه في قفص حديدي ووضع كرسيه على سطح
مائي وأوصل يده سلكاً كهربائياً متصلاً (بجولانومتر) الى آخر
ما قال :

ويمكنك أن تعلل بيان تلك العلوم التي يجعلها الحاضرون ولا
يعرفها الا قليل من الناس بما قاله بعض الحكماء من أن للروح علوماً
ومعارف كثيرة كانت تتمتع بها قبل دخولها في الجسد ولكن لما دخلت
فيه نسيته جميعها وصارت تتعلمها شيئاً فشيئاً وكأن ذلك التعلم تذكير
لها بما نسيته فقط ولذا لا تجد لها سبيلاً الى بعض العلوم لكونه لم
يخلق فيها فلا يمكنك أن تستثيره منها لعدم اشتغالها عليه

هذا ، ويقول علماء الاسبرتزم أن الحد الفاصل بين الاحياء
والاموات ليس على ما يظنه الناس من الخطورة فان الموت ليس في

ذاته الا انتقالاً من حال مادي جسد الى حال أرق منه وألطف
بكثير،

ومن ذلك أيضاً ما حكاه رشدى بك في كتاب التنويم المغناطيسي
أن امرأة نومت بمدينة الاسكندرية وسئلت عن زوجها الغائب
فقالته أنه يباريس بنزل كذا رقم كذا ثم قالت انه مريض ولم تلبث
أن صرخت قائلة أنه قد مات فأرسل تلغراف الى باريس للاستفهام
عن صحة ما قالته فوجد صحيحاً

وقد ذكر أيضاً (أن النوم يرى بمؤخر رأسه ومعدته فاذا وضعت
الساعة على القسم المعدى منه مثلاً وسئلت عنها أجاب بغاية
الضبط)

وليس الامر في ذلك على ما ظنوا من انه يرى بمؤخر رأسه أو
معدته أو غير ذلك مما أستغربوه وعلاوه تعليلاً غير صحيح بل السر
في ذلك هو أن النائم بطل عنده حكم الحواس فلا فرق بين أن يكون
مربوط العين أم لا وصار الحكم لروحه لا لحواسه الظاهرة ولذلك يرى
ما يكون من وراء الجدران في الاماكن المغلقة الابواب أو البعيدة جداً ،
والروح كماستعرف لا تتقيد بمحيز ولا مكان لأن ذلك شأن العالم المادي
فالجهات كلها بالنسبة اليها سواء فهذا هو التعليل الصحيح لا ما ذكره
رشدى بك وغيره في هذا الموضوع

وقال في دائرة المعارف: تألفت سنة ١٨٦٩ ميلادية جمعية من
أكابر علماء لوندرة لفحص هذه الخوارق فحسباً دقيقاً علمياً

وكانت هذه الجمعية مركبة من العلامة (جون لوك) وهو اللورد
أفبى رئيساً لها ، ومن (توما هكسلى) أكبر علماء إنجلترا الطبيعيين
و (لويس) الفزيولوجى المشهور وكيلين لها ، ومن الفريد (روسل
ولانس) أكبر فزيولوجى فى الانجليز ومكتشف ناموس الانتخاب
الطبيعى وهو زميل داروين ومن (دومرجان) رئيس الجمعية الرياضية
و (قارى) رئيس مهندسى التلغراف و (جان كوكس) الأصولى
الفيلسوف و (اكسون) أستاذ فى كلية اكسفورد الخ

فاستمرت فى البحث المتواصل ثمانية عشر شهراً وكانت النتيجة
تأكيداً صحة تلك المشاهدات الخارقة للعادة وكتبوا بذلك تقريراً
مطولاً منه هذه الجملة : أن الجمعية اقتضت فى تقريرها على المشاهدات
التي رآها كل الاعضاء بطريقة محسوسة ، وكانت صحتها مقترنة
بالبرهان القاطع ، أن أربعة أخماس الأعضاء ابتدأوا البحث وهم فى
أشد درجات الإنكار لهذه الأشياء معتقدين قلباً وقالباً أنها ليست إلا
نتيجة الغش أو الوهم ، أو بالأقل نتيجة حال اضطرارى للأعصاب
ولكن بعد أن وضحت لهم هذه الحوادث وضوحاً تاماً فى شروط
نفت كل تلك الفروض ، وبعد تجارب دقيقة جداً تكررت مراراً ،
لم يرهؤلاء الأعضاء المنكرون بدءاً من اعتقاد أن هذه الخوارق
حقيقة رغم أنوفهم ، الى أن قال : وهذا جدول بأسماء مشهورى رجال
الأرض الذين يعتقدون هذه الخوارق ممن لا يستطيع أحد جحود

فضلهم وأنا نستخرج هذا الجدول كما ستراه بلا استقصاء فان الاستقصاء
يضطرنا لذكر الألوف المولفة فإليك : —

(من علماء إنجلترا)

دومرجان . ولیم کروكس . لودج . هكسلى . فارلى . اكس .
تشامبرس . هودس . موزس . بانفور . روسل . ولاس . باريت .
جون ليوك . لويس . جان كوكس . جرسكستون . جرجنى .
باركس .

(من علماء فرنسا)

الدكتور دوزار . موتنيه . كاميل فلامريون . أوليفيه .
سارودو . جول بوا . اوجين نو . دوروشاس . دارىكن . ريشيه .
شارل فوفتى . جان فينو . فيكتور هوجو . جريمار

(من علماء أمريكا)

مابس . هار . اليوت . ادمون . هيزلوب

(من علماء ألمانيا)

زولنر . فيشنر . اولتريسى . ونير . شبنر . وندت

(من علماء إيطاليا)

لومبروزو . كيايا . فالكوم . كيا بارلى

ثم قال بعد ذلك ونحن نقول بعد عرض هذه الاقوال أن حركة
الاعتقاد بالروح فى العصر الحاضر تفوق كل حركة تقدمتها وأن

البرهان المحسوس على وجود الروح وخلودها صار على طرف الثمام
نكل طالب

فياليت رسل الظلمة يفتحون أعينهم لمشرق هذا النور المنبعث
في كل مكان فيقامعون عن تسميم النفوس بكتاباتهم الالحادية والله
من ورائهم محيط

(ما نقل عن حجة الاسلام أبي حامد الغزالي)

« المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية في هذا الموضوع »

سمعت فيما سبق لك أن علماء الاسبرتزم يقولون أن الحد
الفاصل بين الأحياء والأموات ليس من الخطورة على ما يظن الناس
والآن نتلو عليك ما نقل عن الامام حجة الاسلام الغزالي في
هذا الموضوع

نقل عنه أنه قال لبعض أصحابه اتتني بثوب جديد فاني أريد
أن أدخل على الملك فأتى له بثوب فأخذه منه وطلع الى بيته فأبطأ ولم
ينزل فدخل اليه صاحبه ومعه ثلاثة أشخاص فوجدوه قد قبض
وعند رأسه هذه الأبيات

قل لاخلوان رأوني ميتاً	فبكوني ورثوا لي حزناً
أتظنون بأنى ميتكم	ليس ذاك الميت والله أنا !!
أنا في الصور وهذا جسدى	كان يتي وقميصى زمنا
أنا كنز وحجابى طلسم	من تراب كان ضيقا وعنا

أَنْ دَرَقْد حَوَاهِ صَدَفِ
 أَنَا عَصْفُورٌ وَهَذَا قَفْصِي
 أَحْمَدُ اللَّهِ الَّذِي خَلَصَنِي
 كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ مَيِّتًا بَيْنَكُمْ
 وَأَنَا الْيَوْمَ أَنَا حَيٌّ مَلَأْتُ
 عَاكِفٌ فِي اللَّوْحِ أَقْرَأُ وَأُرِي
 وَطَعَامِي وَشِرَابِي وَاحِدٌ
 لَيْسَ خَمْرًا سَائِغًا أَوْ عَسَلًا
 فَافْهَمُوا السِّرَ فِيهِ نَبَأٌ
 فَاهْدُمُوا بَيْتِي وَرَضُوا قَفْصِي
 قَدْ تَرَحَّلْتُ وَخَلَفْتُكُمْ
 لَا تَنْظُرُوا الْمَوْتَ مَوْتًا أَنَّهُ
 حَيٌّ ذِي الدَّارِ نَوْوَمٌ مَغْرَقٌ
 لَا تَرَعَكُمْ هَجْمَةُ الْمَوْتِ فَمَا
 وَخَذُوا فِي الزَّادِ جَهْدًا لَا تَنُوا
 وَاحْسِنُوا الظَّنَّ بِرَبِّ رَاحِمٍ
 مَا أَرَى نَفْسِي إِلَّا أَنْتُمْ
 عَنَصَرِ الْإِنْفُسِ مِنَّا وَاحِدٌ
 فَارْحَمُونِي وَارْحَمُوا أَنْفُسَكُمْ
 أَسْأَلُ اللَّهَ لِنَفْسِي رَحْمَةً

لَا مَتَّحَانِي فَتَفِيتُ الْحَنَانِ
 طَرْتُ عَنْهُ وَبَقِيَ مَرْتَهِنًا
 وَبَنَى لِي فِي الْمَعَالِي مَسْكَنًا
 فَخَيِّتُ وَخَلَعْتُ الْكُفْنَ
 وَأَرَى اللَّهَ جَهَارًا عَلَنًا
 كُلُّ مَا كَانَ تَنَا آيَ وَدُنَا
 وَهُوَ رَمَضٌ فَافْهَمُوهُ حَسَنًا
 لَا وَلَا مَاءَ وَلَكِنْ لَبَنًا
 أَيُّ مَعْنَى تَحْتَ لَفْظِي كَمَا؟!!
 وَذَرُوا الطَّاسِمَ يَعْلُوهُ الْفَنَاءُ
 لَسْتُ أَرْضَى دَارَكُمْ لِي وَطَنًا
 الْحَيَاةُ وَهُوَ غَايَاتُ الْمَنَاءِ!!
 فَإِذَا مَاتَ أَطَارَ الْوُثْنَا
 هُوَ الْإِثْقَالَةُ مِنْ هَاهُنَا
 لَيْسَ بِالْعَاقِلِ مِنَّا مَنْ وَنَا
 شَا كَرَالَسَعَى وَأَتُوا أَمْنًا
 وَاعْتَقَادِي أَنْكُمْ أَنْتُمْ أَنَا!!
 وَكَذَا الْجِسْمَ جَمِيعًا عَمَّنَا
 وَاعْلَمُوا أَنْكُمْ فِي أَثَرِنَا
 رَحِمَ اللَّهُ كَرِيمًا أَمْنًا

(محاوره علميه)

« مع بعض ذوى العلوم الجديده »

نسوق لك هذه المحاوره لتعلم أن أكبر شئ سمعت به فى الدين
لا ينافى الأحكام العقلية ، ولا المقررات العلمية ، وأن خيل ذلك
لفريق من الناس فالذنب لأنظارهم الواهية ، لا لحقائقه العاليه ،
جرى الحديث يوماً بين كبار المتعلمين من الموظفين فى
مسأله عروج (النبی صلى الله عليه وسلم) الى السموات العلى فقابل
ذلك بالانكار الشديد وقال أنى أقیم لك البرهان الملموس على بطلان
ذلك وابتداً يقرر البرهان قائلاً أن طبقات الهواء التى على ظهر الارض
يلغ ارتفاعها نحو عشرة آلاف متر تقريباً ثم ينقطع الهواء بالكلية
ومن الحال أن يعيش انسان أو حيوان بعد ذلك فقلت له لعلك قرأت شيئاً
مما ينقل عن علماء (الاسبرتزم) و (الابنوتزم) ، فقال (نعم) ، فقلت
له هل رأيت فيما قرأت أن بعض المنومين تنوياً مغناطيسياً قد شم
محاول النوشادر المركز ولم يحصل له ضرر ، وأن بعضهم خاض النار
التأججه عند ما أفهمه المنوم أنها روضة يانعة ، الى غير ذلك من
أعاجيب ما نقل عنهم ، فقال رأيت شيئاً كثيراً مما يشبه ذلك ،
ومما رأيت أنه أن بعض الناس وهو مستيقظ لا منوم اعترته حالة غريبه
وقتماً من الاوقات فوجد نفسه على شاطئ البحر ووجد بعض رفاقه
الذين يعرفهم فى باخرة من البواخر اذ حصل لها حادث عظيم ففرقت

فى الحال ثم رجع الى حالته الطبيعية متعجباً مما عراه وراه ، فجاءت
الأنباء بعد ذلك بصحة ما شاهدته فى ذلك الوقت بعينه فقلت له
فماذا تعلق ذلك والى أى سبب مادمى تسنده فقل لا أستطيع أن
أسنده الى شئ ، غير أنى لست بملكذب لعظمة أولئك العلماء الذين
تصدوا لهذا الموضوع مع كثرة عددهم ولكنى مدهوش من تلك
الانباء متعجب منها كل العجب فقلت له أنى أعلمها لك الآن تعليلاً
يقبله عقلك ، ويسترىح له وجدانك ،

أن الروح التى هى من أمر الله المتعلقة بهذا الهيكل الجسمانى
ليست من طبيعة تلك المواد الأرضية ، فلا تخضع لنواميسها بل لها
نواميس أعلى تناسب طبيعتها النورية ، فهى لا تتأثر بتلك المؤثرات
مهما بلغ أمرها ، وليس لسلطان الفناء والاضمحلال عليها من سبيل ، فاذا
غلب سلطانها على سلطان الجسم بالرياضة والصفاء أو بغلق أبواب
الحواس وامانة التوجه الى الحسوسات من نفس الانسان حتى يتخلى عن
تدبير جسمه وعن كل ما يشغله من هذا العالم الحسى رجعت الروح
الى مقتضى طبيعتها ، فظهرت خصائصها ، وسادت نواميسها . وخفيت
أحكام الاجسام فى أحكامها ، فكان الحكم اذ ذاك للروح لا للجسم ،
والروح كما قررنا لا تخضع لنواميس هذا العالم ، بل هى فوقها لأنها
من عالم البقاء لا الفناء ، ومن جواهر التقديس والصفاء ، لا مواد تلك
الأشياء التى يقع عليها بصرك فى الأرض أو السماء ، فيمكنك بعد
ذلك أن تفهم ان مسألة المعراج لا يحيلها العقل الذسى اتسع نظره

فعرّف حقائق الأشياء ، ولم يحصر نفسه فى سجن دائرة هذه
المحسوسات الضيقة

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يعرج به الى تلك العوالم العليا الا وقد
بالغ من الصفاء أكمله ، ومن التقديس عن لوث الظلمات أفضله ، كي
يستعد لما يوحى اليه ، ويلقى عليه ، هذا من الوجبة العقلية

وأما مسألة النقل فهي مسألة أخرى وليس يهمننا الكلام فيها الآن
لرد ما ذكرته من البرهان ثم ذكرت له بهذه المناسبة قول ، با كون
وهو أبو علم الطبيعة كما فى دائرة المعارف وغيرها (أن الحقائق الدينية
قد تظهر لنا باطلة نظراً لضعف معارفنا) ويقول أيضاً (أن الروح تنقسم الى
عاقلة وهى منفصلة عن المادة وغير عاقلة تتولد من المادة وهى للحيوان
والعاقلة الانسان)

فأعجب بذلك الرجل كل الاعجاب وقال صدق من قال من
جهل شيئاً عاداه ، ثم افترقنا ولسان حاله يقول :
لاشئ فى هذه الدنيا نحيط به الا احاطة منقوص بمنقوص

(بيان شوق الارواح الى العلوم والمعارف)

ان كل شئ فى الانسان يميل الى ما يلائمه ويحصل له لذته ،
فالعين تميل الى المبصرات الجميلة لأن فيها لذتها ، والأذن تميل الى
الأخبار العجيبة لأن فيها لذتها ، والأنف يميل الى المشمومات الطيبة
لأن فيها لذته ، وهكذا بالنسبة الى الطعام والشراب الى آخره ،

فكذلك فى الانسان غريزة لا يهدأ شوقها ، الى استطلاع الجبهولات
وادراك حقائق الأشياء ، من ملكوت السموات والأرض ، لأنها
تجد فيه لذتها ، وابتهاجها بما يفوق سائر اللذات البدنية ، ولعلك
توافقنى ، على هذا اذا تخيلت لذتك وابتهاجك الذى يخامرک عند
الظفر بحل معضلة من المعضلات ، فكيف بك عند ما تطلع على
عجائب الملك والملكوت ، وتعرف ما فيها من أسرار الربوبية التى
ربما وصلت بك كما وصلت بغيرك الى حد التوله والهيان ، بجمال ذلك
الصنع الالهى ، وقدرة مبدعه الحكيم ، وما هو عليه من صفات الجلال
والجمال ، التى يضيق عنها البيان ، ويخرس عندها اللسان ، ولا تعرفها
الاشباح ، ولا يذوقها سوى الارواح

(السرف فى تفضيل اللذة المعنوية على اللذة الحسية)

السرف فى ذلك هو أن النفس انما تحب المطاعم والمشارب والملابس
الى آخر الملاذ من أجل محبتها للجسم الذى يحتاج الى كل ذلك ،
فهى انما تحبه بالواسطة لا باقتضاء ذاتها المجردة ، فانها بذلك الاعتبار
تنفر منها وتأبأها

وأما شوقها الى العلوم والمعارف والكمالات فهو بمقتضى ذاتها
المقدسة ، وحقيقتها العالية ، وعالمها الرفيع ، لا بواسطة شئ خارج
عنها ، وبالضرورة ما يكون محبوباً بلا واسطة أتم وألذ مما لا يجب
الا بالواسطة ، بل يمكنك ان تقول ان الذى بالواسطة ليس محبوباً على

الحقيقة . وما أحييناه الا للضرورة ، هذا ومن وجهة أخرى فاللذائذ الحسية لا يتأتى استمرار اللذائذ بها ، فان الأكل مثلاً اذا زاد عن حده خرج عن كونه لذة وصار مضراً أو مهلكاً وأيضاً فالطعام مهما كان لا يلتذ به مالم يسبقه ألم الجوع ، وعلى قدر ذلك الألم تكون تلك اللذة ، (فان شئت أن تلتذ كثيراً فتألم كثيراً حتى تصل الى ما أردت) وأظنك لا تشك في شيء من هذا

وأما اللذة المعنوية فلا يسبقها ألم ، ولا يعقبها ضرر ، ولا يشوبها كدر ، ولا يخشى لها تفاد ، فهي الصافية الدائمة ، بل هي اللذة على الحقيقة ، المطلوبة لذاتها ، وهي مناط السعادة والراحة

وأما اللذائذ الجثمانية فيمكنك ان تقول انها ليست لذائذ وانما هي تخلص من آلام سابقة ، وقلم تنفك عن آلام لاحقة

(بيان أن النفس اذا تزكت اطاعت على المغيبات)

أراني قد أرتج على باب القول لكثرة ما توارد على من المعاني التي تتدافع طالبة للخروج من حيز الخفاء الى حيز الظهور ، (ضاق الكلام بنا من عظم ما اتسعا) ، ولكني سأسوسها وأتلطف بها مراعيّاً رقتها ، ولين ملمسها ، وبهجة منظرها ، محافظاً على كل ذلك حتى لا أظلمها ، مستعظفاً أياها حتى تخرج مترتبة منتظمة ،

هذا مالك على أيها المتعشق لجمال المعاني ، ولي عليك أن تساعدني بالاقبال عليها ، والتلطف بها عند ما تفد عليك ، فهي من العالم

اللطيف ، لا من العالم الكثيف . فمن لى بمن يوصل الى الاذهان
أن الروح كما يمكنها أن تطلع على ما فى الارض ، وظاهر الملك ؛
كذلك يمكنها أن تطلع على ما فى السماء ، وباطن الملكوت ، وكما
ترى من امامها وهى فى هذا الجسم ، ترى من خلفها ، وكما تشاهد من
فى مصر وهو حاضر معها ، تشاهد من فى الصين على حد واحد ،
وسر ذلك أن الروح من عالم الانكشاف وهى من الجواهر
المجردة التى ليست فى حيز ، فنسبة الاحياز اليها على السواء ، فليس
هناك شئ يقرب منها وشئ يبعد عنها ، لان ذلك فرع كونها فى حيز
وجهة ، وقد قلنا انها لا حيز لها ولا جهة ، لان ذلك من خواص
الاجسام ، وهى تباينها فى خواصها وأحكامها ، فاذا الاشياء كلها فى
نظرها على نسبة واحدة ليس فيها قرب ولا بعد ، وليس بينها وبين
ما تريد ان تعلمه الا ان تتوجه اليه فقط ، ولكنها لما دخلت فى هذا
الجسم وأحبته على مقتضى القهر الالهى والحكمة الربانية ، شغلت
بتدبيره والسعى وراء مطالبه (وليس لها الا وجهة واحدة) فأحاطت
بها الظلمات الطبيعية ، والغشاوات البدنية ، وصارت تحت سلطان الجسم
يصرفها فيما شاء كيف شاء ، يرسل بصره فيأتى بأخبار المبصرات
وسمعه فيأتى بأخبار المسموعات ، ويده فتأتى بأخبار اللموسات ،
وهكذا بقية الحواس ، ثم يلقى ذلك كله بين يديها لتنظر فيه فتستعد
لدفع ما يضره ، وجلب ما ينفعه
واذا احتاج الى طعام أو شراب أو مركب أو ملبس أو دفاع

عدوا او غير ذلك ، رفع الامر اليها ، ولم يقبل فيما يريد منها عذرا .
وان حملها أصراً ، فهي منه في شغل شاغل ، وعناء زائد ، لا تكاد
تفريق لحظة من اللحظات ، حتى نسيت ذاتها ، وهجرت عالمها ، حتى
كأنها لم تعرفه .

ولما تفرقنا كأنى ومالكاً على طول وصل لم نبت ليلة معاً
ولذلك تراها اذا هدأت من تدبير البدن ، وانسدت طرق
الحواس بالنوم ، فانقطعت عنها الأخبار الشاغلة لها ، ولم يكن لديها أمر
يهمها في اليقظة ، اشتاقت لعالمها ، فرجعت اليه ، واختلست تلك
اللحظات للتنزه فيه ، والتمتع بجماله ، فربما رجع لها شئ من صفاتها
الأصلية ، فأبصرت المغيبات كما كانت تبصرها قبل ، بمرآة بصيرتها
الصقيلة التي يترا آى فيها كل شئ ،

واياك أن تعتقد ان الرؤيا لا تكون الا من الاهتمام بأمر في اليقظة كما
يقررونه الآن ، فانه قسم منها ، وهو أضغاث الاحلام ، وليست منحصرة
فيه ، وان كان الغالب ذلك ، فايك واعتقاد الانحصار الذي أخطأ وفيه خطأ
فاحشاً ، يؤدى الى تكذيب العيان (وانظر كتب التاريخ في ذلك ان شئت)
والى الحيرة فيما جاء به القرآن ، فى مثل قصة يوسف عليه السلام ، على أن
علماء الاسبرتزم (استحضار الارواح) أنفسهم قد قرروا ان المستقبل
محدود بمحدود مفروغ منها قبل ان يكون ، وان الروح يمكن أن تعرفه
كذلك قبل ان يوجد ، فاربأ بنفسك أن تكذب (وأنت مسلم
تؤمن بالله والقرآن) بما يصدق به علماء أوربا ، واعرف قدر نفسك ،

وكن ملكاً قوياً عادلاً حكيماً ، فى اصلاح أمرك ، وتدبير شأنك ،
وأزل الصدا عن مرآة قلبك حتى تتجلى فيها حقائق الأشياء على
ما هى عليه .

(ولا تكن مارداً تسعى بتفسدة فى ملك ذاتك لكن فيه كن ملكاً)
فابحث عن تفصيل مملكته الواسعة ، التى جمعت كل ما فى
الوجود ، وكن فى أرضها ان شئت ، أو فى سمائها ان شئت ، واعرف
ما اشتملت عليه تلك المملكة الفيحاء ، من أشرار ، فاحذرهم لئلا
يخربوها عليك ، ومن خيار فراعهم وانصرهم ، فأنهم فى ذلة وضعف ،
فقو جانبهم وارفع شأنهم ، بقدر ما يمكنك حتى يتوطد الأمن ، ويسود
السكون ويظهر العدل ، وتتم السعادة ، وابحث عما فى تلك المملكة
من الكنوز فاستخرجها ، فهى أقرب اليك من الكنوز الخارجية
التى أورثتك العناء ، وأضاعته منك الصفاء .
واذكر قول على رضى الله عنه :

دواؤك فيك وما تشعر ودواؤك منك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر
هذا والكلام على الروح طويل جداً ونخشى أن يخرجنا
الشفغ بتحقيق الحقائق على ما نحب الى ما يدق عن كثير من
الافهام ويعلو عن متناول الاوهام فلنقتصر على هذا القدر من
الكلام فيها :

(الفرق بين الاولياء وغيرهم في هذا الموضوع)

اعمالك وقد سبق لك من صفات الروح ما أعجبت به ، تعتقد
أن هذا مقام يطلبه مريد الكمال ، وتشرئب اليه أعناق سادات
الرجال ، غير عالم أن مقام الكشف والاطلاع على المغيبات من أحط
المقامات ، وأنزل الدرجات . عند ذوى الاختصاص من الاولياء
والأنبياء ، ولنشرح لك شيئاً من ذلك اجمالاً ظن بك ، فان لم تكن
من أهله فدعه لأهله ، وخذ من الكتاب ما هو أولى باستعدادك ،
واياك أن تعتقد أن كل ما هو هين عليك هين على سواك ، وآية عدم
الاستعداد أن لا ترى له وضوحاً عندك ، ولا لذة لديك .

وانى أصدع بالامر بلسان أهله ، فأقول : ان هناك فرقاً كبيراً
بين المؤمن الكامل الذى لا يتوجه الا الى معرفة جلال الله تعالى
وعظمته ، غارقاً فى توحيده واجلاله ، ذاهلاً عن كل شئ فى الوجود ،
وبين ذلك الذى تعنيه المكونات فيلتفت اليها بمرآة قلبه ، فيعرف
ما سيحدث فيها من الأمور المستقبلية ، بمقتضى ما لجوهر نفسه من
الصفاء ، فانها بمنزلة البلور الذى ينتقش فيه كل شئ يقابله عند
التوجه اليه ، وأما الاولياء والأنبياء فيأبون أن ينقشوا فى ألواح
قلوبهم شيئاً من تلك الأمور الكونية ، وان كانت من علم الغيب ،
ويترفعون عن أن يتوجهوا اليها ، أو يدنسوا جوهر نفوسهم بها ،
ويخطوا من عوالى همهم بالالتفات اليها ، والاطلاع عليها ، وان كان

أمرًا كبيراً في نفسه عند غيرهم ، ولكنه حقير جداً بالنسبة الى
درجاتهم ، وعلو مقاماتهم . فجللاء الأولياء يرون أن من أكبر
العار النظر الى الأغيار ، والركون الى الآثار ، وأن طلب الكرامات ،
أو الفرح بما يتجلى لهم من ملكوت الأرض والسموات ، لمن دلائل
سقوط المهمة ، وضعف المحبة ، والبعد عن الحضرة ، وعدم خلوص
العبودية ، فإن محب الله لا ينبغي به بدلاً ، بل يرى كل شئ يشغله
عن شهود جماله وجلاله ، واستغراق القلب في جميع أوقاته بعظيم
نعوته ، وجليل صفاته ، أكبر برهان على أنه عبد المظبوط ، أسير
الشهوات ، لا محب لرب الأرض والسموات ، ولا هو من الذين
تطهروا من بقايا نفوسهم ، وخرجوا من جميع أكونهم ، فكانوا لله
لا لأنفسهم في جميع حركاتهم وسكناتهم ، لا يتفكرون الا في مرضاته ،
ولا يتحركون الا في طاعته ، متحققين بقوله (ان الله اشترى من
المؤمنين أنفسهم) ، فهم يرون أن التوجه الى معرفة الحوادث
المستقبلية ، والشؤون الغامضة خروج عن آداب العبودية ، وانصراف
عن الحضرة العلية ، ودليل على بقاء الشهوة ، وضعف المحبة ، وعدم
خروج الكوان من القلب ، ووجود بقايا المظبوطات في أعماق النفس .
ومن يكن هذا شأنهم لم يزالوا في الأكون يرتعون ، وعن مدارها
لا يخرجون ، متكسة أبصارهم الى الأغيار ، وأنوذة نفوسهم الى
الآثار ، بعيدة عن مشاهدة جلال الواحد القهار ، وأن تجلى لهم من

أنوار الملك والملكوت ، ما يحير الأفكار ، يأخذ بالأبصار ، فأين أولئك ممن يقول : —

وليس لى فى سواك حظ فكيفما شئت فاخترنى
أو من يقول : —

قال لى حسن كل شئ تجلى بى على فقلت قصدى سواك
وحد القلب حبه فالتفتانى لك شرك ولا أرى الاشراك
أو من يقول : —

ولو خطرت لى فى سواك ارادة على خاطرى يوما قضيت بردتى
أو من يقول : —

وحرمة الود مالى عنكم عوض وليس لى فى سواكم بعدكم غرض
ومن حديثى بكم قالوا به مرض فقلت لا زال عنى ذلك المرض
وما أجدره أن يخاطب المشغول بأنوار الملكوت عن ذى العزة
والجبروت بقوله : —

وهمت بأنوار فهمنا أصولها ومنبعها من أين كان فما همنا
وبهذا تعلم سر قولهم أن الكشف من أقل الدرجات ، وأنه من
صفات أرباب الأحوال ، الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال ، وتعرف السبب فى
عدم كثرة الكرامات ، والكشوفات من أكابر الصحابة ، وكل السلف
الصالح ، فان بواطنهم كانت مستغرقة الهم بالله ، وظواهرهم مقصورة
على طاعة الله ، ويرون من سوء الادب ، أو انحطاط الهمة ، أو
نقص المحبة ، أو عدم الصدق فى العبودية ، أن يتوجهوا بقلوبهم الى

ماسيحدثه الله في الزمان المستقبل ، أو يعتنوا بشأن كون من الاكوان حتى يجعلوا له محلاً من قلوبهم ، ومركزاً في داخل نفوسهم ، ونصيلاً من عنايتهم وقسطاً من وقتهم ، وتوجهاتهم ، هذا هوشان الكاملين الذين فنوا في محبة الله ، والتزموا الوقوف بباب حضرته ، والعكوف على الاخلاص في خدمته ، قلوبهم هي محل التجليات والفيوضات ، وهي مشرق الأنوار ومتنزل الاسرار ، ولكن يأبون أن يتخذوا تلك الأنوار العلية ، سراجاً يبحثون به عن خفايا المكونات ، أو دفائن المغيبات ، من حوادث الكائنات ، مما هو شهوة من الشهوات ، وركوض في عالم الظلمات ، وهذا قليل من حالهم ، ونذر يسير من شرح كالحلم ، سقناه لك تمحيصاً لما تحب من الحقائق العلمية ، أو تشويقاً للمستعدين لتلك المقامات العلية ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم

(بيان معنى مرض القلوب وموتها)

« والسبب في عدم احساس الناس بذلك »

قال الله تعالى يصف المنافقين ، (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحكيكم) ، وقال تعالى (لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) فجعلهم فريقاً آخر يقابل فريق الاحياء ، وربما يظن ظان ان هذا خرب من التجوز قصد به المبالغة ، وتمثيل المعقول بالمحسوس ، وقد

جاء هذا الظن من التغلغل في المحسوسات ، حتى صار نظره قاصراً عليها ، وأصبح غيرها داخلاً عنده في عالم العدم ، وهي نتيجة طبيعية لكثرة مزاوله المحسوسات وهجر ما عداها . وقد يصل به الأمر الى انكار ما سوى المحسوسات بالكلية ، فيكون بمنزلة من ينكر أضواء الكواكب لفقد بصره ، أو وجود الحيوانات الذرية المسماة بالمكروبات مثلاً لعدم وجود الميكروسكوب (المنظار المعظم) لديه ، ولو أنصف لعرف انه لا معنى للمرض الا نقص الآثار التي كانت تصدر عن قام به المرض . ولا معنى للموت الا بطلانها بالكلية

وأستسمحك في مثل هذا المقام ان تتساهل معي بعض التساهل في التعبير الذي لا يضر في الغاية المقصودة لنا من ايصال تلك الحقائق الى الأذهان ، واياك ان تكون من قاصري النظر المتفلسفين الذين يقفون عقبة في طريق كل خير ، ويطيئون القول على غير طائل فاذا تلك القوة الربانية التي تصدر عنها الآثار العجيبة التي شرحنا بعضها فيما سبق اذا نقص شيء من آثارها كانت جديرة بأن تسمى مريضة ، كما ان العين اذا لم تبصر ابصارها المعتاد كانت مريضة وكما ان حاسة الذوق اذا كانت تجد المر حلواً والحلو مرّاً حكمت بأنها فاقدة لصحتها ، فكذلك القلب اذا صار يستلذ الشر وواقبائح ويميل الى الجهالات (وقد كانت لذته زمن صحته في اكتساب الفضائل والكمالات) كان مريضاً ، وصار بمنزلة من يستلذ أكل الطين ، وينفر من الاطعمة الطيبة ، واذا صار لا يبصر الحق الواضح ، وكان

يصر ما في السموات العلى ، فما أجدره بأن يسمى أعشى ، الى آخر
الصفات التى كانت له قبل ، فانسح منها وتباعد عنها ، ولما كان هذا
القلب هو الانسان على الحقيقة ، وهو المتصف بخاصة الانسانية دون
غيره من أجزاء الجسم . كان جديراً بأن يسمى صاحبه ميتاً ، اذا
ضاعت منه هذه الخاصة ، وبطلت منه تلك الآثار كلها ، وان من
يصف الجسم بالمرض لنقصان بعض آثاره ، ولا يسهل عليه أن يصف
القلب بذلك الا على سبيل التجوز ، كان بمنزلة من يصف النباتات
بالمرض ولا يرضى أن يصف الانسان به مع كونه أتم منها حياة وأعظم
منها أثراً .

ولما كانت حياة الجسم لا قيمة لها بدون حياة القلب : (الروح)
وهى مفاضة عليه منه ، لم يعتبرها القرآن حياة ، وقصر الحياة على حياة
القلوب ، فقال (أو من كان ميتاً فأحييناه) ، لانه يريد الحياة . لانسانية
الانسانية ولا الحيوانية

وأما السبب فى جهل الناس بذلك فهو أنهم لم يعرفوا قلوبهم
الا وهى مريضة بتلك الامراض ، وقلما يذكر الانسان منهم تلك
اللذة التى كانت للقلب زمان الصحة ، أو يعرف ذلك الزمان

اللهم الا فى لحظات قليلة فى صفاء الليل ، فيتنسم نسيم القرب ويشم
رائحة تلك الرياض ، ويدوق بعض تلك اللذة ، ولكن لا يلبث أن
تجذبه سلاسل محبوباته وشهواته الى السفلى فيحجب ذلك الضياء
ويضيع منه ذلك السناء

خطرة في السر منه خطرت خطرة البرق بدا ثم اضمحل
فهو يظن أن هذا هو طبيعة القلب ، وهذه مقتضياته ، وذلك
مبلغ علمه ، وأيضاً فهو لا يجد من الناس الذين هو في وسطهم الا
من كان على شاكلة وقلماً يجد من الأصحاء أحداً وان وجدهم فقلما
يعرفهم . لانه انما يبصرهم بالحس الباطني ، وقد فرضنا مرضه أوفقده ،
وأما الامراض الظاهرية فهي محسوسة بالحس الظاهري ، وكلما
تقلب وجد العدد العديد من الأصحاء

واما من وصل به الحال الى حد الموت فقد بطل منه الاحساس
بالكلية ، وتلف استعداده الاصلى بالمرّة ، فهو لا يصدق بآثار تلك
الروح ، ولا يشفق اليها ، لان الانسان لا يشفق الى شيء الا اذا
كان مستعداً له (فالشوق علامة الاستعداد) وهذا هو غاية الوبال ،
ونهاية الخسران

فان المريض اذا أحس بمرضه ، طلب له الدواء ، فرجى له الشفاء ،
والا يئس منه الأطباء ، وخاب منه الرجاء ، ولهذا يقول الله تعالى في
حق قوم وصلوا الى هذه الدرجة ، (ولو أنا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم
الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا) ويدكر في ذم
المنافقين وبيان خاصتهم ، (الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) ،
فانهم لو شعروا بما هم فيه لرجى صلاح حالم ، فبني سبحانه على انهم
بحيث لا يرجي منهم فلاح ، ولا ينتظر لهم صلاح ، وهو غاية النقص
الشنيع ، ونهاية الدم الفظيع ، ولا يخفى عليك أن الناس متفاوتون في

تلك الامراض تفاوتهم في تراكم الظلمات . وارتكاب الآفات

(النفس وما جلبت عليه)

(بعد اتصالها بهذا الهيكل الجسماني)

قضى الله أن ينزل هذه النفس الشريفة من عالمها الرفيع ، ويدخلها
في سجن هذا البدن

ولما كانت مقتضياتها من حيث انها جوهر مقدس تضاد مقتضيات
هذا الجسم ، لما بينهما من التباين ، اقتضت الحكمة الالهية أن تغرس
فيها محبة شديدة لهذا الهيكل الجسماني ، حتى تتحمل رذائله وأثقاله ،
وتخف عليها تلك المصيبة التي منيت بها ، وان كان في تعلقها به حكم
كبرى ربما تعرضنا لها بعد ، ثم لاتزال تزايد تلك المحبة على ممر
الايام ، فيزداد شغفها بتدبير مصالح الجسم ، والسعى وراءها ، وان
كانت من أسمح ما يكون ، (والمحب لا يرى لمحجوبه عيباً ولا فيما
كلفه به ثقلاً) ولو وقفت عند الحد المشروع لها في ذلك لمت لها
السعادة . وقامت بما أريد منها أحسن قيام ، ولكنها بمقتضى هذا
الحب المفرط ، وذلك الجهل الذي استولى عليها عندما انغمست في
ظلمات الطبيعة المادية ، قد تلاشت بالكلية في مطالب الجسم ،
ونسيت عالمها الأول ، ومقتضيات ذاتها وبطل منها الشوق الى الكمال
الحقيقي ، وقد نبه الله على ذلك في فريق من الناس ، فقال (نسوا
الله فأنساهم أنفسهم) فاذا اتغلغلت في ذلك الوادي الوخيم اتصفت

باقبح الصفات ، واخس الخصال ، واختلط عليها الامر ، وضاع منه
الرشد ، وخيل لها أن مقتضيات الجسم هي مقتضيات ذاتها ، فبالغت
فيها فجهلت ، وظهرت منها الأشياء المتضادة ،

والسرف في ذلك أن الانسان مركب من جوهر نفيس ، وجوهر
خسيس فلا بد أن تظهر مقتضيات هذا وذاك ، بل أزيدك في الامر
بيانا وهو أن الانسان اذا غلبت عليه صفات نفسه الاولى ، التي هي
فضائل محضة ثم أراد أن يسير بها في مطالب الجسم كما هو موضوعنا ،
انقلبت رذائل محضة ، فغريزة الشوق الذي لا ينطفئ ، وهي من غرائز
النفس الفاضلة وقد أوجدت فيها كي لا تقف عند حد ، ولا تنتهي الى
كمال ، فتكون في الترقى في الكمالات دائما بمقتضى ذلك الشوق ،
وان شئت فسمه شهوة

تلك الغريزة التي هي من أفضل الغرائز وأعظمها اذا استعملت
في مطالب الجسم انقلبت شرها لا ترويه المحيطات ، ولا تشبعه أعظم
الممالك ، فكانت أكبر رذيلة ، وأول تقيصة ، وصرت بها أول
الجهلاء وقد خلقت فيك لتكون بها أول العلماء الى غير ذلك مما لا يناسبه
الا كتاب مخصوص ويكفينا الآن هذا التمليح

فمن أجل هذه المطالب وتلك المحبة ، وهاتيك الغرائز التي
استحالت الى اضدادها ، كان الانسان مجبولا على الظلم والجهل ، كما
قال تعالى في الانسان (انه كان ظلوماً جهولاً) لم يجعله ظالماً وجاهلاً
ومارضى (وهو العليم) حتى جعله ظلوماً وجهولاً

وكان مجبولاً على انشح والبخل (قل لو أنتم تملكون خزائن
رحمة ربي إذا لأمسكنكم خشية الانفاق ، وكان الانسان قتورا) وهذا
أبلغ ما يبين للانسان مزيد جبهه . وينعى عليه سوء حاله ، اذ كان
عظيم الحرص شديد البخل ، ولو ملك خزائن رحمة الله تعالى ، وهى
التي لا تنفذ ولا تبید ، ولكنه حكم الجبل ، ومقتضى غريزة الشح ،
الى غير ذلك من الصفات التي بينها الله تعالى فى الآيات العديدة
كقوله تعالى (خلق الانسان من عجل) وانظر كيف بالغ فى بيان
مافى الانسان من التسرع والطيش ، حتى جعله مخلوقاً منه ، الى آخر
ما جاء فى الكتاب والسنة ، وقرره الاخلاقيون وسنشرح لك بعض
تلك الصفات على التفصيل فقول :

ان من أخص صفات النفوس الانسانية العظمة والكبرياء بما
لا يمكن شرحه ، ولا يعرفه المتكبر نفسه ، الا اذا كان بالحلل الاول
من النظر الصحيح ، فانه يرى نفسه انما تطمع فى الترفع على بعض
الناس دون بعض ، فيظن ان ذلك حدها الذى تنتهى اليه ، وقد فاته
انه لم يتحرك فيها الكبر الى ما فوق ذلك الحد لعدم طماعتها فى
الترفع على تلك الطبقة العالية ، فهو كامن فيها كمن النار فى الزند ،
حتى اذا رفعته الايام الى ما فوق مركزه الذى هو فيه تحرك منه ذلك
الخلق السيئ ، فأحس به اذ ذاك ، ولا يزال كذلك حتى يقول ما
قال فرعون لقومه (يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى)
ففى النفس ألوهية طبيعية ، ولكن لا تظهر الا على قدر ما تسمح

به الظروف ، وتحتله النفوس ، حتى اذا خلا لها الجو ورأت من يقبل
منها ذلك ، أظهرت السكامن فيها ، وقالت (أنا ربكم الاعلى)
ولهذا أرى أن محبتها للعلو والجاه أمر طبعى لما فيها من الالهية
التي شرحناها ، فهي تحب الاستيلاء على القلوب لذاته لا من أجل
انه وسيلة الى المال ، كما يقرره كثير من الاخلاقيين ، فان محبة الجاه
أعلق بها من محبة المال ، فهو مقصود لذاته بل الامر بالعكس عند
ذوى النفوس الكبيرة

وارجع الى نفسك هل تراها تقبل ان تسقط منزلتها عند فقير
مقعد لا يرجى منه خير ، ولا ينتظر له فلاح ؟ ؟ ؟

لا ، بل تراها تتألم اذا لم يحترمها كما تحب ، ويعطيها حقها على
ما تشتهى ، بل ربما كان سقوط ذلك الفقير ، داعيا الى مزيد
سخطها ، وشديد غضبها ، فلا يتصور ان يكون ذلك من أجل مال
تبتغيه من الاستيلاء على قلب ذلك الفقير الميئوس منه

ولهذا السر تراها تأبى الا أن تنفذ ارادتها ، ولو دمرت العباد
وأخربت البلاد .

تراها لا تقف فى الانتقام عند حد معقول ، بل تجازى على أقل
هفوة بأفزع أنواع القتل ان استطاعت الى ذلك سبيلا ، وانظر فى
تاريخ الملوك السابقين والامراء المستبدين

تراها تكره من يعارضها فيما تحب ولو كان أحق الحق ،
وأول الصواب

تراها لا تحب المشاركة في شئ وتأبى الا أن تستأثر بكل شئ
لانه الرفعة والكمال .

(سبب تقدم المنافقين ورفعتهم)

أبنا أن النفس تأبى الا أن تنفذ هواها ، ولا تميل الا لمن
يساعدها على ذلك وتنفر كل النفور ممن يضع لها العقبات في طريق
ما تهواه ، وان كان أنصح الناصحين لها ، وأعظم المشفقين
عليها ، وأنها مجبولة على حب المدح والثناء ، (حب الثناء طبيعة
الانسان) لانها تستشعر بذلك رفعتها وكمالها ، فترتاح له وتحن اليه ، وان
كانت تمدح بما ليس فيها ، لأنها كثيراً ما يغالطها الوهم ويضلها
الخيال ، (وقل من يعرف عيب نفسه) ، أو لا يعتقد فيها الكمال

ولهذا ترى المنافق المتعلق سرعان ما يستولى على النفوس ،
ويأخذ بحبات القلوب ، لأنه قد سبق لك أن في النفوس ألوهية
كامنة وأنها تسعى وراءها على قدر ما يمكنها ، وقد وجدت في هذا
المنافق أمنيته المقصودة ، وضالتها المنشودة .

وجدت منه عابداً عارفاً بواجبات الألوهية ، فقابلها بالامثال
الاعمى ، ولم يبحث وراءها عن سر ما أمرت ، ولا حكمة ما قضت ،
شأن العبد الذي استدل بكليته لمولاه

وجدت منه موافقاً لأغراضها ، ومسارعاً الى شهواتها ، وهي
ترتاح لذلك ارتياحاً وجدانياً ، وان كانت تمقته اذا رجعت الى عقلها

ولكن عرفنا من أحوال النفوس ان الغالب عليها هو الأمور
الوجدانية ، دون البرهانية ، حتى في أذكى الذاكياء ، وأكبر
الكبراء .

وانظر ان شئت الى السكير الذي يئن من شرب الخمر ، ويعتقد
انه أعظم مفسدة ، وأكبر مضرة ، كيف يرتاح الى ندمائه ، ويحن
اليهم حينه الى الكأس ، فتلك غريزة في النفوس كلها ، تميل الى
من يوافقها على ما تشتهي . هما كان
(وسلطان الطبيعة فوق سلطان العقل ، وان كان يتوقد ذكاء ويشغل ضياء ،)

(بيان السبب في أن الانسان لا يعرف عيب نفسه)

أظنك تعرف انك اذا أحببت أحداً من الناس أعجبتك صفاته
وأفعاله ، ولا تكاد تنظر فيه عيباً ، (وكل ما يفعل المحبوب محبوب)
هذه صفة لازمة للحب لا تنفك عنه ، ولهذا قالت غزوة لعبد المالك
ابن مروان عند ما قال لها : أى شئ فيك أعجب كثيراً حتى قال
ما قال ؟ فقالت (انه كان يرانى بعينين ليستا في رأس أمير المؤمنين)
وهاتان العينان ليستا الا عيني الخلة والحبة ، وقد ورد (حبك الشئ
يعمى ويصم)

ولهذا السر قد شرعت المشورة ولو كنت أذكى الذاكياء ،
وأحكم الحكماء ، لانك لا تكاد تبصر الصواب في أمرك ، لمكان
الميل والهوى من نفسك

فاذا علمنا ذلك علمنا ان نفسنا أحب الاشياء الينا وكل
شيء أحببناه فانما هو من أجلها ، واذا كانت لا ترى عيياً في محبوبها
فبالاخرى أن لا ترى عيياً في نفسها ، فيصعب عليك جداً ان تضع
نفسك في محل المتقد والمتقد ، وفي مركز الحاكم والمحكوم عليه ،
ومن جهة أخرى انها خفية المكر شديدة الخداع ، كثيرة الحيل ،
سريعة الروغان على ما تسمع

ولعلك لا تفهم معنى ذلك وتريد ان تسمع في بيانه شيئاً معقولاً
وسراً مفهوماً ، فاعلم ان النفس تميل الى مشتهياتها ميلاً فطرياً ، وتنفر
عن ما لا يلائمها كذلك ، فهي تسير نحو مطالبها بمقتضى الطبع لا بمقتضى
التفكير ، والتدبير ، وما يكون باقتضاء الطبع فقلما يدخل تحت دائرة
الفكر ، لان هذا عالم تسير فيه الطبائع على مقتضى ما فطرت عليه
وذلك عالم آخر يسير فيه العقل على مقتضى الدلائل والبرهان ، فهو
سير تكلفى بطيء على رواحل ضعيفة مهزولة ، وقلما تعرض الطبائع
مطالبها على العقل أو تستصدر منه أمراً ، أو تنتظر له اذنًا ، فانها غنية
عن ذلك ، وكيف تستصدر منه الامر ، أو تنتظر الاذن ، وهي أقوى
منه سلطاناً ، وأجد منه سيراً ، وأحد منه سلاحاً ؟

وان شئت فانظر الى تدبير الغذاء مثلاً هل تجدها تستأمر العقل
فيما يحتاج اليه من الصفراء والبنكرياس (١) وهو في الامعاء أو المعدة أو
(١) البنكرياس غدة تحت المعدة تتصل بالظهر تفرز سائلاً يسمى
العصارة البنكرياسية

تستأذن منه عند ما يكون (١) كيـموسا وتريد أن تدفعه الى الامعاء ،
وهكذا في تنقلاته كلها حتى يصل الى البطن (٢) الأيسر ثم يخرج
منه الى الأورطة (٣) ويتوزع في جميع فروعه الى أنحاء البدن
لاشك انك لا تشعر بذلك ، ولا تحس بشئ مما يكون بتلك
المملكة المنظمة ، فانها مملكة أخرى لم يوكل اليك تدبيرها ، فلا
تعرف أخبارها وحوادثها من طريق الفكر ، فهكذا سير النفس الى
مطالبها وشهواتها ، انما هو بمقتضى الطبع لا بحكم العقل واسارة الفكر
فلا تكاد تعرفه أو تحس به ، وهذا هو معنى كونها خفية المكر تتسلل
الى مطالبها من غير ان يشعر العقل بذلك ، تارة وتصرعه بمقتضى
قوتها تارة أخرى

وتراك اذا عقدت على نفسك عقداً ثم سرت في طريقه فصادفت
ما لا يوافق الطبيعة في أهوائها ، وجدت نفسك تنزع الى حل ما
عقدت ، وتقض ما أبرمت ، لان النفور من غير الملائم طبعي كما
ذكرنا ، (فالنفس دائماً مع الطبع لا مع العقل) ، وهذا معنى كونها
كثيرة الروغان ، لا تدعن لعقد ! ولا تفي بعهد .

-
- (١) الكيموس اسم للطعام عند ما يتم هضمه في المعدة
(٢) البطن الايسر والبطن الايمن مجويفان بأسفل القلب وهما
تحت الاذنين الايسر والاذنين الايمن
(٣) الأورطة هي عرق كبير يصب فيه الدم الصالح للتغذية بعد
خروجه من القلب وهي السماء بالابهر

وربما تطير من نار الطبيعة شررها ، وعلا دخنها حتى أظلمت
جيات القلب فصار لا يمكنه أن يبصر شيئاً في حندس تلك الظلمات
فانتبهزت تلك الفرصة فخدعته . وضمته إليها ، فصار لا يرى الا
ما تراه ، ولا يتيل الا الى ما تهواه ، وحينئذ لا يكون بينهما معاداة
ولا معاندة ، لانه قد تم بينهما الاتحاد ، فبطل العناد ،

وأما المصادمة بين العقل والطبيعة فلا تكاد توجد الا في كمال
الرجال ، الذين لم ينطمس نور بصيرتهم ، بظلمة طبيعتهم ،

ولعلك بعد هذا قد استبان لك الامر على ما تحب ، غير انى
أحب لك ان تضم الى ما سبق من الفوائد فائدة أخرى وهى ان تعلم
ان هناك قوتين من عالم الادراك ، وكأنهما موظفان بدائرة الطبيعة
وهما قوة الوهم الذى تستعمله النفس فى كثير من مطالبها ، فينبعث
أسرع من حركة الاجسام الثقيلة ، الى السفلى غير متحر صدقاً ، ولا
باحث عن حقيقة

وقوة الخيال (١) الذى هو أعجب من الفتوغراف فى انطباع
صور المحسوسات فيه

هذا ويحسن بنا بعد ما تقدم ان نبحث عن طريق معرفة عيوب
النفس فنقول :

(١) جريتنا هنا على مذهب من يجعل الخيال مدركاً لاخزائنة

تستأذن منه عند ما يكون ^(١) كيموسا وتريد أن تدفعه الى الامعاء ،
وهكذا في تنقلاته كلها حتى يصل الى البطن ^(٢) الأيسر ثم يخرج
منه الى الأورطة ^(٣) ويتوزع في جميع فروعها الى أنحاء البدن
لاشك انك لا تشعر بذلك ، ولا تحس بشئ مما يكون بتلك
المملكة المنظمة ، فانها مملكة أخرى لم يوكل اليك تدبيرها ، فلا
تعرف أخبارها وحوادثها من طريق الفكر ، فهكذا سير النفس الى
مطالبها وشهواتها ، انما هو بمقتضى الطبع لا بحكم العقل وإشارة الفكر
فلاتكاد تعرفه أو تحس به ، وهذا هو معنى كونها خفية المكر تتسلل
الى مطالبها من غير ان يشعر العقل بذلك ، تارة وتصرعه بمقتضى
قوتها تارة أخرى

وتراك اذا عقدت على نفسك عقداً ثم سرت في طريقه فصادت
ما لا يوافق الطبيعة في أهوائها ، وجدت نفسك تنزع الى حل ما
عقدت ، وتقض ما أبرمت ، لان النفور من غير الملائم طبعي كما
ذكرنا ، (فالنفس دائماً مع الطبع لا مع العقل) ، وهذا معنى كونها
كثيرة الروغان ، لا تدعن لعقد ! ولا تفي بعهد .

(١) الكيموس اسم للطعام عند ما يتم هضمه في المعدة

(٢) البطن الأيسر والبطن الأيمن بجوفان أسفل القلب وهما
تحت الأذين الأيسر والأذين الأيمن

(٣) الأورطة هي عرق كبير يصب فيه الدم الصالح للتغذية بعد
خروجه من القلب وهي السماء بالابهر

وربما تطاير من نار الطبيعة شررها ، وعلا دخنها حتى أضلمت
حيات القلب فصار لا يمكنه أن يبصر شيئاً في حندس تلك الظلمات
فانتبهزت تلك الفرصة فخدعته ، وضمتها اليها ، فصار لا يرى الا
ما تراه ، ولا يميل الا الى ما تهواه ، وحينئذ لا يكون بينهما معادة
ولا معاندة ، لانه قد تم بينهما الاتحاد ، فبطل العناد ،

وأما المصادمة بين العقل والطبيعة فلا تكاد توجد الا في كل
الرجال ، الذين لم ينطمس نور بصيرتهم ، بظلمة طبيعتهم ،

ولعلك بعد هذا قد استبان لك الامر على ما تحب ، غير انى
أحب لك ان تضم الى ما سبق من الفوائد فائدة أخرى وهى ان تعلم
ان هناك قوتين من عالم الادراك ، وكأنهما موظفان بدائرة الطبيعة
وهما قوة الوهم الذى تستعمله النفس فى كثير من مطالبها ، فينبعث
أسرع من حركة الاجسام الثقيلة ، الى السفلى غير متحر صدقاً ، ولا
باحث عن حقيقة

وقوة الخيال (١) الذى هو أعجب من الفتوغراف فى انطباع
صور المحسوسات فيه

هذا ويحسن بنا بعد ما تقدم ان نبحت عن طريق معرفة عيوب
النفس فنقول :

(١) جرينا هنا على مذهب من يجعل الخيال مدركاً لاخزائة

(بيان ما هو الطريق الى معرفة عيوب النفس)

قد ذكروا لذلك طرقاً عديدة منها أن تتفق أنت وصديقك
الذى تثق به على أن كلا منكما يخبر الآخر بما يراه فيه وقد قال عمر
رضي الله عنه رحم الله امرأً أهدي الى عيوبى

وكثيراً ما كان يسأل حذيفة بن اليمان عن ذلك فان عمر رضى
الله عنه كان من معرفة خداع النفس وخفاء مكرها والتفتيش عليها فى
كل ما تميل اليه واتهامها فيما تحسنه وعرض ذلك على العقل ووزنه
بميزان الشرع بالمحل الاول ولهذا ظهر عدله وأحبته رعيته

ولكننا يئسنا اليوم من هذا الطريق فلست تصادق الا من
يقابلك بالمدح والثناء فتقابل به بالحمد والاطراء فهو يغشاك وأنت تغشه
ولكن تجد نفسك ترتاح الى ذلك وتنفر من غيره فصار كل منكم يحسن
الى الآخر بمقتضى طبعه ويضحك منه بمقتضى عقله (ان رجع اليه)
ومنها ان تنظر الى ما يقوله أعداؤك الذين قعدوا لك بالمرصاد فى كل
ما تأتى وتذر فهم أعلم الناس بعيوبك وأشدهم تطالعا اليها وتفتيشا عليها
فيمكنك ان تستفيد من عداوة الاعداء أكثر مما تستفيد من صداقة
الاصدقاء (والعامل يستفيد من كل شئ)

عداي لهم فضل على ومنة فلا أبعد الرحمن عنى الأعدا
همو عرفونى زلتى فاجتنبها وهو نافسونى فارتقيت المعالي
والحساد يقومون مقام الاعداء فى ذلك لأنهم من أخبئهم فى

الحقيقة ومنها ان تبحث عن حكماء النفوس حتى يشخصوا مرضك
ويعطوك الدواء اللازم لذلك المرض، وليس من الحزم ان تفرع الى
الطبيب في كل ما يلم بك ولو انحرافاً يسيراً ثم تكون مرتبكاً في أحوالك
متخبطاً في سيرك ولا تذهب الى أطباء القلوب واحداً بعد واحد أو
الى العدد العديدهم فتعرض نفسك عليهم مجتمعين متباحثين كما تعمل
الشورى الطبية على يد لجنة من الأطباء المسماة (بالكـ صلتو) عندما يهجمك
بعض أمراض بدنك حتى يزول ما بك من شقاء العيش وتعاسة الخال في
الدنيا والآخرة ولكنى أعذرك فقد قل وجودهم وعن الوصول اليهم
والعشور عليهم ومنها ان تنظر في الآيات الواردة في مكارم الاخلاق
هل تنطبق عليك أم أنت على الضد مما جاء فيها كقوله تعالى (قد
أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاضعون والذين هم عن اللغو
معرضون) فتنظر في صفات نفسك فلعالك من ألهى اللاهين وألغى
اللاغين وكقوله تعالى في وصف المتقين (الذين ينفقون في السراء
والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)
وقوله تعالى (والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس) وقوله تعالى
(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون
قالوا سلاماً) الى آخر ما جاء في القرآن العزيز والسنة الغراء ومنها ان
تنظر الى عيوب الناس وتقائصهم ثم تعرض نفسك على ما علمت ولعل
هذا وما قبله أسلم الطرق وأقربها فإذا انضم الى ذلك كثرة الاطلاع
على الكتب الدينية والاخلاقية التي تبين صفات النفوس وما جبلت

عليه مع اتهامها وعدم الثقة بها وخضوع العالم الطبيعي للعالم العقلي بقدر
ما يمكن وإيقاظ العمال المراقبين في دائرة العقل حتى يفتشوا عليها في كل
شيء ويلزموها بعدم التسرع والطيش فيما تهواه ويفهموها أنها من
السفد بحيث يجب أن يحجر عليها فلا تتصرف إلا بذن القيم الرشيد
وهو العقل

إن تم لك ذلك كله فقد عرفت الحق لأهله واهتديت في سيرك
وانتظمت في أمرك فكان لك ما تبتغيه وتم لك ما تشتهي

(بيان اختلاف الناس في قبول الاخلاق)

« وما للمخالطة من الآثار الحسنة والسيئة »

ذهب قوم الى ان الانسان مجبول على الشر فلا يتأتى اصلاحه
ولا فرق بين الاوصاف الظاهرية القائمة بالاجسام من السواد والبياض
وبين الاوصاف القائمة بالنفوس من محبة المال والجاه وما تدعو اليه
الحبة من الشره والحقد والحرص والحسد الى غير ذلك ،
وذهب آخرون الى انه مطبوع على الخير ولكنه يكتسب الشر
من البيئة التي هو فيها ،

وذهب فريق ثالث الى انه مطبوع على الشر ولكن يمكن تثقيفه
وتهذيبه بمكارم الأخلاق

وقال فريق رابع انه خلق خاليا من الخير والشر جميعاً ، فإن
شئت فاجعله شيطانا رجياً ، وإن شئت فاجعله ملكا كريماً ، لانه

يقبل الخير والشر على السواء ، وهذا الرأي هو المشهور بين علماء الاخلاق
المرضى عند محققهم ، ولكن اذا دقت النظر ولم ترعبك عظمة
القائلين بذلك ثرائى وجدت الناس مختلفين فى أصل الخلقة اختلافاً
كثيراً ،

فلو فرضنا اثنين وجدافى بيئة واحدة وتعلموا واحداً وقتل انهما ابنا
رجل واحد لجاز أن يكون أحدهما ميالاً للخير والآخر ميالاً للشر ، بل
اذا نظرت الى الاطفال وتفرست فيهم تجلت لك تلك حقيقة بغاية الوضوح
من نفوسهم وحركاتهم وأميالهم فهم يشبهون بالارض الطيبة التي يوجد فيها
الزروع ويطيب فيها الثمر والارض الخبيثة التي لا يخرج نباتها الا نكداً بل
لأكون مبالغاً اذا قلت وبالارض الفاسدة التي لا تنبت شيئاً

ولست أراك مبعداً اذا قلت أننا من جميع اجزاء الارض فلنا
خاصة جميع اجزائها قال الله تعالى ، (ولقد ذرأنا لجنهم كثيراً من الجن
والانس) فدل على انهم مخلوقون للشر البحت فلم يعرفوا الخير معنى
ولم يذوقوا له طعماً ، وكذلك ورد فى حديث البخارى الذى قسم
الناس ثلاثة اصناف ، ان منهم من يشبه قيعان الارض التي لا تمسك
ماء ولا تنبت كلاً

ولكن وجهتك الآن الى غايتنا التي نريدها من موضوعنا هذا
ودع ماعدا ذلك الى فرصة أخرى ، غير انه يلزمنى ها هنا أن أوصيك
ان لا تسرع الى اليأس من اصلاح أحد فلعل فيه خيراً كما نافع الطبقة
الثانية أو الثالثة أو السابعة من طبقات أرضه ، واذا كان رب الارض

السبخة أو الرملية لا يئأس منها ويطمع في استصلاحها بالماء حتى تزول
املاحها فتصلح للنبات او ينقلب رملها بكثرة فيضان المياه عليها طينة
صالحة لذلك فما بالك بالانسان الذي هو مجمع العجائب والغرائب
على أن النفس الانسانية لا تقاس على شيء من تلك المواد الارضية
الجامدة، وقد اخطأ من قاس صفاتها بسواد الجسم الذي لا يتبدل مثلاً،
فاننا رأيناها تالين وترق حتى تكون ألين من الماء، وأرق من الهواء،
وتكاد تصل الى حد الذوبان، كما رأيناها تغاظ وتمسوح حتى تكون
كالخجاجة، أو أشد قسوة، وبالجملة فلم نر شيئاً من الاشياء أقبل
للتشكل والتطور من النفوس الانسانية فلا ينبغي أن تيأس من فلاحها
ولا تفتر عن اصلاحها فهي أيديك الله

هذا وأرى أن من حقق على في هذا المقام ان أذكر لك أسباب
تفاوت الناس في ذلك

فمنها نقص خلق في تركيب البنية، ومنها اختلاف الامزجة،
وتفاوت الطينة التي خلق منها الشخص على ما تقدم لنا وعلى ما يشير له
ماورد من أن الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، ومنها لوراثة من
الآباء والامهات على نحو ما يرثه من أوصافهم الظاهرية، وبهذا
السبب يمكنك أن تفهم ماورد من ان الله تعالى، قال (يا داود أنا
الرب الودود، أنتم من الذرية بما فعل الجدود) مع ما تعتقد من
العدل الالهي، ومع قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فليس
معنى ذلك ان صح الا أن الذرية تفعل ما يستوجب عليه العقوبة الشديدة

بشوء الأفعال القبيحة التي كانت تصدر من الآباء على مقتضى تلك
الوراثة التي ذكرنا ، ويظهر لك معنى ماورد ، (تخيروا لنطفكم فإن
العرق دساس) وما ورد أيضاً (اعف نفسك تعف بذاتك) وإياك
والتفريق يرحمك الله ، ومنها طيب المطعم وخبشه كما دل على ذلك
الأحاديث الكثيرة وقد اشتهر عن العرب في مقام المدح لله دره ،
ومنها اختلاف التأديب والتعويد حالة الصغر ، ومنها مخالطة الأشرار
أو الاختيار فإن الانسان مجبول على التقليد ، وأن الطبع يسرق من
الطبع ، وإن شئت أن تعالاه تعالياً فلسفياً فقل أن امرأة انقلب لا تقابل
شيئاً من الأشياء الا انطبع فيها لمزيد صفاتها وتماثلها قابليتها ، ولذلك
قال صلى الله عليه وسلم (يحشر المرء على دين خليله) ، فليس ذلك
جزاء للذنب من غير سرفيه ، بل لكون تينك المرأتين قد انطبع في
كلاهما ما انطبع في الاخرى ، وقال (المرء مع من أحب) فانه
ما أحبه الالتئاس بينهما ولولا هذا التئاس لم تعتقد بينهما المحبة ،
وعلى قدر تلك المحبة يكون الانطباع ، حتى أن الحب قد يصل بالمحب
الى درجة أن يقاد محبوبه في كل شيء ، فتفنى أخلاقه في أخلاقه
وأوصافه في أوصافه ،

ولئن قيل بالعدوى في الأمراض الحسية فالنفوس الانسانية اقبل لها في
الأمراض المعنوية : وإنى أوصيك (ولا أحب لك الا ما أحبه لنفسى) أن
تنظر في هذا السبب كثيراً ولا تظن أنه لا يقبل العدوى النفس الصغير

وأن نفس الكبير لا تقبلها فإنه غلط ، لأن ذلك من مقتضيات
الطباع وما كان باقتضاء الطبع لا يمكن دفعه وليست المسألة مسألة
فكرية وإنما هي مسألة طبيعية ولكنى معك على أن نفس الصغير
أقبل لما يرد عليها من نفس الكبير وقد نصحت لك وما توفيقى
الابالله

(بيان تفصيل المملكة الانسانية وذكر أمثلة لها)

قد اشتهر أن الانسان عالم صغير وأنه نسخة من العالم الكبير
وإذا أردنا تفصيل كل ما فيه مما يشبه الشياطين والبهائم والسباع والملائكة
والليل والنهار والشمس والقمر والارض والسماء الى غير ذلك
طال علينا القول واتسع بنا البيان ولا يتعلق غرض الكتاب
الا ببيان ما فيه من خير أو شر فلتقتصر على بعض أمثلة ذكر وهافقول
قالوا أن كل انسان مع بدنه كوال فى بلد قيل له طهر بلدك ، وأدب من
يقبل التأديب من أهله ، ورض من يقبل الرياضة من حيوانه وسباعه
فإن عجزت عن تطهيره وعن تأديب طغاته ورياضة حيواناته وسباعه
فلا تعجز عن الاحتراس من أن تفترسك سباعه وأن يسبيك طغاته
حتى اذا لم تكن غالباً لم تكن مغلوباً ، والناس فى ذاك بين ثلاثة أصناف
صنف لم يفعل ما أمر به وتهاون فيما فوض اليه فخرج وأسر فصار ملوماً
مخذولاً مع كونه مجروحاً مأسوراً وهو المشار اليه بقوله تعالى (ومن اعرض
عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى) ، وصنف

فعل ما أمر به فصار عند ربه مأجوراً وعند الناس مشكوراً وهو المشار
إليه بقوله تعالى (والسابقون السابقون أولئك المقربون) وصنف جد تارة
وقصر تارة أخرى فخرج وجرح وغلب وغلب ، وهو المشار إليه بقوله تعالى
(خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم) ، وقال
بعضهم الإنسان مع قوة الغضب وقوة الشهوة وقوة الوهم مثله مثل من
بلى في سفره بصحبة ثلاثة اضطر إليهم حتى لا يمكنه أن يفصل منهم
ويقضي سفره بدونهم

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له مامن صداقته بد
فواحد أمامه هو له رقيب يحفظه وعين تكلؤه ، لكنه ملق
بأهت مموه يلفق الباطل تلفيقاً ، ويخلق الزور اختلاقاً ، فيخلط الكذب
بالصدق ، والخطأ بالصواب ، وهو الوهم ،

والثاني عن يمينه بطش ذعر يحميه عن أعاديته ، لكنه كثيراً ما يقويه
ففيهيج هائجه فلا يقمعه النصح ولا يبطأ طئه الرفق كأنه نار في حطب
أو سيل في صلب ، فيحتاج أن يسكنه دائماً فيحتمى به ومنه وهو الغضب ،
والثالث عن يساره وهو الذي يأتيه بالمطعم والمشرب ، لكنه
أرعن ملق قدر شبق وهو الشهوة فهو يحتاج أن يصابرهم حتى يقطع
سفره

ومن حيلته التي يرجي أن يسلم بها منهم أن يسلط هذا البطش
الذعر على هذا الارعن الملق ، وأن يطفىء غلو هذا الذعر التائه بخلافة
هذا الارعن الملق وأن لا ينجح إلى الباهت المتخربص حتى يأتيه بيرهان

مبين ، فيدفع ضرر بعض هذه القوى ببعض دفع الشر بالشر

(وجهة أخرى في البيان)

آثراً أن نذكر لك ما قالوه على طوله لما فيه من الفوائد الجمّة
وارادة أن يغلب عليك الذوق الحكيمى الفلسفى الدينى ؟ وعسى ألا
تكون ممن غلبت عليهم الظلمات الشديدة والأذواق الجديدة
فتقول

ذكروا أيضاً أن الإنسان اجتمع فيه أربعة أنواع من الأوصاف
وهى الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية فهو من حيث
سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم
على الناس بالضرب والشتم ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى
أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره ومن حيث أنه فى
نفسه أمر ربانى كما قال الله تعالى (قل الروح من أمر ربى) فإنه
يدعى لنفسه الربوبية ويجب الاستيلاء والاستعلاء والتخصص
والاستبداد بلاء ، وركلها والتفرد بالرياسة والأنسلا من رتبة العبودية
والتواضع ويشتهى الأطلاع على العلوم كلها بل يدعى لنفسه العلم والمعرفة
والأحاطة بحقائق الأمور ويفرح اذا نسب الى العلم ويحزن اذا
نسب الى الجهل

والاحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من
أوصاف الربوبية وفى الإنسان حرص على ذلك

ومن حيث أنه ينفرد عن البهائم بالتمييز مع مشاركتها في الغضب
والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريراً يستعمل التمييز في استنباط
وجوه الشر ويتوصل الى الأغراض بالكر والحيلة والخداع ويظهر
الشر في معرض الخير وهذه أخلاق الشياطين فكل انسان فيه شوب
من هذه الأصول الأربعة الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية
وكل ذلك مجموع في القلب فكأن الموجود في بطن الانسان
خنزير وكلب وشيطان وحكيم فان الخنزير هو الشهوة فان الخنزير لم
يكن مذموماً لونه وشكله وصورته بل لجشعه وكلبه وحرصه
والكلب هو الغضب فان السبع الضاري والكلب العقور ليسا كلباً
وسبعاً باعتبار الصورة واللون والشكل بل روح معنى السبعية الضراوة
والعدوان والعقروفي باطن الانسان ضراوة السبع وغضبه وحرص
الخنزير وشبقه ، فان الخنزير يدعو بالشره الى الفحشاء والمنكر ، والسبع
يدعو بالغضب الى الظلم والأذى ، والشيطان لا يزال يهيج شهوة
الخنزير وغضب السبع ويغري أحدهما بالآخر ويحسن لهما ما هما
مجبولان عليه ، والحكيم الذي هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد
الشيطان ويكشف عن تليسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح
وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط هذا الكلب عليه اذ بالغضب
يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه
ويجعل الكلب مقهوراً تحت سياسته ، فان فعل ذلك وقدر عليه

اعتدل الأمر وظهر العدل في مملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم

وان عجز عن قهر هذه الثلاثة قهرته واستخدمته فلا يزال في استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضى الكلب فيكون دائماً في عبادة كلب وخنزير وهذا حال أكثر الناس

والعجب منه أن ينكر على عبدة الاصنام عبادتهم للحجارة ولو كشف الغطاء عنه وكوشف بحقيقة حاله لرأى نفسه مائلاً بين يدي خنزير ساجداً لله مرة وراء كعماً أخرى ومنتظراً لأشارته وأمره فتى حاج الخنزير لطلب شيء من شهواته انبعث على الفور في خدمته واحضار شهوته أو رأى نفسه مائلاً بين يدي كلب عقور عابداً له مطيعاً سميعاً لما يطلبه مدققاً بالفكر في حيل الوصول إلى شهوته ، وهو بذلك ساع في مسرة شيطانه فانه الذي يهيج الخنزير ويثير الكلب ويعبهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما ، فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه ووقوده ولينظر بعين البصيرة فلا يرى (ان أنصف) نفسه الاساعياً طول النهار في عبادة هؤلاء وهذا غاية الظلم اذ جعل المالك مملوكاً والرب مربوباً والسيد عبداً والقاهر مقهوراً اذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والاستيلاء وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر الى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه حتى يصير طبعاً وريناً مهلكاً للقلب ومميتاً له

أما طاعة خنزير الشهوة فيصدر منها صفة الوقاحة والخبيث
والتبذير والتقتير والرياء والتهتك والمجانة والعبث والحرص والجشع والمالقة
والحسد والحقد والشماتة وغيرها

وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها الى القلب صفة التهور
والبداءة والبذخ والصلف والاستشاعة والتكبر والعجب والأستهزاء
والاستخفاف وتحقير الخلق واردة الشر وشهوة الظلم وغيرها

وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة
المكر والخداع والحيلة والدهاء والجرأة والتلبس والغش والخبث والخناس
وأمثالها ولو عكس الأمر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية لاستقر
في القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والأحاطة بحقائق
الأشياء ومعرفة الأمور على ما هي عليه والاستيلاء على الكل بقوة
العلم والبصيرة واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله ولا
استغنى عن عبادة الشهوة والغضب ولا انتشر اليه من ضبط خنزير الشهوة
ورده الى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدو
والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف
والمساعدة وأمثالها ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها
الى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر
والحلم ولا حتمال والعفو والثبات والذيل والشهامة والوقار وغيرها

وسيمر بك مقالة تشرح لك الفرق بين المؤمن والكافر في طلب
الدنيا بعد اشتراكهما في الطلب ان شاء الله تعالى

(بيان ما تكسب به الاخلاق الفاضلة)

(وأن التربية ليست على ما يفهم الناس وأن القوانين قليلة الغناء)

ربما أطلنا عليك في هذا البيان لما فيه من الفوائد الجمّة وأرى
الاولى بك أن لاتسأم فعسى أن تجد فيه ما يكون كالألفى علمك
وتزيد به فضلاً على فضلك ، فإذا أردت ذلك فاعلم أن كثيراً من
الناس يظنون أن الطريق الى اكتساب مكارم الاخلاق والشفاء من
أضدادها إنما هو تعلم العلم ومعرفة الضر من النافع والحسن من القبيح
فيحسبون الاتصاف بالفضل والكمال لازماً من لوازم العلم أيا كان
كما يعتقد العامة أو من لوازم العلوم الشرعية والاخلاقية على ما يعتقد
كثير من الخاصة ممن لم يعنوا بالبحث عن اسرار العلوم وأرواحها
والتنقيب عن ملكات النفوس ومقتضياتها ولهذا كان للعلماء الحل
الاول من النفوس وكان تعلم العلم هو الغاية المقصودة في التربية وكثيراً
ما تسمعون يقولون فلان مترب اى حائز لشهادة عالية وهو خطأ فاحش
فأن تعلم العلم بمجردة قليل الجدوى ، بل قد يكون لبعض الناس عوناً
على ما يريد من الشرف فهو قوة للعقل يستعين بها على ما يشاء ، فأن
صرفها للخير كان من أعظم الخيرين وان صرفها للشر كان من اول
الشريرين والسيوف يقطع في يد اللص كما يقطع في يد المجاهد في سبيل
الله ، وقد قال بعض الحكماء أن الناس كالنبات وأن العلم كالغيث
فان أصاب حلو الثمر زاده حلاوة ، وان أصاب مر الثمر زاده مرارة

ولهذا ترى تلك التربية التي ينوهون بذكرها لم تطهر ذويها من
رزائل الخصال وقبيح الفعال حتى أننا إذا لم نغتر (بتلك التربية العالية)
ولم ندعهم واهواءهم بل قيدناهم في وظائفهم الادارية أو القضائية بلوائح
وقوانين يتقادون لها ويسيرون عليها تراهم يتوسعون ويتأولون كما
يشتهون ، وعلى ذلك حال كثير من العلماء بالنسبة الى الشريعة الغراء
وكان استعدادهم الخبيث يحيلها الى ما يوافق أهواءهم ، وليس هذا بالامر
العجيب فيما تفعله الاستعدادات

وان شئت فانظر الى ما كتب على الاجرومية من صرف كل
ما فيها الى اصطلاحات الصوفية وآرائهم وقد قال الله تعالى (يضل به
كثيراً ويهدي به كثيراً) فالذى أضل به هو الذى هدى به فليس
ذلك راجعاً الى تغير فى عينه أو تبدل فى وصفه ، بل الى اختلاف فى
استعداد الفاهمين له ، ولعلك رأيت من هذا القليل شيئاً كثيراً ،
فاذاً ليس العلم طريقاً الى اكتساب الفضائل ولادليلاً على الاتصاف
بالكمالات على الحقيقة ، وانما الطريق الذى يجب أن يسلكه طالب
الكمال ويعتنى به المربي أتم اعتناء هو تعويد النفس الخلق الفاضل
الذى يراد اكتسابه حتى يرسخ فيها رسوخ الملكات التى تتملك
النفوس وتصدر عنها الافعال بلا تكلف ولا عناء والا فهو تصورات
ومعلومات لا أخلاق ووجدانات ، فأن الكمال لا يتم للانسان الا اذا
انفعلت نفسه به وتكرر ذلك الانفعال المرة بعد المرة حتى تعتاده فلا
تفعل به وحينئذ يصير كيفاً راسخاً فيها فيلتحق بالغرأزالاصلية فتصدر

عنه لا تثار الحيدة بغية السهولة على نحو ما تصدر عنه الافعال الطبيعية وهذا الذى قررناه جاز فى اكتساب الاخلاق الحسنة والاخلاق السيئة فإذا يلزمنا أن نسارع بالعلاج ونفزع الى الطبيب قبل أن يستحكم المرض ويمضى الداء فيعيب الاطباء فإنه اذا وصل الى درجة الرسوخ والتحق بالطبيعات كما شرحنا فقلما ينفع علاج أو ينجع دواء

اللهم الا لا قوية العزيمة القادرين على الضغط على نفوسهم المتعودين مخالفتها الذين لا يجبنون أمام اوامرها المؤيدين بتأييد من عنده تعالى (وقليل ما هم)

ولهذا تجد بعض من فيه شيء مما لا يليق بشرفه ومنصبه يتألم كثيرا مما هو فيه ولكن لا يستطيع ان ينزع عنه بمقتضى ذلك الرسوخ وقد قال تعالى فى حق قوم من الكفار قد تأصلت فيهم تلك الملكات الخبيثة حتى صار يتعذر قلعها من نفوسهم لا متزاجها بها (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة) فليس الختم الذى ورد به القرآن شيئا غير تملك السيئات للنفوس واحاطة الظلمات بها (بلى من كسب سيئة واحاطت به خطيئته فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون) فالخلاصة أن الوسيلة لاكتساب الفضائل ان تمرن نفسك عليها بالعمل المتكرر ولا تضجر مما تلاقيه من العناء والمشقة زمن التمرين وتعتبر نفسك مريضا يصبر على مرارة الدواء لما يرجوه من حلاوة الشفاء وان تأخذ نفسك باللطف والخدم فانها سريعة الانخداع لا بالعنف والشدة فانها شديدة العناد وان تلاحظها

في مبادئها ولا تستهين بها (فمعظم النار من مستصغر الشرر) وان
صغار الآفات تجر الى كبارها من غير أن تحس بذلك لانك
تسير فيه بمقتضى ميلك اليه سيراً طبيعياً لا سيراً فكرياً ، ولعل هذا
هو المعنى بالاستدراج في قوله تعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون)
(٢) وأن القوانين لا تجدى شيئاً ولا تضمن عدلاً ما لم ينظر في حال
القائمين بها والمنفذين لها (٣) وأن التريية الفاضلة ليست بنيل
الشهادات العليا كما يزعم أربابها فيجب أن ينظر فيها حتى تكون
تريية صحيحة تأتي بالغاية المقصودة منها

وليس ذلك الا في التريية الدينية (والنظر في اصلاحها قبل
النظر في اصلاح القوانين) (٤) وان الاستعداد الخبيث كثيراً ما يحيل
الكلام عن ظاهره حتى يقطع النظر عن الغايات كلها ، ولعل هذا
من جملة ما أريد من قوله تعالى (يحرفون الكلم عن مواضعه)
(٥) وأن تعلم العلوم ولو كانت دينية أو أخلاقية قلما يفيد

هذا وهنا غلطات كثيرة فيما نلقنه للمتعلمين بالمدارس والمعاهد
مما لا يفيدهم كثيراً في دينهم ودنياهم وترك ما هو مناط السعادة
الصحيحة مما لا يذكرونه فيما يدرسونه من علومهم الميتة التي لا تفيض
الحياة الصحيحة على الناس مما يجب أن يتسع فيه القول ، ولعلنا
نتعرض لذلك بعد ان شاء الله

(كلمة بمناسبة ذكر القوانين)

إذا رأينا شخصين وقد فعلا فعلاً واحداً لا يمكننا أن نحكم
عليهما حكماً واحداً بل يجوز أن يكون الفعل بالنسبة لأحدهما حسنة
كبيرة يستحق عليها عظيم الأجر وهو بالنسبة إلى الآخر سيئة
عظمى قد استوجب بها عظيم الوزر لاختلافهما في النيات والبواعث
والغايات وإن كانت صورة الفعل الصادر منهما واحدة ، بل إذا
قصدا بما فعلاه شراً لا خيراً لم يمكننا أن نحكم عليهما حكماً واحداً أيضاً
بل يجب لتحقيق العدل التام أن يراعى حال كل منهما في الشر الذي
صدر عنهما فإنه بعد اتفاقهما فيه يجوز أن لا يكون على قصد واحد
من كل وجه وعلى رتبة واحدة فيما كان يحيط بهما وقت صدور الفعل
عنهما ، فإذا يجب في العدالة أن يختلف جزاء هذين الشريرين أيضاً
ومن جهة أخرى يجوز أن يكون لأحدهما من الصفات والحسنات
ما تنعمر فيه تلك السيئة وأن يحدث له بعد الفعل من التوبة الصادقة
والندم الشديد ما يطهر قلبه من أدناس تلك الفعلة التي فعلها ، ويحتم
عليه أن يعقد على نفسه عقداً لا يحله ما عاش إلا يتقارف معصية ولا
يأتي جريمة ، وكان يجب أن يراعى كل ذلك في مجازاته توفية لحق
العدل التام وتحقيقاً للفرق بينه وبين من ليس كذلك

ولكن عرفنا من ضعف البشر أن ذلك ليس في طاقتهم وأنه
فوق درجته ، ولا يقدر على العدل التام إلا من علم كنه الأشياء

على ما هي عليه ، وليس الا الله تعالى فلا يضع لديه مثقال ذرة من خير أو شر ، ولا يزيد جزاؤه للعباد على ما عملوه على اختلاف درجاتهم في مقاصدهم وكل ما اكتنف بهم مثقال حبة من خردل كما قال (وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) وقال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وقد علمت أن الشر قد يكون فيه ذرة أو ذرات من الخير وأن الخير قد يكون فيه ذرة أو ذرات من الشر ، ولعلك تفهم من هذا المقام استحقاق بعض المذنبين للعفو الالهي وعدم منافاة ذلك للعدل التام والحكمة البالغة

والآن نريد أن نبحث عما هو الاقرب الى العدل التام أهو ترك القضاة على الحرية والاطلاق يحكمون بما يرون وينفذون ما يعلمون ، وينظرون في تلك الاحوال كلها على قدر ما يستطيعون ، أم هو تقييدهم بقانون يحصرهم في دائرة ضيقة ويلزمهم باجراءات كثيرة طالما أضرت بالمتقاضين ، وكان التقاضي في غنى عنها لو رجع الى وجدانه الداخلي وعلمه الخارجي ، بل طالما حكمت القوانين بما يتألمون منه ولا يرتاحون اليه في بعض ما يكون أمامهم من الحوادث وإذا يكون التقاضي أمام القضاء أضمن للنتيجة وأقرب للعدالة ، وكان اذ ذاك ينتهي بغاية السرعة ، فلو وثقنا بتربية فاضلة تهذب النفوس وتطهر القلوب لوجب أن نلقى الى ذويها بمقاييد الامور يتصرفون فيها على ما تقتضيه طهارة نفوسهم وسعة نظرهم ولا تقيدهم بتلك

القوانين وان أعطتهم بعض الحرية فى بعض المواضع ولكنها محدودة على كل حال ، والقاضى يجب أن لا يكون تحت التحديد والتقييد ولكننا وجدنا المذهبين الكاملين المأمونين على مصالح العباد قليلين بل لا يكادون يوجدون فارتكبنا أخف الضررين واختارنا أهون الويلين وقيدناهم ولم نطلقهم وكنا نود لو بالغنا فى التقييد وضاعفنا من التشديد فقد لعبت بهم أهواؤهم وكادت تقضى علينا شهواتهم (توجيه نظر الى أمر يفيدك)

بيننا لك فيما سبق من القول أن الانسان قابل لكل أخلاق الحيوان أو نقول أنه يشبه كل أنواع النبات فمنه التفاح ومنه الخنظل ومنه الورد ومنه الشوك الى غير ذلك مما تجده فى أفراد الناس فيحسن بنا هاهنا أن تنبهك ألا تعامل الناس بمقتضى استعدادك الذى تم لك وان كنت لا تحس بغيره ولا تعرف سواه فلا تكلف غيرك به فانه لا يطيقه ، فاعرف المراتب واعطها حقها وانظر فيمن تصاحب أو تعامل أى شئ هو من تلك الاشياء وعامله بما تعامل به صاحب هذا الخلق من الحيوانات كالعقرب والثعلب وغيرهما واياك أن تغتر بصورته الظاهرية فتهلك أو تندم وان كان جامعاً لكل خبث حاوياً لكل شر فلا تقرب به بوجه من الوجوه فانه لا دواء له ولا يمكن اصلاحه ولا ارضاءه ، ومن الناس من اذا بالغت فى الاحسان اليه بالغ فى الاساءة اليك ، واذا تواضعت له تكبر عليك لمزيد لؤمه أو شدة حسده ، فاياك والتنزل لغير من

شرفت نفسه وكرم طبعه ورق احساسه وصفا ذوقه فلا دواء لمثل
هذا الشرير الا البعد عنه وعدم القرب منه
وقد عرفنا ذلك بالتجربة وكذا لا نصدق به ، ومنهم المطبوع
على الكذب الذى يجد لذته فيه وتأتى غريزته الصدق ، والانسان
لا يعرف أو لا يستطيع غير مقتضى طبعه ، والحنظل لا يكون تفاحا
أبداً (وتأتى الطباع على الناقل) فهو يفعل ما يفعل بمقتضى هيجان
الوصف الطالب لظهور الشر فيه وان لم يكن بينك وبينه
ما يوجب ذلك

لدغ العقارب لم يكن لعداوة لكن نلث تقضيه طباعها
وكثيراً ما توجد هذه الاخلاق فى أفقر فقير وأحقر حقير فان
أردت أن تنفعه بشئ نظراً الى كونه مخلوقاً من مخلوقات الله تعالى
وفى كل مخلوق صدقة فافعل معه ما شئت من الخير ولا تخالطه وفر
منه فرارك من الاسد

وقد قسم الحكماء الناس ثلاثة أقسام ، قسم كالغذاء لا يستغنى
عنه بوجه ، وقسم كالدواء يحتاج اليه فى بعض الاوقات ولا يلجأ اليه
الا عند الضرورات ، وقسم كاللداء لا يحتاج اليه بوجه من الوجوه ولا
يطلب بحال من الاحوال

وان رأيت ما يعجبك من شخص فابحث عنه أصادر هو عن
غريزة خير ومحبة للفضيلة أم عن غرض تريده النفس وتسعى اليه
الجوارح ، فان لم يكن من ذوى الخير الغريزى ومحبة الفضائل لذاتها

فياك والاعتزاز به ، فان عمل الخير للاغراض تربية ملكة الشرف في
النفس وتقوية الغريزة الخبث فيها

وقد ترى من الناس من يكون انساناً في بعض الاشياء وهو
حيون ضار في بعض آخر لنقص في تركيبه أو جهل في نفسه فياك
أن تغتر بما تراه من الخير الذي يصدر عنه فانه ربما لحقتك من الشر
الذي تراد منه ما لا تنفعك فيه وسيلة ولا تغنى عنك فيه حياة

(بيان ان سعادة الانسان وشرفه ليسا بكثرة المال)

قد عرفت أن التوسع في طلب المال ضرره أقرب من نفعه ،
وانه مدعاة للشر أكثر منه مجلبة للخير ، ثم انك قد عرفت ان هذه
اللذات الجثمانية التي نريد ان نتوصل اليها بالاموال ليست من
الانسانية في شيء ، وقد تكلمنا على تحقيق ما فيها من اللذة والألم
فيما سبق ، بل يشاركك فيها أفراد الحيوان ، فانها تأكل كما تأكل
وتشرب كما تشرب ، بل اذا نظرت الى الثور مثلاً وجدت أنه أكثر منك
أكلاً الخ ، ولا قيمة لما تشاركك فيه أفراد الحيوان ، فان الصفات
المشتركة لا تقضى مزية ولا توجب فخراً ، وعلى قدر ما فيها من
الاشتراك يكون سقوط قيمتها ، كما انك على قدر انفرادك بصفات
لا اشتراك فيها يكون علو شأنك ، ورفع ذكرك ، وانظر الى الفرس
مثلاً كيف استحق التفضيل على الحمار بمزيتة التي لا توجد الا فيه ،
فاذا ضاعت منه نزل عن درجة الفرسية الى درجة الحمارية ، لانه لم

يكن فرساً في الحقيقة لصورته التي هو عليها . بل لمزية التي انفرد بها
فاذا شرف كل شئ بل تحقيق نوعيته انما يكون بوجود خاصته
التي تراد منه ، كما كتسب العلوم والمعارف ، والاتصاف بالكمالات
بالنسبة الى الانسان ، فانه لم يكن انساناً لصورته التخطيطية وشكله
الظاهري ، وانما كان انساناً واستحق الرفعة على جميع أنواع الحيوان
لكونه يمكنه أن يدرك ما لا تدركه من الخسرات والفصائل ، فعلى
قدر ذلك تكون انسانيته لا على قدر ما يتوسع في الماء كل والمشارب
وغيرها ، فان الحيوان أقوى منه فيها ، فاذا تجرد عن تلك المزية
وانسلخ عن تلك الخاصة نزل عن رتبة الانسانية الى رتبة الفرس
أو الحمار أو غير ذلك من الحيوانات ، ولو تفنن ما شاء أن يتفنن في
المساذ الحسية ووسائلها ، فغاية أمره في ذلك ان يكون حيواناً قوياً
لا انساناً على الحقيقة لفقد خاصية الانسان منه ، أو نقول ايذاء لحقه
أنه سيد أفراد الحيوان في هذا العالم ، حيث أمكنه من اعداد
الوسائل التي تلزم للحيوانية ما لم يمكنها ، واذا صح ان نسوى بين
الكمالات الحسية الحيوانية والكمالات المعنوية الانسانية ، والسعادة
الفانية الجثمانية ، والسعادة الباقية الروحانية ، صح ان نقول انه نصف
انسان لا انسان ، وليسكن جأشك ، وليهدأ روعك ، وارجع الى
عقلك وانصافك ، حتى تنصفني ، فاني داخل معك على شرط التخلي
عن التعصب وعن كل ما علق بالاذهان ، وان مضت عليه الدهور
المتطاولة ، حتى يمكننا ان نعرف الحق ونرجع الى الانصاف

(بيان ان طالب الدنيا محال عليه ان يستريح)

اسكل انسان مطلب يرجوه ، وأمنية يبتغيها ، ويظن ان سعاده
في الوصول اليها ، ويحسب انه عند ذلك يكمل هناؤه ، ويتم صفاؤه
وبودي أن يعرف ان النفس الانسانية لاتزال متحركة لما فيها من
قبول الفيض الدائم ، وانها لو سكنت لكانت نفس حيوان لا انسان
فطر على ألا يقف ولا ينتهي

بودى أن يتحقق ذلك ويتحقق معه ان نفسه لم تقتصر على
ما طالته منه الآن الا لكونه منتهى ما تبصره من طريق الاطماع ،
ولا تبصر ما وراءه لعدم الطمعية فيه ، حتى اذا وصلت اليه أمكنها ان
تبصر مسافة أخرى ، وتطمع في الوصول الى غايتها ، ولا تزال هكذا
الى غير النهاية فلا يمنعها عن الطلب الا عدم الاستعداد له ، فاذا
يرقت الى درجة من الدرجات تجدد لها استعداد لنيل الدرجة التي
تليها ، فيتجدد لها شوق اليها ، فاذا نالتها تجدد لها استعداد آخر
الى درجة أخرى ، فلا تهدأ أصلاً ولا تسكن أبداً ، ولا تنتهي
مطالبها ، ولا تفرغ حاجاتها ، بمقتضى استعدادها

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي
وان كان ذلك لا يقع في علمك الا شيئاً فشيئاً على نحو ما
ذكرنا ، ولهذا قال بعض فلاسفة أوربا لا نتيجة لكثرة البحث عن
السعادة الا توسيع دائرة الألم

فليس الطريق اذاً الى الراحة أن تصدق ما تخدعك به نفسك ،
وتسعى في تحصيل ما يشبعها ، اغتراراً بما تعدك به ، فانها لا تشبع ، وان
ذلك من قلب الحقائق ، فان آيت الا ان تطلب الراحة بتحصيل كل
ما تريده منك فاعلم انك قد أضعت الراحة في سبيل طلب الراحة ، كما
هو شأن اكثر الخلق ، بل الطريق أن ترجع اليها فتفهمها أن السعادة
انما هي في راحة القلب ، وصفاء العيش ، لا فيما تظنه من كثرة الاموال ،
وسعة الآمال ، فان ذلك يوجب كثرة الطلب ، وكثرة الطلب توجب
كثرة الالم ، حتى تصل الى مطلوبها (ولن تصل اليه) فهي كالطفل
الذي ينبغي أن نريجه ونحافظ عليه ، بما نحدد له من الحدود حتى تسكن
نفسه فيستريح ،

فان سارعت الى كل ما يطلبه منك ، رجاء راحته فلا يزال يبكي ،
وتملى عليه نفسه ما شاء لها تفننها وشرها ، فلا تستريح انت ، ولا هو
فتكون قد أسأت اليه والى نفسك ، وانت تظن أنك من المحسنين ،
ولا اراك مبعداً اذا قلت أن الغاية اسم بلا مسمى ، فان الامور
لا تقف عند غاية ابداء ، ولكن الذي وقف انما هو استعدادك لاهي ،
هذا ولست اريد منك أن لا تكون عاملاً نشيطاً قائماً بما تحدده
لك الشريعة ، وتقتضيه الحكمة ، ولكن أريد الذي تعرفه من نفسك
اذا رجعت الى وجدانك وانصافك ، وتجردت عن أهوائك وشهواتك ،
فتطلب المال رشيداً حكيماً ، عارفاً انه وسيلة الى غيره لا مقصود لذاته ،
كي تكون في عيشة راضية ، وحالة سامية ، وكى لا يضيع منك المقصود

في سبيل طلب الوسيلة ، فلا تكن ممن يحرفون الكلم عن مواضعه ،
أيديك الله

(بيان أن الناس متساوون في السعادة والراحة لولا توهم باطل)

يظن كثير من الناس إذا رأى من هو أعلى منه منصباً ، وأكثر
خداً وحشياً ، وأوسع داراً ، وأوفر ريشاً وأثاثاً ، أنه في غاية الهناء ،
ونهاية الصفاء ، ويتخيل له لذة فيها وابتهاجاً بها ، على نحو ما يقدره في
نفسه وخیاله لو وصل إليها ،

وانى أقول لك أنه معذور في هذا الظن ، لان نفسه الآن
لا تطالب أكثر من هذا ، فاذا أدركته كان ذلك غاية سرورها ومتعتها
نعيمها ، وقد غاب عن ذلك الناظر المتلهف أن هذا النعم في نظره
لا يزيد نعيمه عن نعيمه ، فان الذى يراه من تلك النعم الكثيرة
لا تفعل بها نفس ذلك الأمير أو الوزير انفعال سرور وابتهاج كما
تظن فانها بكثرة تكررها عليه صارت معتادة لا تلتفت إليها نفسه ،
ولا ينشرح بها صدره ، فلا فرق بين حاله وهو في عربته ، وبين حاله
وأنت ماش على رجليك ، ولا بين ما يدور بنفسه وهو في قصره المشيد ،
وبين ما يدور بنفسك وأنت في بيتك الذى ورثته عن أبيك ، فان
النفس انما تفعل بالشئ مرة أو مرتين ثم لا تحس به

ثم لدى هؤلاء الذين يعجبك حلهم وان يقولوا تسمع لقولهم من
التعب الشديد والالم الزائد ما لا يحس به غيرهم ، فان لهم من الضرورات

ما ليس لك ، وعليهم من الواجبات ما ليس عليك ، وما كان ضرورياً
في حقهم كان كمالياً في حقك ، ثم يهمهم بعد ذلك أن يحافظوا على
جاههم ومرا كزهم كما يهم أصحاب الأموال أن يحافظوا على أموالهم ،
وأن ينموا ثروتهم ، فهم معرضون لما لا يطرأ عليك من الطوارئ
الكثيرة في جاههم وأموالهم وجميع أحوالهم ، مما يتكدر له عيشهم ،
ويتألم به احساسهم ،

وكثرة المصائب على قدر كثرة الاشياء المحبوبة ، فانك تتألم بما
يصيب كل شئ ، من هذه المحبوبات الكثيرة ، (فان شئت أن تقل
مصائبك فقلل محبوباتك) ولذلك قال القائل بالنسبة الى بعض المحبوبات
وهو بان يسمى حكماً أولى من أن يسمى شاعراً

يقولون مالك لا تقتنى من المال ذخراً يفيد الغنى
فقلت وأفحمتهم في الجواب لئلا أخاف ولا أحزن
ويقول غيره

ولربما يلقي الغنى بماله أضعاف ما يلقى التفتير بقتره
فان شئت أن تغبط أحداً على ما نال من السعادة (ولا سعادة
ألا في النفوس) فلتغبط ذلك التفتير الذي عرف مورد رزقه فرضى به .
ولمّا أن اليه ، فسكنت نفسه ، واستراح قلبه ، فهو بيت كل ليلة على
فرح كامل ، وسرور شامل ، ليس عنده من التجارات ما يحتاج الى
تدبير ، ولا من الؤفائف ما يدعو الى تخكير ، ولا من الجاه ما يحمله

ثقل الأعباء ، ولا من العظمة والأبهة ما يخاف عليه من هبوب
الهواء ،

وانى وحقت كثيراً ما وجدت الخادم أنعم بالآ من المخدم ، وله
من التمتع بقصره وبستانه ولطف هوائه وبهجة مائه وتغريد أطياره وحسن
منظر أشجاره ما ليس للسيد الذى لا يرى ذلك الا فى قليل من أوقاته ،
وان رآه كان مشغولاً عنه لا متلذذاً به ،

ومن اللطف الإلهى وان شئت فقل القهر الربانى أن الإنسان
يبدوا ما عليه من النعم ، ويخفى ما لديه من النقم ، فيرى الرأى حسن
حاله ، ولا يعرف دخيلة أمره ، فيظن أنه فى نعيم ، وهو فى عذاب
أليم ، فيتغص عليه عيشه ، ويتكدر صفوه ، ولعل هذا المثلث الآسف
محسود من غيره أيضاً ،

وما ذلك كله الا لمزيد الجهل ، وغلبة الوهم على العقل ، ومما
ينبغى أن تلتفت إليه كل الالتفات أن الضرورى للإنسان قليل جداً
وان أقل شئ يكفيه ،

نصف رغيف مشبع لمن أكل فالذل يا هذا ماذا يحتمل
ومن الغلط الذى أوجب العناء وأضاع الهناء ما يقع فى الوهم
من أن كثيراً من الاشياء ضرورى وربما كان من الحاجيات أو
الكليات لا من الضروريات كما تتوهم أرشدك الله ، ومما استولى
على النفوس وكان أس الشقاء فى فريق كبير من المسلمين أن مراعاة
الناس عندهم على ما يقتضيه الجهل والترفع الكاذب ، من أوجب

الواجبات وأول الضروريات ، فإذا صدر من أحدهم ما لا يناسب علو مركزه الذى بناه له الوهم وشيده له الخيال ، سقط فى يده وكاد يموت من الأسف (وكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) ولو عقل لعرف أن الناس لا ينفعونه بشيء إلا إذا توهّموا منه المنفعة ، وقتما فاذا رأوه قد سقط راغوا منه روغان الثعلب وطاروا عنه طيران الذباب ،

(الكافر يطلب الدنيا والمؤمن يطلب الدنيا والآخرة)

لعلك فهمت من كلامنا فى كثير من المواضع أن الانسان لا ينبغي له أن يطلب الدنيا بوجه من الوجوه لما سبق لك من كثرة ما اشتملت عليه من آلام وأكدار ولكن اذا عرفت أن الانسان لا بد له من مأكل ومشرب وملبس ومسكن حتى يدفع عن نفسه ضرر الجوع والعطش والحر والبرد ، عرفت أنه لا بد له من مال يصل به الى تلك المطالب الضرورية والا ذهبت حياته وضاعت سعادته وما لم يكن عندك ما تسكن اليه نفسك تكدر عليك عيشك وتشوش عليك أمرك حتى فى صلاتك ومناجاتك بمقتضى حكم الطبيعة البشرية .

والمؤمن من أرفع الناس همّة وعلى قدر همّة الرجل تكثُر واجباته وتكبر مروءته فتعظم أثقاله وهو الذى لا يزال لسان حاله يقول :
أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للعلا قبلى

فاذا الدنيا وسيلة الى دوام الحياة وفعل الخيرات وصفاء العبادة
وتمام السعادة، فالروح لا بد لها من بدن، والبدن لا بد له من دنيا
ولكن هناك فرق كبير بين المؤمن والكافر في طلبها وسنشرحه
لك اتم شرح فكن معي بالانصاف كما كنت معك بالانصاف

المؤمن يطلب الدنيا ليتوصل بها الى سعادته الباقية وليسير على
راحلتها الى محل قراره فهي في نظره لا تتجاوز رتبة الوسائل التي
تراد لغيرها ولا ترتفع الى درجة المقاصد لذاتها وان كان لا بد منها
وقد أثمر هذا النظر للمؤمنين أن يتمتعوا بقلوبهم وتتمام حريتهم اذ لم
تستعبدهم الدنيا بمحبتها كما استعبدت أبناءها المتعشقين لها المتهاالكين
عليها ولم تأخذ من قلوبهم الا كما تأخذ الوسيلة من قلوب ذوى العقول
السليمة ، ومن أجل ذلك قل منهم الخصاص وتم بينهم الوئام ولا تظن
أيديك الله انا نرى أن المؤمن لا يتوسع في الدنيا ولا يكون بعيد النظر
فيها فانه هو العاقل الحكيم بحكمة دينه وتعليم سيده ، ولكنه يعمل
كل ما يعمل فيه الله غير غافل عن مقصده الذي يريد فيتوسل
بكل شئ منها الى فعل الخير واكتساب الاجر

المؤمن يتعاطى الاسباب المشروعة ولكن لا يذل لها ذل
العاشق لمعشوقه ولا يخضع لها خضوع العابد لمعبوده لان قلبه مع
مسبب الاسباب لا مع الاسباب فهو دائماً يستمد منه الرشد والمعونة
فيما يريد علماً منه أن بيده مقاليد الامور فان شاء أضله في السير
وأوجد له من العقبات ما يحول بينه وبين مطلوبه وان شاء هداه السبيل

ويسر له من الاسباب ما يعلم وما لا يعلم ، ولديه تعالى من الاسباب الخفية ما لا يصل اليه علمك وتديرك ، ولئن علمته فلن تصل اليه قدرتك ، وليس لتصريفه تعالى حد يقف عنده أو قانون لا يخرج عنه بل ما لا تعلمه من الأسباب الخفية أكثر مما تعلمه ، ولست تدبر الا على حسب عامك وقد ينقلب ما دبرت ولا يكون ما قدرت ، وكثيراً ما كانت المقتضيات موانع والمضار منافع ، واذا لم تكن قد اهدت الى ذلك بما وصلت اليه من العلم فلعلك اهدت له بما حصل لك من الحوادث

المؤمن لا يموت أسفاً ولا ينتحر غيظاً اذا فاتته شىء من الدنيا مهما كان لأنها ليست كل المقصود عنده ولا تمام السعادة في نظره ولأنه يعلم أن الله على كل شىء قدير ، فان شاء أعطاه اضعاف ماضع منه وأن لم يعلم له سبباً ولم يعرف اليه طريقاً ، فليست الأسباب منحصرة فيما علم ولا الطرق مقصورة على ما عرف ولأنه كثيراً ما وجد الخير فيما كان يظنه شراً وكثيراً ما وجد الشر فيما كان يظنه خيراً ، وطالما استتبعت الأفراح الاتراح والسرور السرور ، فغلب عليه الركون لله عز وجل والثقة به والتوكل عليه وتقليد كتابه العزيز فيما قال (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) فعزاه هذا الخطاب فهان عليه المصائب فتلج منه الصدر وخف عليه الامر

هذا وهناك فروق كثيرة أعرضنا عن ذكرها اكتفاء بما لعله
يكفيك

(القول الفصل فيما جاءت به الشريعة)

« من اللذائذ البدنية والمطالب الدنيوية »

قد علمت أن الانسان مركب من جزء علوى سماوى وجزء مادى
أرضى وأنه لا بدله بمقتضى هذا الجزء المادى أن يتغلغل فى المحسوسات
ويوغل فى وادى اللذائذ الجثمانيات ولاشئ عليه فى هذا بل بذلك
تحصل سعادته وتتم راحته ، وقد اعتنت الشريعة بذلك أتم اعتناء
فرسمت له قواعد وحددت له حدوداً وقالت (ليس خيركم من ترك
دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه وإنما خيركم من عمل لدنياه وآخرته)
وقالت (لارهبانية فى الاسلام) (أن لبدنك عليك حقاً وأن لزوجك
عليك حقاً) الى آخر ما بينت من الحث على العمل الذى تصلح به
دنياك ، وما شرعت لذلك من مسائل النكاح والطلاق والبيع والشراء
والمضاربات والشركات وحدود التعديات والجنيات محافظة على تلك
الحقوق الجثمانية التى أقامت لها وزناً كبيراً وشأناً خطيراً وأن من أول
ما تقصده من غرس خلق الشجاعة فيك أن تدفع بها غائلة من يتعدى
عليك فى حق من حقوقك المشروعة وما بلغت الشريعة فى شأن الامام
العادل حتى كان يوم واحد من أيامه بعبادة ستين سنة وحتى كان من الذين
يظلمهم الله فى ظل العرش الامن أجل اقامة العدل بين الناس فى تلك

الحقوق ، ولا وردت لعنة الظالمين فى الآيات العديدة الا من أجل ذلك ، ولا استعاذ صلى الله عليه وسلم من العجز والكسل الا وقد لاحظ ما يترتب عليهما من مضار الدنيا والآخرة الا أنك اذا لم تتفان فى طلب تلك اللذائذ ولم تهالك عليها وراعت حدود الله فيها سعدت بسعادة كبرى وصفا عيشك صفاء يطلبه قلبك وان ضللت عنه فى سيرك

وأما اذا كنت ممن يعدو وراء الاوهام وينخدع بأضغاث الاحلام ويغره لمعان السراب فيحسبه من لذيذ الشراب شقيت شقاء لا سعادة فيه وكددت كدأ لا راحة معه وطلبت أن تستأثر بكل شئ فوثبت وثب الوحوش على اخوانك وبنى نوعك تفترسهم افتراس الذئب الضارى نأية الغنم وتستلب منهم ما استطعت اليه سبيلاً حتى يكون لك من رفعة الجاه ووفرة المال وضروب اللذات ما ليس لاحد سواك فى بلدك أو جهتك أو قطرك أو الدنيا كلها على حسب ما تسمح به درجتك وتوصلك اليه قدرتك

وهذا الذى فى نفسك من التكالب الحيوانى على جمع المال والحرص على قتل غيرك لتنفرد بالحياة كلها وما ركب فيك من ذلك الشره الذى لا يتناهى حتى لا يساويك أحد ولا يدانيك انسان فتكون وحيد دهرك وفريد عصرك على ما يزعمه شيطانك (ولو أنصفت لعرفت أنك وحش اخوانك وهفترس أقرانك)

كل ذلك الذى يدور بنفسك وتطلبه على موجب شرهك

وجهاك هو بعينه في نفس كل واحد من بني نوعك ، فلا تلبث
أن تقوم في وجبك قومة الأسد في وجه من يريد أشباله ، فلا يزال
يسورك حتى يصرك أو تصرعه وبين هذا وذاك يضع منك الصفاء
ويقضى على ما كان لك من المناء بفضل غلبة الأهواء وعدم معرفة
حقيقة السعادة والشقاء

وإذا تحل الروابط الانسانية بل علاقات القرابة الابوية كما
شاهدنا ونشاهد فتفكك أجزاء الامة ويكاد ينهار بناء المجتمع
الانسانى لولا لطف الله تعالى ووجود الكاملين فيه

ولذا كان غرس مكارم الاخلاق التي توقف النفوس عند حدها
وترسم لها طريق السعادة الحقيقية وتنفخ فيها روح الانسانية وتعالو
بها عن الصفات البهيمية من أول الضروريات التي يتوقف عليها
صلاح الكون وبقاء النوع الانسانى حتى لا يذهب فريسة الشره
وضحية الاطماع

لا فرق بين الافراد وبين الأم في ذلك، وكثيراً ما يحسون بما
شرحنا وأن مآل ذلك الى التلاشي والدمار ويشعرون بأن غريزة
الشره التي فيهم لا يكاد يقنعها مطلب من المطالب أو تشبعها غاية من
الغايات

وعند ما يتحرك فيهم ذلك الاحساس الحق يطالبون عقد مؤتمر
للسلام العام حتى يوقف النفوس ايقافاً قهرياً عند ما حد لها
فالحلاصة ان المطالب الجمائىة واللذائذ الحسية هي أس السعادة

ومناط الراحة اذا عرفت للمصود منها ووقفت بها عند حدها المشروع
والا كانت سبب التحاقد والتحاسد ومبعث التنافر والتدابير ومثار
التكالب والتغالب ومذهبة السرور ومجلبة الشرور ومجمع البلاء وأس
الشقاء

ولذلك احتجنا الى الشرائع التي تمحو من نفوسنا ردائل تلك الغرائز
وتنقش فيها فضائل الاخلاق حتى نحيا حياة طيبة ونأمن من انحلال
نظام مجتمعنا الانساني وانهدام بناء وجودنا البشرى
ويحسن بنا هاهنا أن ننبهك الى أمرين عظيمين :

الاول أن مكارم الاخلاق التي تجب فيما بين الناس ويتوقف
عليها معاملتهم وصالح حالهم لا تتم على ما ينبغي الا من أخذ الدين
بمجامع قلبه فامتلاً خوفاً من الله ورجاء في الله فوقف عند ما حد له
من حدود، وشرع له من رسوم قائلاً لنفسه وبني نوعه (تلك حدود
الله فلا تعتدوها) فكانت معاملته للناس فرع ذلك الاصل الثابت
في أعماق قلبه ومشيدة على ذلك البناء الذي أسس على التقوى ، وأما
من لم تكن معاملته فرعاً عن معاملة الله تعالى ولا مسببة عنها بل لما
يقصد من أمر يعود عليه ونفع يرجع اليه فليس له من مكارم الاخلاق
الا صورها وأشباحها لا حقائقها وأرواحها ، بل تستطيع أن تقول أنه
ليس من مكارم الاخلاق الحقيقية في شيء لانه انما يعمل لأغراضه
ويسعى لغاياته فهو معها لا مع الكمال ، فلا يلبث أن يتلون بالالوان
المختلفة على حسب ما تقتضيه الظروف وتشير اليه الغايات

وكذلك من أخل بواجبات المعاملات فيما بينه وبين الناس فقد
أخل بمعاملته مع الله ، لأن له تعالى في كل شأن من شؤون الخلق
حقاً أوجبه عليك وحداً أمرك بالتزامه ، ولا يتصور أن ينفرد حق
الناس عن حق الله تعالى كما بين ذلك عند ذكر مراتب الذنوب وما
فيها من الحقوق المتعلقة بالخلق والخالق معاً أو بالخالق فقط ولا ثالث
لهما ، فهما مرتبطان ارتباط الأُس بالبناء وممزجان امتزاج الأرواح
بالأجساد فاعرف ذلك واحرص عليه

والامر الثاني أنه قد ورد عن علي كرم الله وجهه أو عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال : (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك
كأنك تموت غداً) وهو مما يناسب موضوعنا الذي نحن فيه بل هو من
أول الشواهد عليه ، ولسنا نحمله على الحث على الاجمال في طلب الدنيا
كما يقول بعضهم فإن من عرف أنه يعيش أبداً عرف أن ما لم يحصله
اليوم حصله غداً ، فاجمل في الطلب ولم يكتر من التعب ، ولكننا
نقول هذه الرتبة التي أشار إليها الحديث لا يستطيعها إلا أكابر الرجال
الذين لم تأخذ الدنيا من قلوبهم مأخذها من قلوبنا اليوم فهم يعملون
فيها بأمر الله لا يبالغون لمن تكون ثمرة أعمالهم موقنين بأن الملك لله
وأن الخلق عيال الله فهم يتقنون ما يعملون مراعاة لما أوجبه تعالى
عليهم فيما أقامهم فيه ، قائمين في ذلك بمراده لا بمرادهم متوجهين إليه
تعالى بأرواحهم وحقائق ذواتهم ، وإن كنت تراهم منهمكين فيها
بظواهرهم وأبدانهم فكانت دنياهم على أحسن ما يكون وآخرتهم

على اتم ما يتصور . فدنياهم لا آخرتهم وآخرتهم لربهم (وانما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى)

هذا وأظنك قد رأيت من يستدل بهذا الاثر على الاجتهاد في طلب الدنيا التي أصبح من أسرائها وأول عبيدها ، معتذراً عن نفسه مبرراً قبيح خطته وسيئ عمله فرحاً بصدر الحديث غافلاً عن عجزه على أن القلب ليس له الا وجهة واحدة متى توجه اليها بالحببة لم يمكنه أن يتوجه الي غيرها (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) فاذا طلبتها محباً لها شغوفاً بها معطياً اياها رتبة المقاصد التي تراد لذاتها أخذت بكل قلبك بمقتضى تلك المحبة شئت أم أبيت (شأن المحبوب مع المحب)

ولا يتأتى لك أن تجمع في القصد الذاتي والحب القلبي بين الفاني والباقي كما لا يتأتى لك أن تجمع بين الحركة الى السفلى والحركة الى العلو ولا بين المشرق والمغرب فهما ككفتي الميزان متى رجحت احدهما خفت الاخرى وكالأثناء الممتلئ ماءً لا يدخله هواء الا على قدر ما يصب من الماء

فاذا كنت مع الدنيا على تلك المحبة القلبية وذهبت تطلب الآخرة ذهبت اليها بلا قلب لا محالة (ولكن بلا قلب الى أين تذهب)

اذا علمت ذلك علمت انه لا يمكنك الجمع بينهما والعمل الصحيح لهما الا على ما شرحنا ، فاحذر من الجملاء وكثير من العلماء

الذين أصبحوا من أكبر عشاقها وأول دعايتها فكانوا ضرراً على الدين وفتنة للمسلمين

وراعى الشاة يحى الذئب عنها فكيف اذا الرعاة غدوا ذئاباً
(منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) وقد قالوا أن
فساد الرعية بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء فامعن النظر أيديك
الله في هذا الموضوع والذي قبله وزن محبة الدنيا ومحبة الآخرة في
قلبك ، واعرف الحق بوجودك وانصافك فيما بينك وبين نفسك ،
وليس بهمنا أن تعترف لنا بعد بما وصلت اليه ، ووقفت عليه ولكن
بهمنا ألا نخدعك الوهم أو يضل بك الفهم

(تمة للموضوع بذكر سائحة فيه)

سر ما ورد من احاديث الزهد في الدنيا هو أن الانسان يحبها بطبعه
حباً شديداً فيغلب عليه الهوى والشهوة فيكائر ويفخر ويمحاسد ويمحاذق
ويكون جرثومة الشرور كلها اذا ترك وأمياله الفطرية
فاقتضت الحكمة أن يزهد فيها حتى ترتاض نفسه وتنكسر سورة
هواه حتى اذا تكمل بالاخلاق الحمودة وتطهر من الاوصاف الطبيعية
السيئة واتقاد لحكم الدين والعقل وصار مهيئاً للنور والحكمة أباح له
الشرع أن يمسك الدنيا ويتوسع فيها ما شاء لأنه حينئذ خير
لا شرف فيه ، ولست أنكر ان على الامراء والكبراء الذين ييدهم

زمام الامور ان ينظروا في مصالح الدنيا بأوسع نظر ويطلبوها أكبر طلب لما في ذلك من النفع العميم والفضل العظيم
وبعبارة أخرى تقول ليس يخفى أن الانسان مجبول على محبة الدنيا والافراط فيها كما قال تعالى (بل تحبون المال حباً جماً) وقال (بل تحبون العاجلة) وهذه المحبة غير المعتدلة ينشأ عنها التحاقد فالتحاسد فالتنازع فالتقاتل (نتائج طبيعية يستلزم بعضها) بعضاً فرأت الشريعة ان تزهد الناس في الدنيا قليلاً لتلك المفساد وتفرغاً للقلوب حتي تستعد لمحبة الله تعالى مكان محبة الدنيا فاذا تطهرت النفس بفيض الانوار ومعين مياه الاسرار وذاقت من اللذة المعنوية واستجلاء جمال الحقائق الربانية ما صغر لديها تلك اللذائذ الحسية وكشف في عينها ملك المطالب الجسمية اباحت له الشريعة أو طلبت منه بعد ذلك الكمال ان يرجع الى الدنيا ثانية بذلك العقل النوراني والقلب الرحمانى حتى يفيض خيره ويظهر بره فانه لا يعرف اذ ذاك المصالح الشخصية ولا المطالب النفسانية وليس يعنيه الا المصالح العامة واقامة ميزان العدل كيفما كان، واحقاق الحق حيثما وجد، تابعاً في ذلك الحكمة، غير مجاف للرحمة لا فرق عنده بين قريب وبعيد، ولا صغير وكبير، واصلاً الى درجة من يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ناظراً في الاشياء كلها بنظر الله عز وجل، لا بساً بمقتضى ذلك الاستعداد الرفيع تاج الخلافة عنه تعالى، آمناً من ان تغشاه الظلمات أو تفتقره الشهوات فهو في حالته هاتين في نظر الشريعة بمنزلة الطفل أو السفينة الذي اذا لم

تتجبر عليه كان الى الشر أقرب منه الى الخير حتى اذا تم رشده واستقام أمره أبحنأ له ان يتصرف كما يشاء لمكانه من العقل والحكمة فلا تخاف من ذلك ضرراً عليه ولا على الناس فهذا هو شأن الشريعة مع بنيتها تأمرهم بالرياضة والزهادة على سبيل الاستحباب حتى اذا طهرتهم من أدناس الجبال وتقتهم من أرجاس الطبائع وأمنت عليهم وعلى الناس منهم قالت لهم لا تثريب عليكم اليوم فافعلوا ما شئتم فأتى الحكماء الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم والعلماء الذين أصبحوا درياً قاناً للامم ودواء المشعوب

(الشرعيات)

« الشريعة منبع السعادة »

سر معى على ما أحب عسى أن تجد ما تحب وإياك والرعونة فطالما حرمت أهلها من خيرات وحجبت عقولهم عن حقائق فحرك معى الفكر أيديك الله وتجرد عن كل ما تملك نفسك وانطبع فى مرآة قلبك عن تقليد واستحسان لا عن دليل وبرهان

اذا غلب عليك الأ نصاف وصادفك الرشد وفعلت ما اتفقنا عليه وجدت الشريعة قد جاءت بسعادة الروح والبدن جميعاً والانسان كما علمت بالبرهان فيما تقدم مركب من جزء علوى سماوى وجزء مادى ارضى وأنت لا تسعى وراء مطالب الابدان وما تحتاج اليه ألا من

حيث أنك حيوان لا من حيث أنك إنسان وعلمت أن كل حيوان يطلب الطعام والمشارب وما يقيه من الحر والبرد الى غير ذلك وأنه لا قيمة لما يشاركك فيه الحيوانات وان كنت في طلبه أوسع تدبيراً وأتقن صنعا وأعظم تفننا واستحقت بذلك أن تكون سيد الحيوانات كما قلنا في بعض ما سبق لك، ولكن الوصف الذي صيرك انساناً وألحقك بالملائكة هو أنك أعطيت نفساً شريفة تشاكل بها الملائكة وتستعد لأن تعرف من جلال الله تعالى وجهاله ما لا يعرفه غيرك ويمكنك أن تترقى في الكمالات دائماً وتنخرط في سلك العالم الأعلى الذي لا يلحقه ألم ولا يشوبه نقص وأن تفارق عالم الحيوان الذي تؤذيك فيه البعوضة ويسقمك فيه الحر والبرد وتزعجك الأحلام وتخيفك الأوهام

وبمقتضى ذلك الجزء الروحاني الذي ليس له حد محدود في الترقى في الكمالات (وعلى قدرها تكون اللذة والنعيم) كانت هذه الحياة الحيوانية غير كافية لروحك ولا موفية حق استعدادك فكان لك بمقتضى حكمة الحكيم حياة أخرى لا تنفذ حتى يتأتى لك فيها أن تأخذ كل ما يقتضيه استعدادك وتوجهه حقيقة ذاتك مما لم يخلق له الحيوان ولا يمكنه أن يصل اليه

ولولا ذلك لكان غيرك من المخلوقات أسعد منك حالاً وأنعم منك بالاً ولكان إيجادك على هذا الوجه من السفه بمكان (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم ألينا لا ترجعون) وقد سبق لك أيضاً أن لذة هذا الجزء الروحاني إنما هي بالعلوم والمعارف

والانوار والاسرار وأنه قد يصل الى حد تنفعل عنه الاشياء كلها ويكون
في نعيم بلا كدر وصفاء بلا تشويش (١) وقد جاءت الشريعة تعالجك من
الأمراض التي أحاطت بك وتحاول أن توصلك الى هذا الحد وتظهير فيك
خاصة الانسانية ولا تعجل على يرحمك الله فاني معترف معك بأنها جاءت
تحت على مصالح الأبدان وسعادتها أيضاً وقد أفضنا القول في ذلك ،
فاذاً قد جاءت الشريعة بسعادة الأبدان والارواح ، وان شئت فقل
بسعادة الدنيا والآخرة فشرعت العبادات البدنية عسى أن تدخل الى
قلبك من الانوار وتذكرك من العظمة الالهية ما توفى به قسط الروح
وما يجلو مرآة القلب مما تراكم عليها من ظلمة وعلا عليها من صدا بل
وما تنفع به في مصالح البدن أيضاً فانه اذا انجلت مرآة قلبك تجلى فيه
الحق حقاً والباطل باطلاً وظهر لك قبح الصفات الذميمة من الحقد
والحسد والطمع والشره ، وحسن العفة والسخاء والشجاعة والاقتصاد
وسلامة الصدر الى آخر الفضائل والذائل وتقوى عقلك بذلك المدد
النوراني فاجتنبت ما يشينك وتحليت بما يزينك فطاب عيشك وتم
سرورك والا حقت عليك الكلمة وأحاطت بك الشقوة ولم تغنك
أموالك ولا أولادك متى كنت فيها على غير تأييد الهى ونور ربانى
(فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها) فيضيع
منك طيب الحياتين ويفوتك تحصيل السعادتين (ومن أعرض عن

(١) قد جاء التشويش والتهويش جميعا خلافاً للحريرى الذى جعل

التشويش لحنا

ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) بصرك الله فى أمرك وهداك الى رشدك ولا جعلك ممن نسوا الله فأنساهم أنفسهم بمنه وكرمه

(ذكر شىء مما جاءت به الشريعة على التفصيل)

جاءت الشريعة بتفقد أحوالك فى نفسك وفى أسرتك وفى جيرانك وفى الناس أجمعين فلو جبت عليك ألا تخاطر بنفسك (ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) وقد ورد النهى عن النوم فوق سطح البيت اذا كان بلا حاجز يمنعك من السقوط رحمة بك واعتناء بشأنك كما ورد الوعيد الشديد فيمن قتل نفسه، وبما أورثته فى القلوب من الرغبة والرغبة من الله عز وجل امكنها أن تردع الناس عن أن يخاطروا بأنفسهم أو يلقوا بها الى المهالك وليس فى امكان القوانين الوضعية أن تردع الناس عن قتل أنفسهم بوجه من الوجوه ، وليس يغيب عنك ما تسمعه كل وقت من حوادث الاتجار فى أوربا (بلاد القوانين والمدنية) وقد سرى ذلك بطريق العدوى لقوم منا لم يدخل الايمان فى قلوبهم ولا استقرت تعالىه فى نفوسهم

جاءت الشريعة موجبة عليك أن تراعى زوجك فقالت (خيركم من كان خيره لاهله وشركم من كان شره لاهله) وقالت (أن الرجل ليحشر مع المتجبرين يوم القيامة وليس عنده غير أهل بيته) وجاء فى القرآن العزيز

(لا تعبدون (١) الا الله وبالوالدين احساناً وذى القربى واليتامى والمساكين
وقولوا للناس حسناً) بدأ بتوحيده تعالى لانه أساس كل خير ثم بالاحسان
الى الوالدين لانهما أقرب الناس اليك وأمنهم عليك ثم بذوى القرابة
لمكان قرابتهم وعلى حسب درجتهم ثم باليتامى الذين لا يستطيعون
حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، ثم بالمساكين من الناس ثم بعموم الناس
كافة الى غير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة

جاءت الشريعة بالحث على معاملة الجار بالحسنى حتى قال صلى
الله عليه وسلم (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)
جاءت بأبلغ ما يكون من الحض على عمل الخير مع من تعرف
ومن لا تعرف حتى جعلت أمانة الأذى عن الطريق شعبة من
شعب الإيمان

بالغت فى الحث على آداب الاجتماع حتى حرمت عليك أكل
الثوم والبصل اذا أردت حضور المحافل أو دخول المساجد حتى أسقطت
عنك الجمعة بذلك اذا لم تجد ما يزيله ابعاداً لضررك عن الناس
طلبت منك الاغتسال على سبيل الوجوب أو السنية يوم الجمعة لما
يكون فى ذلك اليوم من الاجتماع ولم تكتف بذلك بل نذبتك بعد الى
التطيب والتعطر ثم أمرتك أن تمضى اليها بالسكينة بعداً بك عن
الرعونة والطيش واستبقاء لما فى باطنك من الخشية وفى ظاهرك
من الوقار

(١) والنفي فى الآية بمعنى النهى وهو ابلغ منه كما قال علماء المعاني

ندبتك الى ادخال السرور على أخيك المسلم بأى وجه من
الوجود ووعدتك عليه أحسن الجزاء

عقدت بين المؤمنين عامة عقد الاخوة الذى تقلهم الى دائرة
الاسرة الواحدة على تنأى ديارهم وتباعد أقطارهم (انما المؤمنون
اخوة)

بالغت فى محبة بعضنا لبعض حتى جعلتها شرطا فى الايمان
(لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا)

بالغت فى أمر النصيحة حتى جعلتها الدين كله (الدين النصيحة)
بالغت فى ترك الأذى حتى جعلته هو الاسلام (المسلم من سلم
المسلمون من لسانه ويده)

بالغت فى أمر الاخلاص وعمل الخيرات لوجه الله تعالى وحذرت
من الرياء الذى يفسد النفوس ويحبط الاعمال ويقطب الفضائل رذائل
حتى جعلته شركا (أن الشرك اخفى فيكم من ديب النمل فى الليلة
الظلماء)

عرفت مقدار الميل الطبيعى الى الظلم فحذرت منه بأبلغ ما يكون
حيث قالت (ما من أمير عشرة الا يجاء به يوم القيامة مغلولة يدها الى
عنقه فلا يفكه الا العدل ، بل شددت فى الأمر جدا على ما يقتضيه
العدل الالهى فلم تدع أحدا من المسئولية وكان لها فى ذلك أعلى نظر
وابلغ حكمة فقالت (كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته)

عرفت ما جبلت عليه النفوس من الاوصاف الذميمة ومن السعى وراء أهوائها وشهواتها بما يضيع عليك الحياة الطيبة ويحرمك من السعادة الأبدية من حيث تشعر ومن حيث لا تشعر كما شرحناه فيما سبق

عرفت ذلك بما لا يصل اليه أكبر يدا جوجى (١) في العالم فنبهتك أن تحذر من نفسك حذرك من عدوك أو أشد فأنها اخفى مكرها وأعظم ضرراً لأن متابعتها تذهب بنعيم الأبد وقد قال القائل

أأنت عدو أم صديق لنفسه فانك ترميها بكل مصيبة ولو فعل الاعداء بنفسك بعض ما فعلت لمستهم لها بعض رحمتي
عرفت ذلك كله فقالت (أعدى عدوك نفسك التي بين

جنبك) (أن النفس لأماراة بالسوء)

عرفت مقدار تسلط الهوى علينا فحذرتنا منه كل التحذير وعرفتنا مكانه من نفوسنا ومبلغ سلطانه على قلوبنا حتى جعلته الها يعبد من دون الله لما علمت من مسارعة النفوس الى طاعته وطيرانها نحو اشارته ، شأن العابد مع معبوده والعبد مع سيده فقالت في بيان تلك الألوهية (أفرايت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه) وفي التحذير من أتباعه (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) وفي الترغيب في مخالفته (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى)

رأت أن كثيراً من الناس يتخبطون في أودية الاوهام والخيالات

(١) عالم من علماء النفس وأستاذ من أساتذة التربية

غير مستعملين عقولهم فارادت أن مخلصهم من أتباع الظنون فقالت في معرض الذم لقوم كان هذا شأنهم تفتيراً من مثل حالهم (أن يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئاً) وقالت (وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون) فبينت أن سبيل الله لا يسلك باتباع الظن والتخرص وانه لا يهدي اليه الا العقل السليم والتفكر القويم ولذلك أكثر من قولها (ان في ذلك لآية لقوم يعقلون ، ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون) ثم تقول في توبيخ قوم (أولم يتفكروا) (أولم ينظروا) الى غير ذلك

عرفت نفاسة الوقت وأن النفس ميالة الى اللغو وضياح الأوقات فيما لا ينفع فأرشدتنا الى ذلك واكثر من الحث عليه (والذين هم عن اللغو معرضون) (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) (ان الله يكره أن يرى عبده فارغ القلب من عمل الدنيا والآخرة) (من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه) وقد قال بعض الصالحين قد عملت بهذا الحديث أربعين سنة ولا تزال تتجدد فوائده وتترادف عوائده ولم أفرغ منها بعد

عرفت مالاً أمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الفوائد وما هو مركز في الطبائع من مراعاة الناس فيما تميل اليه نفوسهم فقالت (لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر) (أوليسلطان الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم) وبينت لنا أن ترك ذلك من موجبات

سقوط الأمم فقالت في بيان جريمة قوم استحقوا بها المقت والمحنة
(كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون)

عرفت ما جلبت عليه النفوس من محبة الدنيا والتطلع اليها وما
يكون في قلوب الفقراء من الحقد على الاغنياء والحسد لهم وما يكون في
نفوس الاغنياء من محبة أموالهم والحرص عليها فأوجبت لهم قسطاً من
مالهم يؤخذ منهم كرهاً (وان بقتال) وندبتهم بعد ذلك الى الصدقات
ووعدهم عليها الثواب الجزيل حتى تذهب الشحناء وتجتث البغضاء
من قلوب الفقراء فيتم الصفاء ، وحتى تطهر نفوس الاغنياء من رذيلة
الشح (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) وندبت الى
القرض وجعلته أفضل من الصدقة وعملت على توثيق عرى المحبة وتربية
خلق المروءة في نفوس الجميع فخرمت الربا

فانظر بصرك الله الى أى حد وصل الناس من البعد عن الفضائل
ولو أنصفت لأعطيت الاشتراكين بعض العذر فيما يفعلون وقد كان
لهم من الدين الاسلامي أكبر دواء في ازالة هذا المرض القتال للأمم
الفتاك بالشعوب

عرفت حاجة الإنسان الى الدنيا وانها وسيلة سعاده وأنه عظيم
الشهر فيها وأن ذلك سبب شقائه فقالت مراعية للأمرين جميعاً (من
طلب الدنيا حلالاً في عفاف كان في درجة الشهداء)

حثت على التقوى وذكرت علامة المتقي ثم عرفت أن نفسه
لا بد أن تغلبه بعض الشيء فتسوقه الى مالا ينبغي فوضعت له الدواء

الناجع وأرشدته الى ما يصلح به حاله مع الخالق والمخلوق فقالت (اتق الله حينما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن) وقالت لا يبلغ الرجل درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة ما به بأس عرفت من النفوس أنها تتأثر بأقل شيء فتكمن الحقد والشر ، وكثيراً ما يكون لصاحب الهفوة مقصد حسن أو عذر مقبول فيما صدر منه ، فحضت على الإصلاح بين الناس وجعلته من أفضل الأعمال فقالت (لا خير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً)

عرفت أن النفوس تحب مزيد الأنتقام ولا تقف عند حد العدالة في المجازاة (والظلم من شيم النفوس) وأن لصاحب الذنب من جهله وبواعثه التي استولت على نفسه الضعيفة حتى ساقته الى أن يقارف ذلك الذنب بعض العذر فيكون العفو أقرب الى الرحمة وأبعد عن الحيف فأكثر من الحث عليه فقالت (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) (ولن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور)

عرفت مقدار ما في النفوس من الجهل ومحبة العاجلة والتأسف على الفائت الذي يكاد يتلفها ويذهب بإيمانها حيث قصرت النظر على الاسباب ولم تترق منها الى مسبب الاسباب غير عاللة أن للأمر من الاسباب الخفية والمعدات القرينة والبعيدة ما لا يدخل

تحت علمها وقدرتها ، وانما هو راجع للفعل الالهي والتقدير الأزلي
فكانت أشبه شئ بالتملة التي تعتقد أن الكتابة من القلم اذ لم يمكنها
أن تشاهد اليد ولا تعرف الأعصاب المحركة لها ، ولا أصل ذلك كله
من القدرة والارادة

عرفت ذلك من النفوس وأنها مجبولة على هذا الجبل فداوتها
بأنجع الادوية وأخرجتها من الظلمة بإشراق نور الحقيقة فقالت :
(ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من
قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير) جمعت مجامع الآداب
والفضائل ، حاثثة على العدل الذي هو الوقوف عند الحد المطلوب في
كل شئ وهو الفضيلة الجامعة للفضائل كلها ، ناهية عن الرذائل جمعاء
فقات موجزة آمرة وناهية (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء
ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى)

سلكت بك كل طريق ودخلت بك من كل باب الى
مكارم الاخلاق فتارة تذكريك ثمراتها وما يترتب عليها في الدنيا
كما قال صلى الله عليه وسلم (من وصل رحمه زيد له في عمره ووسع
عليه في رزقه أو كما ورد) وتارة ترغبك فيها بما لك عند الله من
حسن مشوبته لك ومزيد رضاه عنك

ومن أعظم أبواب مكارم الاخلاق ما أمرتك أن تشعر به نفسك
في كل عبادة من الخضوع لعظمة الله تعالى والرهبة من جلاله حتى
يمنعك ذلك الخوف وتلك المراقبة من ارتكاب الدنياياوحتى يرجع بك

تور العبادة الى طهارتك الذاتية وصفاتك الاصلية وحتى تعلم أن لك
حظاً آخر غير حظك من الدنيا فلا تحبها الحب الشديد الذي أخذ
بكل قلبك فتكأبت عليها تكالب المتهاالكين فيها فكثرت منك
المنازعات والمخاصات لأنها محبوبك الوحيد وكل من نازع أحداً في
محبوبه الوحيد فهو عدوه لا محالة ، وقد كان من حق الدنيا ألا تأخذ
ألا بشئ يسير من قلبك لا بمجامعه او بتعبير آخر لا تأخذ إلا بظاهره
دون باطنه حتى يصفو عيشك ويستقيم أمرك ويستريح الناس من
شرك وتم ينكم المحبة والولاء

ولو أخذنا نشرح ما اشتملت عليه الشريعة من أسرارها الحسية
والمعنوية لطال بنا القول وستسمع في الخاتمة شيئاً من أسرار الصلاة
وقد عرفوا الآن من أسرار الطهارة أنها تنفع في أمراض كثيرة
أخصها ما يكون بالأنف

وناهيك ما يزيل تغير رائحة الفم من المضمضة (ثلاثاً) واستعمال
السواك مع الحض الشديد عليه حتى كادت توجهه وخصوصاً بعد
النوم ، وما في ذلك من المحافظة على الأسنان وما ينتظم في سلك آداب
الأجتماع ، وليس يقل عن ذلك ما في غسل القدمين كل وقت من
ازالة الروائح التي تنبعث منهما اذا طال مكثهما بلا تعهد ، الى غير
ذلك من الفوائد الطبية والحكم الروحانية مما لا محل لذكره الآن
عرفوا من تلك الاسرار بل من أسرار ما جاء به الدين الاسلامي
عموماً ما جعل الكثير منهم ينتصر له معجباً به مبتهجاً بما جاء فيه

موقنا أن دين الاسلام على غير ما عليه المسلمون اليوم على حين أن
أبناءه يحاربونه في بلاده بجهلهم تارة وتقليدهم أخرى
ولو لم يكن من آيات الشريعة الإسلامية إلا أنها جاءت بتلك
الأصلاحات كلها في زمن يسير على حين أن غير المسلمين لم
يهتدوا الى بعضها الا في قرون عديدة لكفاها اعجازا لدى المنصف
المتبصر

هذا والمقام واسع جداً ولم يمكن أن أبرز الاشياء يسيراً مما في
نفسى وكل ما في نفسى ليس الاشياء يسيراً من تلك الاسرار (قل
لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون
بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ووجوه الأعجاز الراجعة الى
معانيه أكثر من وجوه الأعجاز الراجعة الى لفظه وحسن نظمه ،
ولا بد أن يكون قد تحرك منك الأنصاف وصادفك التوفيق فعلمت
سر قوله صلى الله عليه وسلم (بعثت لأتم مكارم الأخلاق) وقوله
تعالى (وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
تنزيل من حكيم حميد)

(مقارنة الشريعة بالقوانين الوضعية)

الشريعة جاءت باصلاح الظاهر والباطن وراقبت الفرد في
أعمال نفسه وأخلاقه التي يتخلق بها وخلصت روحه من مضيق سجن
البدن وفتحت له نوافذ كبيرة يشرف منها على عالمه الفسيح فتأخذ

الروح حفظها من وطنها الاصلى وتشفى غلتها عن سلسال منبهه العذب
وتمتع نظرها بجمال رياضه الموتى ثم تستضيء منه بنور لامع تبصر به
في ظلمات هذا العالم ما ينفعها وما يضرها وما يسعدا ويسعد أمتها ثم
ترشد بذلك اللا لآء أبناء نوعها ثم حركت فيها الاحساس بالخالق
عز وجل ومحبيه والنظر في آياته والفكر في عظمة ذاته ثم شرعت
له معاملة مع الله تعالى الذى يراقبه في خلواته وجلواته ومعاملة مع أسرته
ومعاملة مع الناس كافة وهى الانسانية الحقيقة التى يشرّبون اليها
ولا يستطيعون الحصول عليها ويدعون انهم من عشاقها ، وكثيراً
ما يجنون عليها ويكونون من ألد أعدائها ، ولو نظرت الى قوانينهم
لوجدت فيها ما يستخرج من قلبك أيها المؤمن شكر الله عز وجل ،
وأظنك تعرف انه لا يراد من تلك القوانين الاحفظ النظام العام
لا اصلاح الافراد فى كل شئونهم (كما هو مرمى الشريعة المطهرة) فهى
لا تكفل السعادة للافراد على الحقيقة ، وانما تكفل وحدة الامة
وراحة الحكومة القائمة بشئونها

ومع هذا فسل الخبير بأحوالهم ينبئك عما ظهر لهم من النقص فيها
حتى بالنسبة الى غرضها الذى ترمى اليه مما أوجب كثرة الجرائم
والشروع فاهتدوا الى تعديلها بما يقربها من قوانين الشريعة الاسلامية
فاهتدت المانيا الى منع المضاربات الا على وجه مخصوص يقرب من

المعاملات الشرعية وانجلترا الى منع الزنا رسمياً الى آخر ما يعلمه
الباحثون عن أحوالهم
وقد عرفوا من أسرار الشريعة شيئاً كثيراً فاعترفوا لها في
مسألة تحريم الخنزير وتحريم الخمر والمقامرة والضرورة الى الطلاق
وكثرة الزواج

وان فرنسا لتئن الآن أنيناً شديداً مما عليه أبناءها كما أن
فلاسفة ألمانيا لهجون بذكر فوائد الاكثار من الزواج ويغبطون
المسلمين الذين يصيرون في زمان يسير ذوى عدد كثير بفضل كثرة
الزواج (مع ملاحظة أن الشريعة حددت لذلك حدوداً وشرطت له
شروطاً) وإذا كنت قد علمت أن الشريعة جاءت باحثة عن
السعادتين معرفة اياك كلا الطريقين كما قالت (وهديناه النجدين)
علمت أنه لا يمكننا أن نقارن بينها وبين القوانين الوضعية من حيث
البحث عن السعادة الروحية لانه مما انفردت به الشريعة المطهرة ،
وكان يكفينا ذلك فرقاً كبيراً بينهما خصوصاً بعد ما علمت رتبة
السعادة الروحية الانسانية الباقية من رتبة السعادة البدنية الحيوانية
الفانية وانما يمكننا أن نقارن بينها وبين هذه القوانين فيما اشترك فيه
من البحث عن السعادة البدنية

فاذا قارنا بينهما من تلك الوجهة بعد ما تقدم لك في هذا الموضوع
والذى قبله كان للشريعة القدح المعلى أيضاً فانها تردع النفوس عن
ارتكاب الشرور والقبايح كيف كانت وحيث كانت اذ جعلت عليها

رقيقاً من أعماق قلوبها يصيح بها زجراً ويملاًها رعباً عند ما تهم
بمعصية أو تتوق الى قبيح

لا فرق بين أن تكون وسط العواصم تشرتب اليها الاعناق
وترقبها العيون وبين أن تكون وسط الصحراء الكبرى حيث
لا انسان ولا ديوان لأنه استقر في قلبك أن الله رقيب عليك حينما
كنت (وأنه يعلم السر وأخفى)

وأما القوانين فلا يهملك أن تحافظ عليها متى وجدت الى ما تريد
سبيلاً ولم تخف شاهداً أو دليلاً ، ولا يسعنا الا ايجاز القول في هذا
الموضوع الواسع ، وسنعمل كتاباً نبين فيه بعض أسرار الشريعة فيما
جاءت به من الجزئيات والمسائل الكلية ونتكلم على القوانين الغربية
وعلى آراء الغربيين في الاخلاق والعادات وعلى ما قاله فلاسفتهم
بالنسبة الى الدين الاسلامى حتى تعرف أن الله جمع لك في تلك
الشريعة الغراء من الاسرار ما لم يهتدوا الى بعضه الا فى مئات من
السنين ، ولعلمهم فى كل قرن يهتدون الى جملة منها حتى يكون الدين
كله لله (وما اهتدوا الى ذلك الا بعد ان برحت بهم الحوادث
وأوجعتهم الكوارث) وقد منحك الله ذلك كله بغير تعب ولا نصب
ولكنك تأبى الا أن تسير سيرهم وتمرمرهم حتى تهتدى بعد كما
اهتدوا ، وليتك تتسائل عن آرائهم الاخيرة التى يصرخ بها أكابرهم
هناك حتى تستريح من ذلك العناء الذى لا تدرى أين يذهب بك
فقد رضيت لنفسك (والقضاء لا مرد له) أن تتلاشى أنت ولغتك

ودينك وعاداتك وجميع أحوالك في تقليدهم فيما يجارون منه في بلادهم
ولعلك قد عرفت من كلامنا في بعض المواضع مقدار مركزهم من الانسانية
الحقيقية، أرشدك الله الى دينك حتى تتعرف أسرارها ، وأودع فيك
الحجة له والغيرة عليه ، واللائحة من ان تتلاشى أمتك في غيرها وسدد
نظرك قبل ان يحل الصغار ويحقق الدمار

(الاسلام دين الرحمة والحكمة)

« لا دين القسوة والتعصب »

يحسن بناها هنا أن نورد لك هذه المقالة التي رددنا بها على من
طعن على الدين الاسلامي بأنه لا يعرف معنى العدل ولا يأمر بغير
القتل^١ لما فيها من الفوائد الجمّة وما لها من المناسبة التامة بهذا المقام وهذا انصها
خفف عليك أيها المسلم المشفق على دينه الخفيف دين
الفطرة ولا يهولك ان رماه أعداؤه بالتعصب وتقض العهد وابتاحه الظلم
وسفك الدماء الى آخر ما أملاه عليهم ضميرهم الممتلئ هوى وقلوبهم
المتقد حقدا على الاسلام والمسلمين

فأمر دينك بما له من القوة الذاتية والمتانة الطبيعية أجل من أن
تؤثر فيه هذه الترهات أو تطمس نوره الساطع غياهب تلك المفتريات
فدعهم يعوون خلف حصونه المنيعة ويستعوون من قلوبهم ممن لم
يعرف مكانهم من العلم ولا مكان الدين الاسلامي من مكارم الاخلاق
وسنورد عليك في مقالنا هذا من البراهين القاطعة والحجج الدامغة

ما ينطق بأنه الدين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
تنزيل من حكيم حميد

ثم تتبع ذلك بما اشتمل عليه من حكم سامية وأسرار عالية فلا
يسئلك طول البيان ولا كثرة ما تأتي به من برهان

فمن لي بمن يحرك احساس الحياء من نفوس أولئك المتفهمين حتى
يخجلوا من جهلهم وكذبهم على الدين أنه يبيح نقض العهود ولا يحترم
مبادئ العدالة ، وقد غاب عنهم أنه دين يقول كتابه المبين (ان الله
يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر
والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون) (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) ويقول
(الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً
فأتوا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين) (وان أحد من
المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) (يأيها
الذين آمنوا أوفوا بالعقود) (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق)
دين يقول نبيه صلى الله عليه وسلم (من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم
القيامة) وأظنك لا تجد من عبارات التحذير وقوارع الزجر أبلغ
من هذا

دين يقول خليفته أبو بكر الصديق فى كتاب لبعض عماله (عليكم
بالعدل وتباعدوا عن الجور ولا تغدروا ان عاهدتم ولا تنقضوا ان صالحتم)
الى آخر ما قال فى كتابه

دين يقول خليفته عمر بن الخطاب لبعض قواده (نحن منازل أصحابك

عن قرى أهل الصلح والذمة ولا يدخلها منهم الا من تثق به (ثم قال
في آخر كتابه (واعلم ان أشقى الرعاة من شقيت به رعيته)
دين يقول خليفته على بن أبي طالب للأشتر النخعي حين ولاد
على مصر (وان عقدت بينك وبين عدوك عقدة او البسته منك ذمة
فتمم عهدك بالوفاء ، وارع ذمتك بالامانة ، واجعل نفسك جنة دون
ما أعطيت ، فانه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد اجماعا عليه مع
تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعبود ، فلا تغدرن
بذمتك ، ولا تختلن عدوك ، وإياك والدماء وسفكها بغير حلها فانه ليس
شيء أدعى لبقية ولا أعظم لتبعة ولا أخرى بزوال نعمة وانقطاع مدة
من سفك الدماء بغير حقها)

وان تعجب بعد هذا فعجب قولهم أن دين الاسلام يبيح الظلم
ولا يعرف غير الايذاء وسفك الدماء بعد ما يقول كتابه الكريم
(وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب
الظالمين) (أنه لا يفلح الظالمون) (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولا
هم يستعقبون) وبعد ما يقول صلى الله عليه وسلم (الظلم ظلمات يوم
القيامة) ويقول (عقوبتان معجلتان في الدنيا الظلم وعقوق الوالدين)
فمن لى بمن يوصل الى نفوس أولئك المتعنتين ذلك العلم مكان تلك الجهالة
ان دين الاسلام يأمر بنبيه بالرحمة لكل شيء لا لخصوص النوع
الانسانى فقد قال صلى الله عليه وسلم (ارحموا من فى الأرض يرحمكم
من فى السماء ، وقال (فى كل كبد حرى صدقة) وكل حيوان فيه تلك

الكبد الحرى، وان دينا يقول دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي أطلقته لا يتصور فيه أن يأمر بسفك دم الانسان ظلما ونقض عهده حيفا مع مزيد حثه على الرفق بالحيوان الاعجم، فدين الاسلام دين لا يعرف القسوة ولا يأمر بغير الرحمة لكل ذى روح من الحيوان فضلا عن الانسان وهو القائل (ولقد كرمتنا بني آدم)

ولعمر الانصاف ان دينا هذا شأنه لجدير أن ترحب به النفوس وتتسع له الصدور حتى يدخل في شغافها ويستقر في أعماقها وفوق محل حياتها

وقد كان الواحد من المسلمين يعذب بكل أنواع التعذيب وتوقد له النار ليرمى فيها كي يرجع عن دينه فيأبى الا أن تخرج نفسه من بين جنبه ولا يخرج دينه من سويداء قلبه ويقول

ولست أبالي حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى وقد قال هرقل ملك الروم لأبى سفيان بن حرب حينما سأله عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (هل يرتد أحد منهم سخطا لدينه) فقال لا فقال هرقل (كذلك الدين اذا خالطت بشاشته القلوب) فهكذا كان الدين وهكذا كانت أربابه الذين عرفوا ما يدعوهم اليه مما كان لهم شفاء من أمراضهم وسعادة فى أنفسهم أحسوا بها أحساسا هون عليهم القتل دونه

دين يصدع بالحجة قبل كل شىء ولا ينخذل أمام برهان

دين يملك النفوس المنصفة بمجرد ما تعرف أصوله وتقف على مبادئه

دين يدعو الى كل خير ويأمر بكل فضيلة ويسوق الناس الى ما يوجب رفعتهم وينتهى بهم الى سعادتهم

نعم هذه قواعد المتينة وقوانينه الرفيعة وان أمره فوق هذا، فانه لما رأى الانسان كثيراً ما تلعب به الالهواء وتغلبه الشهوات وكان يمكنه أن يحافظ على ظاهر تلك القوانين ولا تقوم عليه حجة بعد المحافظة على أشباح هذه الرسوم مع ما له من القصد السيء فيما يأتي وينذر، فيكون ظالماً يلبس ياب العادلين ومدنساً يتسم بسيمى المتطهرين علم ذلك فعلمنا أن المحافظة على تلك الرسوم الظاهرة لا قيمة لها فى نظر الدين فقال « ان الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم » وقال (انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى) وقد قال تعالى (واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه) (ولكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم) وعلم صلى الله عليه وسلم أن الاشياء تتشابه فأمرنا بالاحتياط عند ذلك فقال « دع ما يريبك الى ما لا يريبك » وقال « الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » وقال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) (وأنه يعلم السر وأخفى)

فأنت ترى (وقد أفصح الصبح لذى عينين) أن الاسلام لا يريد من أبنائه الا الحق الصراح الذى لا يعتريه ريب والعدل الكامل الذى لا يشوبه ظلم ولا يبنى أموره الا على المصالح الحقيقية والحقائق الواقعية

وانى لأعجب كل العجب أن يوصم الاسلام بذلك الذى يرميه به أعداؤه وكتابه ينادى بأن الله يجازى على ما فى الضمير ويحاسب على الفتيل والنقير ، فما أدرى كيف صمت آذانهم عن سماع ندائه العالى وعميت أبصارهم عن رؤية شمسهِ المشرقة (ولكن هى الاهواء تعمى وتصم)

(الدين منبع السياسة الحقيقية والتربية الصحيحة)

ان مثلى وقد أردت أن أبين سعة نظر الدين وعظم سياسته وحسن تربيته وبيان أن ضرر التربية الحديثة أقرب من نفعها مع ما عليه المسلمون اليوم من ارتباك الأحوال واختلال أعمالهم لمثل رجل فقير اتضعت مكانته وسقطت من النفوس حرمة لكن كرم محتده وطاب منبته ، فاذا قام يفاخر الامراء والكبراء لم يخذلوا به ولم يصغوا اليه ورأوا أنه قد جاء شيئاً اداً (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا) قائلين لو كان آباؤه من العظماء الاجلاء لم يكن هو من الفقراء الاذلاء مقتفين فى هذه البرهنة نهج قريش حيث تقول فى حق الدين وأهله (لو كان خيراً ما سبقونا اليه) واذلم

يهتدوا به فسيقولون هذا افك تديم . ولكنى سأصدع بصريح الحق معتقداً أن في الأمة خيراً كثيراً بين أعماق قلوبها فأقول:

يظن فريق من الناس أن الدين يبين السياسة وأن كل متدين ساذج لا يدري كيف يعامل الناس على اختلاف طبقاتهم ولا يمكنه أن يدير شيئاً من الأشياء ولا أن يسوس أمة من الأمم بل ولا طائفة من الطوائف فتراهم إذا أرادوا أن يرموا أحداً بالبله أو الغفلة قالوا انه رجل صالح وأغناهم ذلك عن الاسهاب والاطناب ، وقد جهلوا أن سعة النظر واحكام التدبير وقوة الحزم وبالغ الحكمة ليست الا للمؤمنين الكاملين (المؤمن ينظر بنور الله)

وأن السياسة الحققة التي لا يلحقها شر ولا يخشى لها عاقبة انما هي سياسة الدين الذي أخرج الناس من الظلمات الى النور في كل شئ حتى أمكنه أن يقول (ما فرطنا في الكتاب من شئ)

نعم ان الدين لا يعرف سياسة المصالح الشخصية الا على وجه اندراجها في المصالح الكلية حتى لا يفرق الانسان بينه وبين غيره فيحب لأخيه ما يحب لنفسه ويعرف أنهم جميعاً كالبنيان يوهمه سقوط لبنة منه وانه لا ثبات له الا بأجزائه التي يشيد بعضها بعضاً كما أنه لا يعرف سياسته الكذب والخداع والنفاق الى غير ذلك مما يقتل الفضائل في النفوس ويجعلها ذئاباً وثعالب وأسوداً وعقارب فتموت الأمة بموت تلك الأخلاق وتترجى فيها ملكات الشر وصفات الخبث وتذهب منها الشفقة والرحمة والنخوة والمروءة وتحل محلها القسوة والشره

والتباغض والتحاسد فيما بين أفرادها أو فيما بينها وبين أمة أخرى مما يوجب الدمار وينهدم به بناء العمران عاجلاً أو آجلاً وتشقى به الأمم والأفراد جميعاً ، وليس يعلم ما تأتى به سياسة ساسة العالم من الشر المستطير الذى ستراه أو يراه أبناؤك إلا الله تعالى ، وأنها نفوس وحشية يضلها الشره فلا تبصر موضع الصواب ثم يسوقها الطمع الى حتفها وأن تملأ الدنيا ناراً والقلوب رعباً وتذهب بذلك سعادتها وسعادة غيرها ويضطرها هذا وذلك الى ضروب السياسة التى تسمعها من الغدر وعدم الوفاء والتلون بألوان الحرباء ، غير مبالين بظهور فضائحهم وكذب نصائحهم ، وكأنهم فسدت انسانياتهم وبقيت حيوانيتهم ، فما نتيجة سياستهم إلا شقاء حاضر ودمار منتظر

وانما الأمم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
تلك السياسة التى تمت الاخلاق وتحى النفاق وتذهب بالنعيم وتأتى بالعذاب الاليم حقاً ليس يعرفها الدين ولا يدير دفتها رجال المؤمنين

فسياسة السياسيين من أبناء الدنيا انما تدور على خدمة الشهوات والسعي وراء مطالبها على أى وجه وبأى وسيلة والغاية لديهم تبرر الاعمال (وان أغضبت الخالق وضج منها المخلوق)

وسياسة الدين تدور على مقاومة الشهوات ومصادمة الهوى فى كل ما ياباه العقل ولا ترضاه الفطرة فهي سياسة حكمية الهية ، وتلك

سياسة شهوية شيطانية ، فالدين لا يعرف الا السياسة التي تنتج الالفه والمحبة وتقدم العمران وتوجب الهناء الحقيقي والفوز السرمدى

يأمرك الدين باحترام ذوى المكانة من الناس والشفة على غيرهم وأن تكظم غيظك وتعفو عمن ظلمك من غير أن تكمن الحقد فى صدرك وتظهر خلاف ما تبطن

نعم يأمرك عند مقاومة عدوك أن تكون شجاعاً ، مقداماً ، بعيد النظر ، واسع السياسة ، متين التدبير ، معداً له كل ما تستطيع من قوة مبيحاً لك أن تخدعه بكل ما يمكنك وقد قال (الحرب خدعة) وليس ذلك قادحاً فى الفضيلة ولا طاعناً فى مكارم الاخلاق بل هو من أكبر الفضائل وأشرفها وهو الحزم والحكمة ، ولا تبعة عليك بعد أن آذنته بالحرب وانك ستفعل معه كل ما تصل اليه قدرتك وتديره

جاء الدين بالمداراة وجعلها من أوجب الواجب قال صلى الله عليه وسلم (أمرت بالمداواة كما أمرت بالفرائض) ولكن تداريه لأجل أن تدفع شره وتأمين مكره حيث لا تستطيع أن تقاومه

تداريه مداراة لا تضرب بحق ولا توقع فى باطل ، غير مبالغ مبالغة المنافقين ولا مسترسل استرسال الكذابين ، ولكنك تستعملها استعمال الدواء على قدر ما تحتاج اليه ، تفر بذلك من أن تشير شراً بلا فائدة تترتب عليه فتكون جاهلاً يقترب العيب ، وسفياً يخالف الحكمة حتى اذا خفت أن تعلوا دولة الباطل أمرك الدين أن تجاهر بالحق ولا تخشى فى الله لومة لائم

حظر عليك الدين أن تكذب ولكن أباح لك أن تستعمل التورية مكان الكذب كما قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي الذي سأله وهو يريد فتح مكة وكان لا يعرفه (نحن من ماء) وكان من دأبه صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يغزو جهة ورى بغيرها ، وكل ذلك محافظة على فضيلة الصدق وبقاء ملكته في النفوس

جاء الدين بطاعة المرءوسين للرؤساء كما قال تعالى (وأولى الأمر منكم) ومشاورة الرؤساء للمرءوسين (وشاورهم في الأمر) واحترام الطبقة الدنيا للطبقة العليا أنزل الناس منازلهم « كما جاء برحمة الأقوياء للضعفاء فعل كل ذلك كي تتم المحبة بين الجميع وتكون الروابط على أكمل وجوها جاء الدين بالتواضع وذم الكبر حتى جعله شركاً ولا شيء كما تعلم يخرج الصدور مثل الكبرياء

جاء الدين بالتعاون والاتحاد وطالب من كل أحد أن يعمل من الخير ما يعود على عشيرته وأمته فقال (على كل مسلم صدقة ، الأمر بالمعروف صدقة ، وإمالة الأذى عن الطريق صدقة ، وإعانة الرجل حتى يحمل على دابته صدقة ، وإسكامة الطيبة صدقة ، فمن لم يستطع فليكيف عن الشرف فهو له صدقة) وقد قال « يد الله مع الجماعة » وقال (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان) بحشاش الدين على خشونة الملبس والمأكل وعدم التغافل في الرفق والنعيم ويأخذ نفوسنا بعض الأخذ عن الدنيا حتى تتم الراحة وتأخذ الروح حظها من علمها ولا تكون من الدين (نسوا الله فأنساهم أنفسهم)

كى يمكنها أن تلتجىء إليه وتعمل فى كل أمورها عليه وأن تطفىء
ببرد هذا اليقين ما تأجج من نار ما يصيبها فى هذا العالم ولا تتفانى
فى لذائذه وشهواته التى تقطع الأرحام وتفكك أواصر المحبة وتقضى
على المصالح العامة وتقتصر النظر على المصالح الخاصة حتى اذا سمعت ممن
أصبح أسير اللذات وعبد الشهوات ما يعجبك فاعلم أنه قوال لأفعال
وأفعال شهوة كاذبة ان لم تكن لغرض سافل، وهبهات أن يقاوم مارسخ
لديه من محبه تلك اللذائذ وذلك النعيم الذى يسوقه اليه طبعه وتجذبه
اليه ملكته التى رباها فى نفسه طوعاً أو كرهاً (شأن الشهوات كلها
اذا تملكك النفوس واستولت على القلوب)

وانظر ان شئت فى عشاق الدخان الذى هو أقل اللذات بل
المعتادات كيف يحنون اليه ولا يصبرون عنه فضلاً عن غيره مما هو
أبهى وأشهى

هذا الترف هو الذى جعل الناس كلهم يتقلبون فى الشقاء وقلوبهم
تتقد حنقاً على القضاء وتكاد نفوسهم تميز لهفاً على مظاهر النعيم والملك
العظيم حتى الوزراء والملوك ، ولست أدري من ذلك المغبوط الذى
أدرك ذاك النعيم وذلك الملك الجسيم

فنتيجة الترف أن ترى الظواهر فى جنة عالية والقلوب فى نار
حامية مع أسلط تلك الملكات الرديئة على أربابها حتى تقهرهم على
محبة الذات وترك الواجبات فيصير كل منهم فرداً تقطعت الوصلة
بينه وبين غيره، ان لم يكن عدوه المبين الذى يقطع دونه سبل المنافع

ويسد أمامه وجوه الخير والنجاح (نتيجة طبيعية لمحبة الذات وتربية ملكة الشهوة) فضلاً عما يحدثه الرفه ونعموة العيش من الجبن والخور وضعف العزيمة والاخلاد الى ما لا ينبغي الا للنساء فلا يستطيع أن يقاوم عدواً مهاجماً اذ لا تساعد نفسه الشحيحة بالحياة ولا جسمه الذى له تلك الواجبات المحترمة والقوانين المقدسة

وليس يغيب عنك ما فعلته العرب فى الحرب الطرابلسية من الافاعيل بفضل شجاعتهم وخشونة عيشهم وتربيتهم البدوية وصيانة بلادهم ممن يفسدها بذلك الترف الذى أفسدنا وقضى على شجاعتنا وكل سعادتنا ولا ندرى الى أى حد يصل بنا بعد أن جعل الوزير يئن والامير يتأوه وصاحب الالوف من الفدادين يتدلل للمرابين ويبيت يفكر فيما عليه من الديون

هذا وأرجوك أن تنظر نظرة بسيطة بعد ما تقدم فيما تأتى به التربية الحديثة من التفريق بين المرء وذويه، ودخوله فى كل ما لا يعنيه وغرس رذيلة القسوة، واماتة المروءة والهمة والشفقة حتى على أخيه وأبيه مع ما كان بيننا فى العهد السابق من التراحم والتآلف والمروءة وحمل بعضنا أثقال بعض وتعاوننا فى كل شدة ومهمة الى غير ذلك مما يرشدك اليه انصافك ان لم يغلبك هواك

فالخلاصة أن التربية على غير مبادئ الدين ترمي بالانسان فى هوة لا يستطيع منها مفراً ولا يجد فيها مستقراً ، فان سنع له من نتوء تلك الهوة ما يضع عليه احدى رجليه زلقت به الاخرى فموى أبعد

مما كان ، واذا تنسم بعض النسيم الذى يصل اليها أحياناً لم يلبث أن يزول ذلك عنه ، ثم يختنق بهوائها الفاسد ولا يزال كذلك يعانى صنوف العذاب (يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) حتى يذهب الى حيث شاء الله أو يعمد الى الانتحار تخلصاً من ذلك الشقاء كي يصل الى مركز يستقر فيه وما هو بواصل اليه (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً)

لا يجد من نور اليقين ما يتسع به صدره فيهبون عليه أمره وتستقر روحه فى مركزها الذى تحن اليه من عالمها الأعلى فتزل عليها السكينة وتحفها الطمانينة فتعيش هادية مهدية وراضية مرضية بل أخذته الدنيا فلم تدع منه شيئاً حتى مات أسيراً فى يديها وهو متلف عليها فهو معها (كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه) وهى معه (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً) فضاع منه نصيب قلبه وبدنه جميعاً وناهيك قول الله تعالى (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى) وأما تربية الدين فهى التربية التى يعيش بها الانسان هادئاً مطمئناً يتبادل الصفاء والهناء هو وأخوانه المؤمنون قد اتحدت مبادئهم فلم تختلف أهواؤهم ولم تتباين آراؤهم (كحالنا اليوم) فضلاً عما له من السعادة الروحية التى هى أصفى وأرفع من السعادة البدنية وأما غيره فليس له من تلك اللذة شئ لأنه مشغول عنها منكس

القلب نحو العالم الأدنى

وليتك تصدق أن المؤمن يجد من لذة الأكل والشرب وهبوب
النسيم وأزهار الرياض ونفحات الطيور ما لا يجده غيره لأن له نصيباً
روحانياً لا يعرفه غير أهله

ولعلك بكلامنا هذا يهيج منك خالص الإيمان ويتحرك لديك
صادق الوجدان فتفهم ما يشير إليه قوله تعالى في حق الكفار
(يا كلون كما تأكل الانعام)

وان كنت لا تتذكر تلك اللذة الروحانية التي كانت لك زمن
الصحة وسلامة الفطرة عند ما يهب نسيم الاصيل أو يفوح شذى
الأزهار أو يشرق نور الصباح وما كنت تجده اذ ذاك مما يكاد يسرك
بخمرة ذلك الجمال حتى يجعلك مبهوتاً مستغرق القلب لا على النحو
الذي تعرفه الآن مما يجعلك تتحرك وتفكر، بل مما يلقي عليك سباتاً
لذيذاً يملأ القلب نوراً ويفيض الدمع سروراً

فحرك من نفسك ذلك الشوق فعسى ألا تكون قد بطلت منك
غريزته والا فلا تحكم على غيرك حكماً جائراً (ولا تقف ما ليس لك
به علم أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)

(أحاديث نبوية)

« في مكارم الاخلاق »

قد رأيت هاهنا أن أورد لك جملة من الاحاديث النبوية وشيئاً
مما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى تتحقق أنه قد بعث ليعم

مكارم الأخلاق وأنه أرسل رحمة للعالمين وحتى تقتدى به في بعض ما كان عليه فقد قال تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) فعسى أن يتحرك بذلك منك احترام دينك ومحبة نبيك فتنتفع بذلك في الدنيا والآخرة . وقد سمعت بعض الناس يقول ان من العار والشرار ألا يدرس فن الأخلاق في الأزهر ولا يعرفه أهله فأجبتهم أن لنا فيما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم لغنى عن كل شئ وأن أهل الدين يعرفون من أسرار الأخلاق وطبائع النفوس ما لا يعرفه غيرهم ، ولو قدر لسواهم أن يطلعوا علي ما جاء في الدين الاسلامي من مكارم الأخلاق وما يغرسه من الكمال في النفوس لا لغرض ولا غاية لم يرموه بما رموه به ، غير أني معك على أن المسلمين اليوم أبعد الناس عن الاتصاف بها وان جاء دينهم الحنيف آمراً بها حاثاً عليها حتى جعلها الغاية التي لم يرد سواها

وها أنا ذا أجاو عليك من حكم ذلك الدين ما يكون تبصرة وذكرى لأولى الأبواب فأقول

قال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح ومطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه ، ثلاث منجيات ، خشية الله في السر والعلانية والقصص في الغنى والفقر والعدل في الرضا والغضب ، الاقتصاد وحسن السمات والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة ، علو الهمة من الايمان ، ان الله يحب الرفق في الأمر كله ، الذنب لا ينسى والبر لا يبلى والدين لا يموت فكن كما شئت فكما تدين تدان ،

أحب الاعمال الى الله تعالى أدومها وان قل ، اذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين وألممه رشده ، اذا رأيت أمتي تهيب الظالم أن تقول له انك ظالم فقد تودع منهم ، اذا غضب أحدكم فليسكت ، استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود ، استنزلوا الرزق بالصدقة ، أشكر الناس لله أشكرهم للناس ، ان الله تعالى لا ينظر الى صوركم وأموالكم وانما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم ، انما الصبر عند الصدمة الاولى ، ان أشد الناس ندامة يوم القيامة رجل باع آخرته بدنيا غيره ، ان من كنوز البر كتمان المصائب ، الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة ، والتودد الى الناس نصف العقل وحسن السؤال نصف العلم ، بروا آباءكم تبركم أبناؤكم وعفوا عن النساء تعف نساؤكم ، من اتصل اليه فلم يقبل لا يرد علي الحوض يوم القيامة ، تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، تعلموا ما شئتم أن تعلموا فان ينفعكم الله حتى تعملوا بما تعلمون ، حصنوا أموالكم بالزكاة وادوا مرضاكم بالصدقة ، الحياء خير كله ، خير الامور أوسطها ، الدال على الخير كفاعله ، ان الله يحب اغاثة الالفان ، رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم ، الرجل على دين خليفه فلينظر أحدكم من يخالل ، السعيد من وعظ بغيره ، صنائع المعروف تقي مصارع السوء وصدقة السر تطفئ غضب الرب وصلة الرحم تزيد في العمر ، الظلم ظلمات يوم القيامة ، عند الله خزائن الخير والشر مفاتيحها الرجال ،

فلو لم يكن جعابه الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر وويل لمن جعله
مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير ، التمناعة مال لا ينفد وكنز لا ينفى ، الكيس
من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى
على الله الامانى ، ليس الشديد من غلب الناس انما الشديد من غلب
نفسه ، ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويأمر بالمعروف
وينهى عن المنكر ، ما أسر عبد سريرة الا ألبسه الله رداءها ان خيراً
فخير وان شراً فشر ، ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا عال
من اقتصد ، ما زاد الله عبداً بعفة الا عزاً وما تواضع أحد لله الا
رفعه ، مداراة الناس صدقة ، ملاك الدين الورع ، من أرضى الناس
بسخط الله وكاله الله اليهم ومن أرضى الله بسخط الناس كفاه
الله شرهم ، من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، المجاهد من جاهد
نفسه وهواه ، المستشار مؤتمن فاذا استشير فليشر بما هو صانع لنفسه
المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى
الله عنه ، لا تنزع الرحمة الا من شقى ، لا خير فى صحبة من لا يرى
لك مثل ما ترى له ، لا يغنى حذر من قدر ، آية المنافق ثلاث اذا
حدث كذب واذا وعد أخلف واذا اؤتمن خان ، أبلغوا حاجة من
لا يستطيع ابلاغها فمن أبلغ ساطاناً حاجة من لا يستطيع ابلاغ حاجته ثبت
الله تعالى قدميه على الصراط يوم القيامة ، اتقوا دعوة المظلوم وان كان
كافراً فانه ليس بينها وبين الله حجاب ، اجعلوا بينكم وبين الحرام
سترأ من الخلال ومن لم يفعل ذلك كان كالراعي حول الحمى يوشك

أن يقع فيه ، أحب الجهاد الى الله تعالى كلمة حق تقال لأمام جائر ،
إذا أناكم كريم قوم فأكرموه ، إذا التقى المسلمان فسلم أحدهما على
صاحبه كان أحبهما الى الله أحسنهما بشراً ، إذا خفيت الخطيئة فلا
تضر الا صاحبها وإذا ظهرت فلم تغير ضرت العامة ، أربع من كن فيه
حرمه الله تعالى على النار وعصمه من الشيطان من ملك نفسه حين
يرغب وحين يرهب وحين يشتهى وحين يغضب ، أرحموا ترحموا
واغفروا يغفر لكم ، أستم وليحسن خلقك للناس ، أفضل الاعمال بعد
الايمان بالله التودد للناس ، أفضل الايمان الصبر والسماحة ، ألقوا الدخول
على الاغنياء فانه احرى الا تزددوا نعم الله عليكم ، أكثر خطايا ابن
آدم في لسانه ، أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً فيما
لا يعنيه ، ان الله تعالى أوحى الي ان تواضعوا ولا يبع بعضكم على بعض
ان الله تعالى خلق الخلق حتى اذا فرغ من خلقه قامت الرحم فقال له
فقلت هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال نعم أما ترضين أن أصل
من وصلك وأقطع من قطعك قالت بلى رضيت يارب قال فذلك لك ،
ان الله لا يحب المذاحش المتفحش ، ان الله يتلى العبد فيما أعطاه فان رضى
بما قسم الله له بورك له فيه وان لم يرض لم يبارك فيه ولم يزد على ما كتب
له ، ان الله عفوي يحب العفو ، ان الله تعالى يبغض كل عالم بالدنيا جاهل
بالآخرة ، ان الله تعالى يحب معالي الامور ويكره سفاهتها ، ان الله تعالى
يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس في الدنيا ، ان الامير اذا ابتغى الريبة
في الناس أفسدهم ، الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولخاصة

المسلمين وعامتهم ، ان الشيطان نال لسان كذذب الغنم ياخذ الشاة القاصية فاذاكم والشعاب وعليكم بالجمعة والعمرة والمسجد ، ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك ان يعمهم الله بعقاب منه ، ان أبر البر ان يصل الرجل أهل وراثته بعده ، ان حقا على المؤمنين ان يتوجع بعضهم لبعض كما يألم الجسد اذا تألم عضو منه ، ان شر الناس منزلة يوم القيامة من يخاف الناس من شره ، ان الله ما أخذ وله ما أعطى وكل شئ عنده بأجل مسمى ، ان لكل شئ توبة الا صاحب سوء الخلق فانه لا يتوب من ذنب الا وقع في شر منه ، انكم لا تسعون الناس باموالكم ولكن يسعون منكم بسط الوجه وحسن الخلق ، أهل الجور وأعوانهم في النار ، أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة فان صلحت صلح له سائر أعماله وان فسدت فسدت له سائر أعماله ، الا أدلكم على أشدكم ؟ أملككم لنفسه عند الغضب ، الا يارب مكرم لنفسه وهو لها مهين الا يارب مهين لنفسه وهو لها مكرم الا وان الجنة حفت بالكاره وان النار حفت بالشهوات الا يارب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا ، أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فهي نعمة من الله عليه فان قابلها بالشكر والا كانت حجة من الله عليه ليزداد اثما ويزداد الله عليه بها سخطا ، أيما راع غش رعيته فهو في النار ، أيما وال ولي شيئا من أمرا متي فلم ينصح لهم كنصيحته لنفسه كبه الله تعالى على وجهه يوم القيامة في النار ، كفى بالمرء علما ان يخشى الله وكفى بالمرء جهلا أن يعجب بنفسه ، كف شرك عن الناس فانها صدقة منك على نفسك ، كم من جار متعلق

بجاره يوم القيامة يقول يا رب هذا أغلق بابي دوني فمنع معروفه عنى ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت

(ذكر شىء من شمائله صلى الله عليه وسلم)

كان أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس ، كان أصبر الناس ، على أذى الناس ، كان أبغض الأخلاق إليه الكذب ، كان اذا اطعم على أحد من أهل بيته كذب كذبة لم يزل معرضا عنه حتى يحدث توبة ، كان اذا رفع بصره الى السماء قال يا مصرف القلوب ثبت قلبى على طاعتك ، كان اذا مشى لم يلتفت ، كان أكثر أيمانه لا ومصرف القلوب (أى لما يعلم من سرعة تقلب القلب وعدم ثباته على حال واحد كما قال ان القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن فكان يغلب عليه هذا المشهد صلى الله عليه وسلم) كان خلقه القرآن (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون) الخ ، كان طويل الصمت قليل الضحك ، كان أسمح الناس وأطيبهم نفسا ، كان يقول للخادم ألك حاجة ، كان لا يضحك الا تبسما ، كان لا يواجه أحدا بشىء يكرهه ، كان يأتى ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم ، كان يقبل بوجهه وحديثه على شر القوم يتألفه بذلك ، كان يكثر الذكر ويقل اللغو ويطول الصلاة ويقصر الخطبة وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين

والعبد حتى يقضي له حاجته ، كان أحلم الناس وأعدل الناس وأعف الناس لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه ، كان أشد الناس تواضعا وأسكنهم في غير كبر وأبلغهم في غير تطويل وأحسنهم بشرا لا يهوله شيء من أمور الدنيا ، كان يجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويكرم أهل الفضل ويتألف أهل الشرف ويصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم ، لا يجفو على أحد ، يقبل معذرة المعتذر إليه ، كان يمزح ولا يقول إلا حقا ، يضحك من غير قهقهة ، يرى اللعب المباح فلا ينكره ، كان لا يمضى له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد منه من صلاح نفسه ، لا يحتقر مسكينا لفقره وزمانته ، ولا يهاب ملكا لملكه ، كان لا ينتقم لشيء صنع قط إلا أن تنتهك حرمة الله ، وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرها إلا أن يكون فيه اثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس عنه ، وما كان يأتيه أحد حرا أو عبدا أو أمة إلا قام معه في حاجته ، كان لا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ، كان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا وكان أرف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس ولم تكن ترفع في مجلسه الأصوات ، كان أجود الناس كفا وأوسع الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشيرة من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله ، كان يقول لا يبلغني أحد منكم شيئا أكرهه فإني أحب أن أخرج اليكم وأنا

سليم الصدر ، كان يسأل الناس عما في الناس ويحسن الحسن ويقويه
ويقبح القبيح ويوهيه ، كان دائم البشر في جلسائه سهل الخلق لين
الجانب ليس بفظ ولا غليظ ، كان لا يذم أحداً ولا يتطلب عوراته ،
كان اذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤسهم الطير واذا سكث
تكلموا ، كان لا يغضبه شيء ، الى آخر شمائله الرفيعة صلى الله عليه وسلم
(آيات من القرآن العزيز)

هذا ما أردنا أن نسوقه اليك مما كان عليه صلى الله عليه وسلم
من محاسن الشيم (ولا بأس أن نورد لك من القرآن العزيز ما يذكر
بما فيه من الحكم والمواعظ وضروب السياسات وفنون التعليمات والدعوة
الى مكارم الاخلاق حتى تعلم حقاً أنه الكتاب الذي من عمل به نجا
ومن تمسك به عصم ولعل كثيراً من شباننا لم يسمع تلك الآيات أو لم
يلتفت اليها في عمره وسيعجب كل العجب من غفلة أو غفلة المسلمين عنها
وهي في كتابهم وبين أيديهم فنقول قال الله تعالى (خذ العفو وأمر
بالعرف وأعرض عن الجاهلين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا
تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في
الارض ان الله لا يحب المفسدين ، أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن
المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور ولا تصعر خدك
للناس ولا تمش في الأرض مرحاً ان الله لا يحب كل مختال فخور ، وجزاء
سيئة سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فأجره على الله ، ولا تجعل يدك مغلولة

الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ، ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ، وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ، من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ، ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه والى الله المصير ، توبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ، أطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وأصبروا ان الله مع الصابرين ، لا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، ولا تقرّبوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا ، ولا تقرّبوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن ، وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا ، وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واستعينوا بالصبر والصلاة واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ، ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ، وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، ولا تتبعوا

خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ، ولا تكونوا كالذين نسوا الله
فأنساهم أنفسهم ، واتقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا
أن الله شديد العقاب ، فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ، كونوا
قوامين بالقيسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ،
وايخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله
وليقلوا قولا سديدا ، يأبها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، يأبها الذين آمنوا
اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ، يأبها الذين
آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ،
يأبها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، يأبها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم
ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فلأنه كهم الخاسرون ،
يأبها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه
ولا خلة ولا شفاعة ، يأبها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم
لا يآلؤنكم خبالا ، يأبها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم
لما يحبيكم واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون ، يأبها
الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، يأبها
الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن أن بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا
يغتب بعضكم بعضا ، يأبها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبى ، فتبينوا ،

(أوصاف المتقين)

الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن
الناس الصابرين والصادقين واتقائين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار
وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون
قالوا سلاما ، ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا
فإذا هم مبصرون ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم
ينفقون ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما
والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ، والذين إذا ذكروا
بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم
راعون ، والذين هم بشهاداتهم قائمون ، أشداء على الكفار رحماء بينهم ،
لا يخافون لومة لائم ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ،

(أوصاف المنافقين)

يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ،
يحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون
الناس ولا يذكرن الله إلا قليلا ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون ،
مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وإذا قيل لهم لا تفسدوا
فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا أنهم هم المفسدون ولكن
لا يشعرون وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم
خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب

بما أشركوا بالله إلى آخر ما جاء في أوصافهم ويكفيك من السور مجيء في تلك السورة (والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ومن الآيات قوله تعالى (من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)

إلى غير ذلك مما جاء في الكتاب العزيز مما عرفه العلماء واعترف له الحكماء ، وبالجملة (فهو للذين آمنوا هدى ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد)

فقل لنفسك واخوانك (تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) وقل لمن غاب عليهم الجهل وأحاطت بهم الشقوة (يا قوم اعملوا على مكاتبكم انا عاملون وانتظروا انا منتظرون واتعلمن نبأ بعد حين)

(عجيب أن يعادوه في بلادهم ويدعونا اليه ههنا)

أردنا أن نذكر لك هنا هذه المقالة التي نشرت في بعض الصحف لما لها من العلاقة بهذا الموضوع وإليك نصها :

ثارت ثائرة المسلمين من جراء تأليب المسيحيين (نصراء العدل والانسانية) ضد انتشار الاسلام طمعا في أن يوقفوا سيره السريع وتقدمه المدهش على حين أن لا مرسل يبشر به ولا قوة تعضده ولا مال ينفق عليه بل لا مدافع يرد هجمات أعدائه عنه ولا ناصر ينصره امام الصائلين عليه

دهش المسلمون لذلك الاجتماع الذي كان بمدينة لندره (أكبر مدن العالم علاقة بالمسلمين) عقد ذلك الاجتماع للمفاوضة في الوسائل التي توقفت سير الاسلام وتكفل تقدم المسيحية مما يخيّل للانسان أنهم أشربوا في قلوبهم حب التوراة والانجيل فاذا نظر في أحوالهم ذهب به العجب كل مذهب حيث يرى أنهم طاردوا رجال الكهنوت ، طاردة العدو اللدود الذي يريد أن يذهب بسعادة البلاد وتقدم أهلها ويوقف عقبة كؤودا في طريق كل خير وفلاح ، وكان لهم الحق فيما فعلوه فان رجال الكهنوت طالما قرروا أن العلم عدو الدين ، بل اذا نظرت في التاريخ واطلعت على ما كانت تفعله محكمة التفتيش في كل من يدور بنفسه رأى أو يتحرك في رأسه فكر من مصادرة الاموال وازهاق النفوس بأفطع الوسائل (الاحراق بالنار) مما لا محل للافاضة فيه علمت أن محاربة رجال هذا شأنهم لمن أوجب الواجبات وأول الضروريات ، وقد أدرك العلم تأثره فقام أبناؤه يطاردون رجال الكنيسة بكل الوسائل مستهزئين بما كان لهم من سخافات وجبالات مبهجين بما وصلوا اليه من التخلص من أغلال الكهنوت الى باحات العلم وحرية الفكر ، حتى تعدوا في ذلك حدود الآداب اذ جاءوا بأحدى بنات باريس وسموها العذراء وذهبوا بها الى الكنيسة وفعلوا هناك ما أرادوا أن يمثلوا به شعورهم نحو الدين وتعانيه المقدسة

رجعوا الى الانجيل فنظروا فيه وما لبثوا أن أهملوا تعاليمه وكانوا أول المجافين له والناقضين عليه رأوه يقول أن الغنى لا يدخل ملكوت

الله وأن دخول الجمل في ثم الخياط أيسر من دخول الاغنياء في رحمة الله فعلموا أن في ذلك تأخيرهم واضمحلالهم وظهور الامم عليهم فنبذوه وراء ظهورهم ، وعملوا بقول القرآن (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) وبقوله صلى الله عليه وسلم (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)

رأوا الانجيل يقول من لطمتك على خدك الايمن فأدر له خدك الأيسر وعلموا أن في ذلك الذل الابدى والشقاء السرمدى فضلاعن مضادته لمقتضى الطباع البشرية فأهملوه ، وعملوا بقول القرآن (من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وبقوله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)

رفع دينهم مقام أبناء الكنيسة عن درجة البشر وقال لهم ما حلتهموه في الارض فهو محلول في السماء وما ربطتموه في الارض فهو مربوط في السماء فأروا أنه لا معنى لهذه الميزة مع كون الكل من بنى نوع واحد فمالوا الى ما جاء به الاسلام من تعظيم أمر العقل الانسانى وعقد المساواة بين جميع أفراد البشر ومطالبة الجميع بالتفكير والتدبر ،

سوى الاسلام بين الناس جميعا حيث يقول (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) عظم أمر العقل حتى قال (ان الله يقول للعقل ما خلقت خلقا أعز علي منك) وتراد يوجب من لم يستعمل عقله بمثل قوله (أولم يتفكروا) (أولم ينظروا) الى غير ذلك وهو كثير ، لم يرفع من شأن

الرؤساء الدينيين حتي يستبدوا بالرأى وينفردوا بالسلطة بل أمراً كبيرهم وهو (سيدنا محمد) صلى الله عليه وسلم أن يشرك غيره معه اعترافاً بحق العقل واحتراماً للمواهب النوع الانسانى فقال (وشاورهم في الأمر)
رأوا ذلك الذى جاء به الاسلام أولى بيني الانسان وأبعد عن الاستبداد وتقييد العقول بما يقضى عليها فساروا على نهجه وتركوا نهج الانجيل الذى لا يفهمون له معنى ولا يعقلون له سرا

جاء الانجيل بالزهادة فى الدنيا وحبب الى الناس اعتزالها بأبلغ ما يكون وأقصى ما يتصور ودعاهم الى الرهبانية وسكنى الصوامع ، فرأوا أن ذلك قاض على سعادتهم موجب للدمار وخراب الديار فى القريب العاجل ، فعدلوا عنه عدول الصحيح عن مكان العدو المهلكة الى ما جاء به الدين الحمدي الذى يقول (لا رهبانية فى الاسلام) وقد سرى ذلك الشعور حتى الى قسيسهم فأصبحوا يديرون المدارس والمستشفيات ويحررون المجلات ويشاركون الناس فى كل ما هم فيه ، ولو شئنا أن نعدد ما خالفوا فيه دينهم ووافقوا فيه الدين الاسلامي علما بأنه الطريق الى سعادتهم لآتعبنا القارىء وأملنا السامع لكثرة ما جاء فى الدين الاسلامي الذى عرفوا أنه دين المدنية والعمران فارتقوا بفضل تعاليمه التى أشرقت عليهم شمسها من سماء الاندلس على يد المسلمين الفاتحين ، فلم يرتفعوا الى أوج العز الذى نراهم به اليوم الا عند ما هجروا دينهم وتقرّبوا من ديننا ، كما اننا لم نهبط الى حضيض الذل الا من يوم فارقنا ارشاده العظيم وطريقه القويم فلم نعمل بما ندبنا اليه

وحضنا عليه وأما هم فاجابوا داعي الله وتفكروا وتدبروا فسادوا وأفلحوا
حيث تمسكوا بما حض عليه القرآن في مثل قوله (ان في خلق السموات
والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الابصار) (أو لم ينظروا
في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء) ففتحوا أبصارهم
للفلكيات والجويات وعلوم النبات والحيوان وغير ذلك ، تمسكوا بهذا
الاصل الاسلامي وأهملوا أصلهم المشهور (الدين عدو العلم) وكأننا
تبادلنا واجبات الاعمال الدينية فعملنا بمقتضى المسيحية وعملوا بمقتضى
الاسلام . رأوا القرآن يبالغ في أمر الحيوان ويرفع من شأنه حتى قال
(وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم)
وقص علينا في النمل ما لفت نظر الباحثين هناك الى أمر الحيوانات حتى
أصبحوا ولديهم من العلماء من يقدر شأن القرآن كل التقدير
رأوا القرآن يقول (وأنبتنا فيهما من كل زوج بهيج) فبحثوا عن
ذلك حتى عرفوا ان في كل نبات ذكر وأنثى وأمسوا ولهم الايادي
البيضاء في علم النبات ، رأوا القرآن يقول (وأرسلنا الرياح تلقح
فبحثوا عن ذلك (منذ عهد قريب) حتى علموا ان الرياح تلقح
أنواع المزروعات خصوصا الاشجار الكبيرة ، نظروا الى ما جاء في
القرآن من مكارم الاخلاق وعلم الاجتماع وأنواع السياسة وشرح أحوال
النفوس فأصبحوا به فلاسفة في كل ذلك ، وان علماءهم يشهدون للقرآن
أكبر شهادة لما يكتشفون من أسرار السامية وعلومه الجملة كل يوم مما

عرضنا لذكر شيء منه في بعض مقالاتنا ولعلنا نتعرض له في مقالات
ضافية اذا سحت الفرصة

فما بالهم (وقد تركوا دينهم وما سعدوا الا بديننا) يشنون الغارة
الشعواء عليه اليوم ، هل يجازى المحسن بغير الاحسان ، أم يليق طمس
الحقائق الناصعة ممن يزعمون أنهم أكابر بني الانسان؟؟ أليس ذلك شأن
الغاصب المستبد الذي يغتصب المال ثم يتبجح بغناه على صاحبه معيرا
اياه بالفقر والمسكنة ، هل هذا شأن الكريم الذي يأبى أن يقابل الاحسان
بالاساءة ، هل هذا شأن الحر الذي لا يرضى ان يجازى المعروف الا بالمعروف

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى

وكم علمته نظم القوافى فلما قال قافية هجانى

أيها القوم ان العصر عصر علم ونور وحرية واستقلال فلا تطمعوا
فى غير مطمع ولا تنزعوا الى شر منزع فالحقائق ليس يطمسها التاريخ
وان طمستموها ، والشموس لا تؤثر فيها الترهات وان موهتموها ،
والتفنن فى الوسائل المختلفة لا ينفع امام العيان ، والقوة لاسلطان لها
على القلوب التى لا تدعن الا للبرهان

(قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم
ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين)

(أسباب الشقاء التى يجب البعد عنها)

هى أشياء كثيرة غير انا نعد لك منها أهمها التعرفك به أو نلفت

من نظرك اليه فنقول أهمها الترف انذى أجا ذويه الى اكتساب المال من غير وجوهه المشروعة واضطروهم الى اللد فى تحصيله حتى يتوصلوا الى ما يريدون من زخرف باطل، ونعيم كاذب . وأما منبه خلق المروءة والمواساة، لان ذلك من فضل المال ولا فضل عندهم، ومنها الاسراف وعدم الاقتصاد وهو نتيجة الترف ولكنه قد يكون ناشئ عن ضعف الرأى وعدم الحكمة فى التصرف فيكون بلا ترف ولا فائدة أصلا ويلتحق بالعبثيات الصرفة ، وبودى أن تعتنى الحكومة بأمرهم فتشفق عليهم اشفاق الاولياء الرحماء على الأبناء الضعفاء فتضع فى أعناقهم سلاسل الحجر حتى لا يتصرفوا على مقتضى نزعات الاهواء واشارة الشهوات بلا عقل ولا بصيرة ، ولا غرو فهم من السفه بالمكان الأول وأحسب ان هذا أعظم دواء للأمة تداوى به أدواؤها المالية فكم من سفه لم يحجر عليه ولم يلتفت اليه حتى كادت تذهب ثروة الامة وهناؤها بفضل ذلك السفه وغفلة الحكومة عنه، ومنها عدم تنظيم الأوقات وصرف الكثير منها فى غير ما ينفع ، وعلى الانسان أن يعمل لنفسه نظاما يتبعه ولا يحيد عنه فى كل شىء ولا يصدق نفسه فى أنها غنية عن النظام وليست تفعل الا اللائق أو اللازم فانها جاهلة أو خداعة تهوى الاطلاق وتفر من التقييد وان كان فيه صلاح حالها ، والانسان طويل العمر جدا اذا كان من العاملين، وما أظهر له أنه قصير العمر وأذهب حياته بلا فائدة الا عدم التزامه نفسه قانونا مخصوصا حتى ضاعت أوقاته واختلت أعماله، ومنها الا اكتفاء بالعلم فى تهذيب النفوس

وعدم تعويدها الفضائل : والعلم قليل الجدوى في ذلك كما علمت، ومنها عدم غرس الدين في نفوس المشرك على ما يجب وعدم تمرينهم على مناجاة فيه وتركهم للتعاليم المدرسية أو ترك ولاية الأمور الاهتمام بذلك وليس هناك شيء يردع النفوس عن التقيح ويأخذ بها عن شهواتها ويوصل بها الى كمالها مثل الدين وقد تقدم لك ما يكفيك ومنها عدم رياضة النفس واشعارها بالفضائل بالمطالعة في كتب الدين والاخلاق أنا فآنا (فان النفوس تحتاج في حفظ صحتها الى الرياضة بذلك العلم كما تحتاج الأبدان الى الرياضة المعروفة) وعدم تحريك الاحساس الديني فيها من وقت الى وقت حتى ضعف في أغلب الناس أو كاد يقضى عليه بالكلية (والغفلة والنسيان من طبع الانسان) واذا استمر القلب على التوجه الى وجهة واحدة كاد يجهل ما عداها أو يعلمه علما لا يترتب عليه أثر (وتعهّد النفوس في رياضتها يجب أن يكون قبل تعهّد الأجسام) ومنها انكار الروحانيات وقصور النظر على الطبيعيات وهو أساس الشقاء وسبب البلاء

وقد جاء ذلك من البعد عن علوم الدين وما ورد فيه ومن تقليد الغربيين الذين لا يعرفون غير علوم الأجسام لانها وجهتهم (ولكل وجهة هو موليها)

ولهذا أكثرنا لك من الكلام على الروح واثباتها وخصائصها حتى ترق عنك تلك الغشاوات وترجع الى دينك وما جاء فيه ومن المصائب الكبرى التي تعوقك عن كل خير وتسوقك الى

كل شر أن تفهم أنك قد وصلت الى كل شيء وأن لا شيء وراء ما علمت

ومنها عدم ملاحظة استعداد النشء فكثيرا ما يكون الولد قوى البنية ميالا للحركة تتبعه الاعمال الفكرية (لأنه لم يخلق لها) ويرتاح للاعمال البدنية ولو اشتغل بها لكان له نتيجة حسنة تعود عليه وعلى الناس فيسعد في نفسه وتسعد به أمتة ولكن والده تحمله الأنفة أو المحافظة على أن يكون مثله بل الجهل وعدم التبصر أن لا يعلمه ما هو مستعد له من الصنائع والاعمال فتراه يرسله الى الأزهر أو المدارس طمعا في الشرف الرفيع والمستقبل الباهر فيقهره على غير ما خلق له فلا يزال يعاني مشاق الحياة الجلوسية ومتاعب الأعمال العقلية حتى يغلبه استعداده أخيرا (وقد فات زمن التعليم) فيشقى شقاء طويلا وتفقد الأمة عضوا من أعضائها كانت تنتفع به لو لم يكن أشل أو مجزما يخاف على جسمها منه ، ولو تبصر الناس ولا حظوا ذلك وهو أصل كبير في التربية وأرسلوا الى التجارة من يصلح لها والى الصناعة من يميل اليها على اختلاف أنواعها والى العلم من خلق له لأتوا للرقى من بابها وللسعادة من أقرب طرقها .

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

(غلطات ينبغي التنبيه لها)

هي أكثر من أن تحصى ونذكر لك منها ما عن لنا في الوقت

ولعله من أهمها أو مما يلتحق بأسباب الشقاء وربما دل عليه ما تقدم
بالإلتزام ولكننا لا نكتفى بالدلالة الإلتزامية علما بخطورة الموضوع
واهتماما بكثرة النصيحة للمسلمين فنقول

منها ما يقع بين العلماء قديما وحديثا من كثرة الخلاف وولوعهم
بالجدل والتوسع في التقييل والقال انقيادا لخلق طبيعي في النفوس
وهو حب الترفع والعلو والانفراد بالكمال أو السبق فيه والافتقار من الغلبة
والخذلان فترى الواحد منهم يجادل ويناضل ويفرغ كل ما في وسعه
مستشعرا لذة الانتصار خائفا من عار التأخر في ميدان المنازعة، وكثيرا
ما يكون ذلك حجابا عن الحقيقة وصارفا للقلب الى نحو ما يقهر الخصم
لا ما يظهر الحق وربما كان الخلاف لفظيا ولكن حجبهم عن ذلك
طلب التقدم والتفوق على الاقران وفي بعض المواضع يكون الكلام
في حقيقة تعلو عن الافهام فيطول النزاع فيها سيرا مع الخيالات
والأوهام وهو شقاء للعلماء والمتعلمين والعلوم جميعا وطالما ترتب عليه
أضرار كثيرة وستسمع أكثر من ذلك في هذا الموضوع مع ذكر أمثلة
له إن شاء الله تعالى .

ومنها اعتقاد ان التربية هي تعليم العلوم التي تدرس في الأزهر أو
في المدارس بدون تربية ملكة الدين القويم والأخلاق الفاضلة التي
هي التربية الحقيقية لا مازعموه

ومنها عدم معرفة الشريعة وأسرارها وتربية ملكتها في القلوب
حتى خالفوها في أعمالهم وأحوالهم فشقوا في الدنيا والآخرة ، وما من إنسان

اتبع هواه ولم يتقيد بأوامر الشريعة التي أنزلها الحكيم العليم الا ضل في سيره وشقى ماديا وأديا وان كان أذى الأذى كياء وأعظم المفكرين وانظر الى أمتنا المصرية ان شئت تجد أسعدها أبلدها وأشقىها أذكاهما وما ذاك الا لكثرة تصرفه على غير ما جاءت به الشريعة الغراء (والذكي كثير القلب ولوالى موجبات شقائه)

ومنها التزام طريقة واحدة في تأليف الكتب وعدم تقريبها بالتسهيل والايضاح على حسب ما يناسب كل جيل وكل زمان حتى سدت طرق العلم الصحيح في وجوه من يريدونه ومن وصل منهم الى شيء فقلما يصل الا الى قشره ، بعيدا عن لبه وروحه ، فلو أزيلت التشكيكات والخلافات وانمحي التعقيد وحجب الاصطلاحات التي ما أنزل الله بها من سلطان لعرف المسلمون كثيرا من أسرار دينهم ولكانوا الى السعادة القصوى أسرع منهم الى الضلالة اليوم

ومنها عدم التفرقة بين الرقى الحسى والرقى المعنوى واعتقاد أن صاحب الرقى الأول هو صاحب الرقى الثانى ، ومن هنا قلدنا أوربا فى كل شيء ، ولو أمعنا النظر لعرفنا اننا فرطنا كل التفريط فى تقليدها فى الصناعة والتجارة وأسباب الثروة كما أفرطنا كل الافراط فى تقليدنا اياها فى الاخلاق والعادات على حين أن الواجب عكس ذلك الذى فعلناه فانه لا شعور أرقى من الشعور العربى ولا عاطفة أسمى من العاطفة الشرقية (وخصوصا الاسلامية) التى تتم بها الانسانية الحقيقية

فانظر ان شئت الى اكرام الضيف والغيرة على الحرم وصلة

الأرحام والمروءة والنجدة (لا فى نظيره مقابل) مما لا يوجد بأتم معانيه
الافى الشرقين، وان شئت فالتفت الى ما يكون منهم من كثرة
المبرة والصدقات ، وأما أوربا فى هذا الباب فقد نزع منى الرحمة
والحنان حتى على بنائهم وأخواتهم فضلا عن بقية بنى الانسان
خصوصا على الشعوب الاجنبية ، وحوادث التاريخ أكبر
برهان على ذلك فلا تراهم يفكرون فى غير سياسة التغالب لا بتلاع
الشعوب الضعيفة بالطرق المختلفة . وسر ذلك انه غلبت عليهم محبة
المصالح الشخصية وانحصر الكمال عندهم فى الكمال المادى (وما
تسمعه عنهم مما يخالف ذلك فهو من السياسة أيضا) فان شئت فقلدهم
جهدك فى الحسيات وتباعد عنهم ما استطعت فى المعنويات والعادات ،
وهل أتاك نبا الذين يلقون بأنفسهم فى البحر كل ليلة قبل طلوع الفجر
طلبا للراحة من الجوع على مرأى ومسمع من القوم هناك بلا رحمة
تعطفهم عليهم (ولو باقراضهم بعض النقود بلا فائدة)

ومنها عدم تنمية الثروة التى هى مناط القوة وأساس السعادة
ووسيلة اصلاح الدين والدنيا باهمالنا طرق المكاسب من التجارات
وتأليف الشركات التى يستفيد منها أغنيائنا الذين لا يدرون كيف
يستعملون الاموال وينتفع بها فقراؤنا الذين لا يعرفون كيف يطرقون
أبواب العمل فكانت النتيجة أن انحطت الامة بفقرائها وأغنيائها، وناهيك
أن ما تعلم من كثرة أرباب الشهادات الذين يطلبون ان يزج بهم فى سجون
الوظائف الصغيرة التى يكتنفها الذل ويحيط بها الشقاء ومع هذا فلا يجدون

اليها سبيلا، فلو انفتحت الشركات المختلفة كما تفعل الامم الاخرى لفتح من
أبواب الارتزاق وينايع الثروة ما يصلح حال الامة ويرتقى بها الى
شأو بعيد في مضمار الحياة في أمد قريب

ومنها عدم تعليم الصنائع المختلفة التي يتقدم بها العمران وتم بها
القوة، وما أصبحت أوربا سيدة أم الدنيا الا بالبراعة في الصناعات
وفنون الاختراعات التي صيرت الامم امامها عزلا بلا سلاح، وجدير
بالمسلمين أن يعلموا ان ذلك مما جاء به الدين الخفيف وحث عليه بل
جعل من فروض الكفاية التي يأثم الجميع بتركها وقد نص العلماء على
ان الاشتغال بكل ما يحتاج اليه فرض كفاية فاذا خلا البلد من
حجام مثلا كانوا آثمين جميعا لتركهم ذلك الواجب . فلا بدع ان يكون
المسلمون آثمين اذا لم يكن لديهم من الاسلحة الجديدة وكل ما يحتاجون
اليه في عصرهم هذا من الوسائل المختلفة ما يدفعون به عدوهم ويصلون
به الى سعادتهم، ألا وأن الدين يؤثمهم باحتياجهم الى الابرّة فضلا عما
يتوقف عليه حفظ دينهم واصلاح دنياهم، فليعلموا ان ذلك من الدين
وان كلما يتوقف عليه الواجب فهو واجب

ومنها تضييع الامة لفضلائها حتى يمتتوا ما توفد من ذكائهم ونشاطهم
فيحرموا خالص نصائحهم وباهر أعمالهم وآرائهم وينتهي الامر بقتل
عاطفة محبة الامة من نفوسهم ويأسهم من فلاحها، ومنها عدم التحري
في اسناد الوظائف الى أربابها واعطائها لغير مستحقها اعتمادا على
شهادات مدرسية عالية (كما يزعمون) من غير أن يسألوا عن سيرة

الرجل وما يملك نفسه من الاميال والعواطف وما يترفع به عن ارتكاب
الدنايا من كريم الاحساس ويسوقه الى طالب معالى الامور من
شريف الوجدان .

وبودى ان يتمتعوه من حيث لا يشعروا تلك العواطف التى ترتبط
برقى الأمة وسعادتها أشد الارتباط كما يتمتعونه فى تلك العلوم المدرسية
ومنها ضعف احترام الرؤساء السياسيين والدينيين علو ما كان
يجب ، وشدة الولوع بكثرة الخلاف والنزاع (وكل ما زاد عن حده التحق
بضده) مما فرق الآراء وباين بين الاهواء فلم تتحد كلمتهم على الحقيقة
وان اتحدت فى ظاهر الأمر ، فذهبت وحدتهم وبذهاب وحدتهم تذهب
قوتهم لا محالة ، وليس كل فرد أهلا للرأى بل من الواجب كما يقول
بعض الحكماء تقليد فريق من الناس لغيرهم ، ولأن يجتمعوا على ضعف
من الرأى خير من أن يتفرقوا على صواب فيه ، وان اجلال صغار
المسلمين لأكابرهم فيما مضى لهو الذى كان يمسك بنفوسهم وقت
الشدة فيجعلها كالحلقات التى تكون سلسلة واحدة تجاذبت أجزاؤها
وتكهربت حلقاتها فبأقل حركة تكون فى بعض أطرافها يتحرك الجميع
حركة واحدة لا تتميز ابعاضها فى أسرع ما يكون وعلى أتم ما يتصور .
ومنها الاقبال على العلوم النظرية أزيد مما يجب لها دون العملية
التي هى أهم بكثير لامتنا المصرية

ومنها ان فريقا منا اذا وجد من له نبوغ فى فن من الفنون وأصبح
معجبا به قلده فى كل شئ وكأنه يسرى الى وهمه ان ذلك العظيم

لا يفهم الا حق، ولا يقول الا صواباً ومن هذا قلد كثير منا عظماء علماء
أوربا اعتماداً على ما لهم من حسن الصيت ورفعة المنزلة عند الناس في كل
شيء حتى في الالهيّات والنبوات مع كونهم من علماء الطبيعة أو غيرها من
الحسيّات، ولو تبصر أولئك المقلدون من أبنائنا اعرفوا ان العقل ليس له الا
وجهة واحدة متى توجه لشيء أتقنه كل الاتقان ولكنه لا يكاد يعرف
موضع الحق فيما سواه وان كان من أظهر الاشياء عند ذويه، فليس من
الرأى أن تسأل الخليل بن أحمد وهو واضع علم العروض وصاحب أوزان
الشعر عن موازين الحرارة أو ثقل الهواء ولا ان تسأل سيوبه وهو أعرف
الناس بما اعتل من الافعال النحوية وما صح منها عن علل الاجسام وصحتها
ومنها ما يقع للناس من الاشتباه في الأخلاق الفاضلة لعدم وقوفهم
على حقائقها وعسر معرفة الاوساط التي هي الفضائل، أو لعدم صبرهم
عليها فيميلون تارة الى الافراط وتارة الى التفريط، ثم منهم بعد ذلك
من يقرب من نقطة الوسط ومنهم من يكون في نهاية البعد عنها فتكون
رذيلته من أقبح الرذائل لما فيها من مزيد التفريط أو شدة الافراط،
فمن ذلك ما نجده في بعض الناس من البخل وهو يعتقد أنه من المقتصدين
فيرى ذلك حزمًا وحكمة غافلاً عن كون الاقتصاد هو الوقوف عند
نقطة الوسط بين التقثير والتبذير وهو الكرم بعينه، فليس معنى الاقتصاد
أن تكون ممسكاً للمال حريصاً عليه، بل معناه ألا تصرف المال في غير
ما ينبغي صرفه فيه حتى تكون مبذراً ولا تمتنع من بذله فيما يجب مما
تقتضيه المروءة وتحث عليه الشريعة من اكرام الضيف ومواساة الجيران

ومعونة الاخوان مما يفضل عن حاجتك، وليس معنى الاقتصاد ان تمت
مرءتك، ولا تؤدى ما طلب منك فان هذا العمرك هو البخل بعينه
ولكن نفسك مغالطة لك أو شهوتك حاكمة عليك

ومن ذاك ما عمت به البلوى من اماتة خلق الحياء من نفوس
النشء، وغرس الاخلاق الرديئة فيها من الوقاحة والبذاءة والخروج
عن الآداب الشرعية والعرفية وضعف الاحساس بها، وكثيرا
ما تسمعهم يقولون يجب ان نربيهم على الحرية والشجاعة والصراحة
لاعلى الخمول والضعف والجبن (كلمة حق أريد بها باطل) فقضوا بذلك
على أشرف الخصال وأكرم الأخلاق الذى هو زمام النفوس عن
ارتكاب كل ما يشينها حتى اذا ذهب منها لم تتخرج عن منكر ولم
تبال بقبیح فيصير صاحبها ممقوتا عند الناس يحذرونه حذرهم للأفاعى
ويكرهونه كراحتهم للأوبئة القتالة

فلا والله ما فى العيش خير ولا الدنيا اذا ذهب الحياء

اذا ما المرء كان بلا حياء تقلب فى القبيح كما يشاء

نعم نربيهم على الشجاعة بحيث لا ترعجهم الاوهام ولا تخيفهم
الخيالات ولا يجبنون عن طلب ما لهم من الحقوق ولا تضطرب أعصابهم
عند مقابلة الكبراء ومخاطبة الامراء لا بان يخرجوا عن الآداب فى
حركاتهم وأفعالهم وأقوالهم حتى مع آبائهم كما رأينا، ومعلوم أن
النفوس أميل الى الرذائل وأنها تكره التقيد حتى بالآداب والشرائع

فلا بد من الضغط عليها حتى لا تسترسل مع ما تهواه استرسل الحيوان
غير المروض ، وخصوصا النشء الذين لا تقوى عقولهم على نفوسهم ، والا
فقد أفسدت ذوقهم وأمت احساس الآداب من نفوسهم فكنت مسئولا
لدى الله والناس ولعلك تلاقى من ضرر ما صنعت مع بنيك بعد
ما يجعلك تندم ندامة الكسبي لما رأت عيناه ما صنعت يداه

ومن ذلك اشتباه العزة بالكبر وليست العزة الا ان تترفع عن
الدنيا ولا تذلل لاحد من أجل شهواتك وأغراضك لا ان تترفع على
الناس تبها وعجبا وتدع الآداب والواجبات وحسن المعاملة مع الناس ، وقد
رأينا من يقابل الناس بالانفة والكبرياء وينقبض في وجوههم انقباض
البخيل في وجه قاصده ، وينظر اليهم نظر السيد الذي برئت منه الرقة
وأحاطت به الغلظة الى عبده الضعيف ، وكأنه بتلك الوظيفة أو الرتبة الوهمية
أصبح من أفراد نوع آخر ، ولكنه أمام الرؤساء والكبراء ينزل من
سواء هذا الترفع الى أرض التملق وحضيض النفاق مما دل على ان طبعه
من ألأم الطباع ونفسه من أصغر النفوس ، وأما صاحب العزة فينما
تراه يلاطف الصغير ويجالس الفقير ، قدامتلاً رحمة وعظماً ، وحناناً ولطفاً
اذ تراه كبيراً في مجالس الكبراء ، وعظيماً في محافل العظماء ، يديه على
الوزير ، ويصدع بالحق بين يدي الأمير ، لا يكتر من الزيارات ، ولا
ينحضع للإشارات ، ولا يذل للغايات ، فإياك أن ترميه بالكبر الذي هو
أبغض الأخلق عند الله فإنه صاحب العزة التي هي من أشرف المزايا
وأعظم مكارم الأخلق ، ولهذا جعلها الله من أوصاف المؤمنين فقال

(والله العزة والرسولة والاموؤمين) مع كونه يقول (انه لا يحب المستكبرين) الى غير ذلك من الأخلاق التي تشبه فضائلها برذائلها لدى كثير من الناس قابوا الحقائق وسموا الاشياء بغير أسامها وهو كثير جدا في عصرنا هذا

تشكل فينا كل شيء بشكل ما يباينه والناس عنه نيام

(كلمة عن العلماء)

نذكر لك هنا ما وعدناك به فيما سبق فلعلك متشوق اليه فنقول أن الانسان يحب أن يعلم كل شيء وتتا لم نفسه من الجبل بأى شيء وتأبى أن تتصف به متى استطاعت الى ذلك سبيلاً فان لم يساعدها العقل على ذلك وقوفاً عند حده وتخرجوا عن أن يتقفوا ما ليس له به علم حركت منها تلك الشهوة الغريزية الاوهام وهيجت الخيالات حتى تروى غلتها مما يرجع به الوهم من الماء الآسن ويأتى به الخيال من الملح الاجاج حيث لم تجد العذب الفرات

فلهذا تجد العلماء يخوضون في كل شيء ولعله مما لا تصل اليه العقول فيكثرون فيه القول أخذاً ورداً واستحساناً وتقداً، وكلما أوغلوا بوادى الخلاف في البحث عن الحقيقة أسرعوا في السير عنها (لا اليها) فمن ذلك ما أطلوا به من أن الصفة عين أو غير وأن ماوردهن اثبات اليد والوجه ونحوهما له تعالى يجب تأويله وارجاعه للقدرة

والذات أوجب أن نعتقد أن لله يداً لا كالأيدى وهى غير القدرة
ووجهاً لا كالوجوه وهو غير الذات وما يذكرونه من التأويل عند
الخلف والتفويض عند السلف فى مثل ذلك، وليت شعري هل عرفوا
كنه الذات حتى يعرفوا كنه الصفات وهل تعرف الصفات أو يحكم
عليها بدون أن تعرف الذات التى وجبت تلك الصفات لها بها اقتضاء
ذاتها وهل إذا أولوا اليد بالقدرة عرفوا أياها وأوصلوا إليها

كلا بل لا يمكننا أن نعرف كنه صفاته تعالى أصلاً فإن القدرة
التي يقع فى نفسك أنك تعرفها والارادة التي يخيّل لك أنك عالم بها
انما هى القدرة الحادثة والارادة الحادثة فان ظننت أنه يريد على نحو
ما تريد أو يسمع على نحو ما تسمع أو يبصر على نحو ما تبصر فقد
جهلت أو كفرت

فاذاً لا فرق بين أن تؤول اليد مثلاً أو لا تؤولها، بل يمكنك أن
تقول أن كل ما ورد من الصفات فهو من المتشابه عندنا بحيث لا يمكننا
الوصول الى كنه معناه وانما نعرف ما هو من لوازمه وخصائصه لا غير
ولا يصح أن تقيسه على ما نعلمه من نفسنا فانه قياس مع الفارق

وبالجملة فلا يمكننا أن نعرف ماهى الصفات ولا كيف يتصف بها
بل ولا ماهى حقيقة الافعال ولا كيف يفعلها مادامت الذات التي هى
مصدر الصفات التي هى مصدر الافعال مجهولة لنا، وأنبالاً لوهية تحت
حجاب العزة ذاتاً وصفة وفعلاً تجل عن أن تشبه شيئاً أو تقاس على
شئ أو تصل عقول مخلوقاتنا إليها بوجه من الوجوه، فرتبهم الآثار

لا تتخطاها عقولهم ولا تتجاوزها أفهامهم الا الى الحيرة في عظمة
مبدعها وجلال خالقها لا أن يعرفوه أو يصفوه (سبحان ربك رب
العرزة عما يصفون) وستأتى لهذا الموضوع تمة بعد ان شاء الله تعالى
ومن ذلك ما ملأوا به الدفاتر وأنفدوا فيه المحابر من الخلاف
في رؤيته تعالى ما بين مانع يرى انها تستلزم الحيز واللون والمقدار وغير
ذلك من صفات الاجسام، ومجيز يرى أن الله على كل شىء قدير
فيعارضه الآخر بان الرؤية على غير ذلك الوجه من المحال وقدرة الله
لا تتعلق بالمحال الى آخر ما قيل ويقال

ولو دققوا النظر لعلموا أننا لا نعرف غير أحكام هذا العالم الجثمانى
وأما ما فوقه من العوالم فله أحكام أخرى لا نعرفها ما لم نصل اليه
(ومن الجهل الفاحش ان نحكم على عالم باحكام عالم آخر) ولكن
يمكننا أن تقرب الامر الى العقول فنذكرها بما سبق لنا من أن الروح
تحت نواميس أخرى غير تلك النواميس الطبيعية فلها أحكام أخرى
غير تلك الاحكام الجثمانية وأنها ليست خاضعة لسلطان النواميس
الطبيعية فهي تؤثر فى الاشياء بلا مماسة ولا مجاورة وترى الاشياء بلا
شرط من الشروط فهي ترى ما يكون أمامها كما ترى ما يكون وراءها
وما يكون قريبا كما يكون بعيدا ويمكنها ان تتراعى المعانى كما تتراعى
الأجسام لما بينها وبين المعانى من المناسبة فى اللطافة فليست المعانى
أرق منها ولا عالمها فوق عالمها

فاذا يمكننا أن نقول أن سلطان الروح فى الدار الأخرى فوق

سلطان الجسم (عكس الدنيا) فتظهر مقتضياته هناك وتخفى مقتضيات
الاجسام وتكون الأحكام السائدة هناك هي أحكام الارواح
لا الاشباح

واذا كنت قد علمت أنها في رؤيتها وجميع أفعالها على غير
قوانين الاجسام علمت ان هذه الشروط وتلك التقييدات التي تعرفها
انما هي للأجسام فلا يمكن حقيقة أن تقع الرؤية في عالم الاجسام بدونها
واما الحكم على الروح بها فهو حكم فاسد وقياس كاسد ، وأظن أن المقام
قد أحاط به من الضياء ما تزول به ظلمة الخفاء غير أني خائف من
بعض الناظرين أن يكون ممن يحرفون الحكم عن موضعه فيتمسك بما
عسى أن يكون من كلمة خفية ويدع كلمات واضحة ثم يرميني بغير
ما قصدت وينسب لي اغير ما أردت وربما لم يحيط به خبرا فلم يستطع
عليه صبرا ولم يعرف له قدرا

على انه لو كان من ذوى العلم الواسع والنظر الشاسع وغلب عليه
الانصاف وجانبه التعصب والاعتساف لوجدلى من علو المقام عذرا فلم
يوسعني نكرا ولفرح بما ذللناه له من بدائع الاسرار وأنزلناه اليه من
روائع الأنوار

(بيان السبب في أن الدين لا يؤبه له ولا يرتفع صوته)

ما ذا على أن لا أكتمك ما في نفسي وان كنت أعلم أنه سيحول
بين كثير من الناس وبين ما أقول صبغة نفسه التي أحاطت به من كل

جهاته ولكنى سأحيلك على ما تعلم وما على بعد
وأنى ومحبتى للحق وشفقتى على أبناء المسلمين لست ممن يتحيز
للعلماء أو يقدسهم في كل ما يأتون ويذرون ولكن ليس من العدل أن
تنسى ما لهم لعظيم ما عليهم
وأياك أن تفهم أنى ممن ينتم على تعلم العلوم الحديثة والصنائع الجميلة
والمخترعات الجديدة مما يقدم العمران ويزيد المسلمين ثروة وقوة ويؤثرونهم
من خوف ويرفعهم من ضعة
واسكنى أريد أن يكون تعليم أبناء المسلمين على نحو ما أرسمه لك
فى الكلام على العلم والتعليم بعد وهالك ما أريد أن أوجه نظرك إليه الآن
تعلم أن النفوس تنفر بطبعها من كل ما يصادمها فى أميالها فهى
لا تريد أن تجعل هواها تابعا للحق بل أن يكون الحق تابعا لهواها
(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فىهن) ولا
تستعد لقبول الحق الصراح حتى تطهر من كل ما علق بها وتتخلص
من سلاسل الشهوات التى تجذبها نحو مطلوبها شاءت أم أبت وحتى
تكون مذعنة لأحكام العقل الصرفة طالبة وجهة الصواب غير سالكة
سبيل العناد ودون ذلك ما لاقى الانبياء وعانى الحكماء
وان رأيت من خلا من الأهواء وتطهر من أدناس التعصب والعناد
فلا تجده فى الغالب الا خياليا تعلو الحقائق عن متناول ادراكه فهو
الى الخيالات الروائية أميل منه الى الحقائق البرهانية لانها أقرب الى
استعداده وألذ فى وجدانه خصوصا من لم يعود نفسه البحث والتنقيب

ولم يغرس فيها ملكة الصبر على الكد في تمحيص الحق ودحض
الباطل ، فهو انما يطالع الكتب تفكها وتلذذا لا طلباً للحق (الذى
يشتاق اليه ويؤمله ضميره من أجله وتطيل معه نفسه الحديث فيه)
وان غالب المصريين من هذا القليل ويعجبنى قول بعضهم ان الجدل
لا تهضمه معدة أكثر المصريين

وهذا ما قعد بكثير من الفضلاء عن تدوين معلوماتهم وبث
معارفهم مبهوتين بما يرونه من صولة المبطلين ودولة الجاهلين مغمضين
العين على القذى والخلق على الشجى عالمين أن هذا دور من الادوار التي
تعتري الامم وان أمتنا فى أثناء تلك الحركة القسرية لم تستقر بعد
فالتيار لا يقاوم والعواصف شديدة لا تصادم ، موقنين أنهم لو
أبرزوا للناس كتابا ينطق بالحق لكان عليهم طامة كبرى وداهية
عظمى ، وظهر بين تلك الامة بأبشع المظاهر وأقبح المناظر والأمر
فوضى والدين عدل به عن سنه وتحكمت فيه الآراء ولعبت به الالهواء
وقامت قائمة الشهوات التي لا يناعها شيء الا حطمتها ، وكان من قدر
الله أن قوى برهانها وعز سلطانها بما أتيح لها من الحرية غير المشروعة
والترية الجديدة التي ليس أساسها الدين ولا رائدها التبصر ، ولا
وجهتها غير مطالب الاجسام ، وليس هناك مرجع يعترف له الجميع ،
ولا حظر فى قول على قائل ، ولا أحد يحس بالجهل الذى هو فيه ،
ولا غاية للخيال الذى يستمد منه

فاذا قام من يصيح بالناس (أن تعالوا أتلى ما حرم ربكم عليكم)

هب في وجهه زعانف القوم وأراذلهم يحقرون من أمره ويخفضون من قدره يصدون عن سبيل الله (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)
(شأن المصري الذي لا يعمل ولا يشجع عاملا)

فإن قابلهم بما يستمد من بحر الحقائق قابله بما يستمدون من بحر
الأوهام والخيالات، ولا غاية لهذا ولا ذاك (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء
من عطاء ربك) وأمتنا الآن (إلا الذين أخلصوا دينهم لله وقليل
ما هم) على ما يعتقد أولئك الزعانف بفضل تلك التربية الجديدة التي لم
تدع رذيلة من رذائل الغربيين ولم تستبق فضيلة من فضائل الشرقيين
وربما رماه أولئك النفر بأنه أول الضالين وأكبر المبطلين

يارب جوهر علم لو أبوح به لقليل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولا ستحل رجال المسلمين دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا
ومما يجعل المسلم يعرض على يديه أسفا ويكاد يمتزغيطا أن الجانب
يعملون على تنصير المسلمين بالوسائل المختلفة من المدارس والمستشفيات
وارسال المبشرين الى كل أنحاء المعمورة

وأما نحن فبدلاً من أن تقوم بالواجب علينا أزاء ذلك حماية دينية
أو غير وطنية فانا نعمل على اقتلاع أصول الدين من النفوس وغرس
جنود الاتحاد في القلوب

وترى أولئك النفر اذا سمعوا ان امرأة تنبأت بأوروبا لم ينبسوا
بينت شفة ولم ينبض فيهم عرق لتكذيب ما سمعوا، بل يتساءلون عن
أخبارها العجيبة (وأنبياءها الصادقة) !!

ولو سمعوا أن بعض المسلمين قد وصل الى درجة الكشف
وظهرت فيه خاصة من خصائص روحه التي شرحناها فيما سبق وأثبتها
ابن خلدون في مقدمته (حتى للكينة من الكفار) قامت قيامة الحادهم
وهدرت شقشقة علومهم وعنادهم

فلهذا سكت أهل الحق فلم يسمع لهم صوت ولم يظهر لهم اسم فيما
بين الكاتبين والمتقدمين صيانة لأعمالهم من العبث ونفوسهم مما عسى
أن يحقق بهم ، منتظرين للدين فرجا قريبا ونصرا مؤزرا وأن يثوب
الى الأمة رشدها ومحبتها لدينها وثقتها التي كانت لها بعلمائها الكاملين
وان كانوا قليلين حتى تحترمهم احترام الطبيب في طبه والحقوقى في
قانونه (وما ذلك على الله بعزيز)

وفى الناس فريق آخر قد جمدوا على ما ورثوه وليس يمكن تقويم
اعوجاجهم واذابة جمودهم الا بتحليل كيماوى عظيم يتناصر فيه العالم
والحاكم ، وأنا لنا باقتلاع تلك الجذور التي نفذت الى اعماق النفوس منذ
آماد طويلة تسقيها الاوهام وتتميتها الالهواء ويدافع عنها العامة ، وكثير
ممن تزيا بزى الخاصة ، لا شك أن الامر يكون أبعد منالا من الثريا
وأصعب من اقتلاع شم الجبال ،

ومن البلية زجر من لا يرعوى عن غيه وخطاب من لا يفهم
ولا تظن أنى أريد ان لا أخطئ العلماء فيما فعلوه ولا أوجب
عليهم واجبات كان ينبغي أن يتعاونوا عليها ويتحدوا جميعا فى الوصول
اليها ولكن أريد أن أشرح أمرهم حتى تعرف سرهم وجهرهم ،

وسيمر بك مقال مفرد في العالم وما يجب أن يكون عليه من الواجبات وما ينبغي أن يتصف به من الكمالات .

(بيان الواجب في هذا الموضوع)

﴿ على الأمة عموما وعلى مشيخة الازهر خصوصا ﴾

ما أجدر مشيخة الازهر وأرقتها بالمسلمين وأهداها الى موضع الضعف منهم لو عنيت بهذا الموضوع (وهو أول ما يعنى به) وما أرشد الحكومة وأعناها بحاجة الأمة لو ذلت العقبات في ذلك السبيل فاخترت من أفاضل العلماء من يكون أوسعهم نظرا وأقواهم حجة وأعرفهم بحال معاصريهم حتى يشخصوا الداء ويصفوا الدواء ، ثم تخصصهم بأمر الدين وبيان ما يرمى اليه من روح السعادة ومكارم الاخلاق وتحبيب أبنائه فيه والخوض بهم في كل ما يقع فيه الاشتباه أو تذكرة الجرائد أو المجلات عن أعداء الدين أو جهالة المسلمين ، ويكون من أعمال أولئك المختارين اصدار مجلة علمية دينية تأخذ الناس الى سعادتهم من حيث يعرفون لا من حيث يجهلون ، ومن حيث يأنسون لا من حيث ينفرون ، مع ايداع ذلك من روح العلم وسر الدين ولب الحق ما يأتي على أصول أمراضهم ويذهب بأسباب الشقاء من نفوسهم ، شأن الطبيب الحاذق الذي لا تنسيه شدة المرض ولا شغفه بمقاومته أن يلاطف المريض ، ولا تمنعه ملاطفة المريض أن يضع له الادوية الحادة الفعالة فيما يستطيعه ولا يستثبته ، ويسير به في سبيل نجاته من حيث

يشعروا ولا يشعروا ، فتكون تلك اللجنة هي مرجع الامة في كل شأن من شئون دينهم ، اليها القول الفصل ، ولديها الحكم العدل ، بالادلة المقنعة والبراهين القاطعة ، حتى تجبز بذلك على تلك الفوضى الدينية التي هي أضر الاشياء وأس كل بلاء

هذا وعلى الامة أن تعرف لذلك مكانه من الرشد والحكمة ومنزلته من حاجتها اليه واستفادته منه

ان الامة كثيراً ما نراها تسخو انفوسها بالمبالغ الطائفة وتقف الاواقف الجملة على ما لا قيمة له في نظر العقلاء ، وليس له من الفائدة التي يعتد بها الا ما يمليه عليها الجليل أو يحركه الغرض من وهم كاذب وخيال باطل ، فلو عنيت بأمر دينها عنايتها ببعض تلك الشئون فاختارت من فضلائها من تثق بهم فخصتهم بما يرفع شأنها ويعز به دينها ، فيظهر ما فيه من الحكمة والاسرار ، وما انطوى عليه من الفضائل ومكارم الاخلاق مما يورثهم حياة جديدة يعود اليهم فيها مجدهم الاول ، ويزوقون فيها معنى الاخلاص في العمل ، ويتمتعون فيها بحلاوة الصدق والمحبة والاتحاد ، ويذهب عنهم هذا التفرق الذي أوهن عزائمهم وفكك روابطهم ، فترجع اليهم تلك القلوب التي لا تخاف غير الله ، ولا تخشى غير الله فيسرى فيها روح التوحيد الذي لا يبقى معه شيء من ضعة الهمة وسفاسف الاخلاق ، وقد قال تعالى في حق غير الموحدين (سألني في قلوب الذين كفروا الرعب بما اشركوا بالله)

ومن ذلك تعرف ما يكون في قلب الموحد من الشجاعة والثبات واليقين ، لو أرشدت الامة الى ذلك وعسى أن يكون قد حان وقت رشدها لوجدت من علمائها وفضلائها ما تقر به عينها ويجذبها الى سعادتها من أعماق نفوسها لا من أطراف جسومها ، ولرات من مزايا دينها ما يقوم به أودها ، ولعرفت من حقائقه الناصعة ما تطمئن اليه وتبتهج به ،

ان الامة كثيراً ما تلقى التبعة على كواهل العلماء وترى أن من الواجب عليهم أن يفعلوا ما يفعله المبشرون ولو مع أبناء المسلمين وفي بلادهم دون البلاد الاجنبية ، ويرون أن ذلك أول واجب عليهم ولو أنصفوهم لعرفوا أن عليهم من المسؤولية ما لا يقل عن مسؤولية العلماء ، عليهم ان يشجعوهم فيما يراد منهم ويزيل ما ينغص عليهم عيشهم ويفرق عليهم قلوبهم ، حتى اذا لم تقم الحكومة (ولها العذر) بما كان يجب عليها من تأليف تلك اللجنة قامت الامة وهي أعلم بأمراضها وأدري بمواقع الداء منها ، فاختارت من ترتضيهم لذلك وفصلتهم عن كل علاقة لهم بالحكومة (ولا نجاح لعمل لا يكون أساسه الحرية) فرتبت لهم المرتبات الكافية وطالبتهم بما تريد منهم نحن لا نريد من الامة أن تسمح بما تسمح به أوروبا وأمريكا لمبشرية ولا معشار عشير ذلك ، وانما نريد من الامة أن تقوم لذلك العدد القليل الذي تختاره بما يكفل له حاجته ويحفظ عليه مروءته ويستعين به على ما شاء من ترجمة المجالات العلمية والفلسفة الجديدة

والآراء الأوروبية ، وبالجملة كل ما يقرره العالمون بالدين الاسلامي الذين يشهدون له أو الجاهلون به الذين يطعنون عليه ، وأما تكليفهم بعمل المبشرين وارشاد المسلمين وليس من بين وظائفهم التي استغرقت أوقاتهم وأخذت قلوبهم (وظيفة هداية وارشاد) وهي الوظيفة التي يجب الدأب عليها صباح مساء لما نراه يتجدد كل يوم وما نشاهده من عظم البلاء واعضال الداء ، ولا يكفي فيها الالتفات الوقتي ولا التفرغ العرضي ، مع عدم تكليف الامة السمحة بشيء زهيد من مالها ونذريسير من ثروتها ، فهو من الاعتساف وقلة الانصاف أو ضيق النظر وسوء الفهم ، وانى أعتقد ان كل ما يحاوله الكتابون والمرشدون والمقننون والمصلحون لا يمكن ان يأتي بنتيجة أو يكون له أثر صالح حتى ترجع الامة الى دينها الصحيح وتعاليمه الحقة (والا أخلت بالتنفيذ وان أصابت في أصل التقنين) وكان نصيبها من ذلك كله نصيب من يداوى الظاهر ويترك الباطن أو يتلمظ تلمظ من يأكل الاطعمه الشبيهة وليس في فمه منها شيء

إذا رجعت الامة الى تعاليم دينها وأصلحت أنفسها بما يغرسه الدين فيها فاضت الاعمال المبرورة والآثار الجميلة من منابع تلك النفوس بلا سائق يسوقها ولا مسيطر يهيمن عليها ، وكان كل فرد منها أمة وحده ، والا فمهما وضعت القواعد وعملت النظمات وقررت من الاصلاحات فلن تجد من يقوم بها على وجهها ، بل تدفعه الاغراض والاهواء الى التوسع في التأويل وسوء التنفيذ ، وكل من يحيطون به

من اليشة التي هو فيها على شاكلته لا تهمهم الا ما ربههم الشخصية
ومطالبهم الذاتية ، وان كانوا يقولون (بالسنتهم ما ليس في قلوبهم)
فيكون ذلك شبحاً لا روح فيه وصورة ليس وراءها معنى ، فما لم
تظهر نفوس الافراد من ملكاتها الخيثة وصفاتها الحاكمة عليها (ولا
ظاهرة لها الا بالدين القويم ومراقبة الله عز وجل في السر والعلانية)
فلن يفيد عناء الحكماء ولا تقنين الكبراء وكان قولاً باللسان فلم يجاوز
الآذان ، وقد جاهرت لك برأى عسى أن يقع منك موقع استحسان
فيهيج منك الامل ثم تكون من أرباب الهمة فتنبعث للعمل أو يحرك
منك رأياً يكون أنفذ الى كبد الغرض المقصود وأسرع في الوصول الى
الغاية المطلوبة

(تكميل جليل في فوائد متفرقة)

رأينا من الحكمة ومحبة الخير وبذل النصيحة أن نذكر لك
ما تقر به عينك ويتهيج به قلبك ان شاء الله
ثم اذا خيل لك أن في هذا التكميل ما هو مكرر فأقول لك ولا
أطيل معك المناقشة أنه لم يذكر في الموضعين على وجه واحد ولا
أريد أن أكتفى بدلالة ملزوم على لازم ولا لازم على ملزوم فانه
نريد نتيجة مخصوصة ولعلنا بعد هذا كله نصل اليها فيرسخ بعض
ذلك في قلوب شباننا الذين أعضل منهم الداء وعز فيهم الدواء
ومن لنا بمن يبرز النصيحة الى أبناء أمته وأهل دينه في صور

مختلفة ليترتب عليها المقصود منها فربما وافقت كل صورة من تلك الصور استعداداً من تلك الاستعدادات أو وجد فيها من المحاسن والزيادات ما ليس في غيرها على حسب ما اقتضاه التصريف الالهي وقت ابرازها، وما على الا أن أخلص فيما أعمل على قدر ما أستطيع وعلى حسب ما اعتقد (وإنما الاعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) فدع عنك كثرة الجدال والقليل والقال وابتهج بما يسر الله لك ولا تعقني عما أريد أن أسوق اليك من الخير فاني سأطرفك بما تحب فأقول

يجب أخذ النفس بالخدع والحيلة والمغالطة حتى تصل الى الكمال المراد منها فانها سريعة الانخداع والركون الى الوهم ويمكن للعاقل أن يتخذ من ذلك وسيلة الى سعادته وتوليد الاحساسات الارتياحية عنده والسير بها في طريق المقصود من غير أن تتألم

النفس من شأنها التلون والتليس على صاحبها لمكان الهوى والشهوة التي تعمى البصيرة ، وسر ذلك أن القلب ليس له الا وجهة واحدة متى توجه اليها انصرف عن غيرها وان كان من أوضح الواضحات وأول البدييات فاذا اقتاده الهوى لم يمكنه أن يوجه بصره الى غير ناحية الامر المحبوب

شدة القرب حجاب كما أن شدة البعد حجاب والعين لا ترى نفسها ومن هنا جهل الناس نفوسهم فلم يعرفوا دخائلها النفس تأبى الا قضاء شهواتها ولو فسدت السموات والارض

ومن فيهن ، أكثر ما يوثق الناس من قبل ضعفهم أمام شهواتهم
لأن قبل جيلهم بالانقاص والكمال

الحرية الحقيقية أن تحرر نفسك من أسر الشهوات التي
استعبدتك لمن لا يحصى عدداً من الشركاء المتشاكسين ، فالناس
كلهم في الذل من خوف لذل وفي الفقر من خوف الفقر وقد قال
أبو الطيب المتنبي

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر
محب المال قلما يرجى منه خير أوتصف بفضيلة
الكمال يعطى كل وقت حقه وكل حال حكمه وغيره يجب
عليه أن يأخذ بالقواعد العامة ولا يتخطاها
القوة الشهوية والقوة الغضبية أسبق وجوداً من القوة الفكرية
وهو من أسباب ضعفها عن أن تقاومها

الهوى لا يعرف من عابديه غير الامتثال والتسليم
الآثار التي تترتب على رذائل الاخلاق لا تكاد تنهاى
الفضائل أوساط والرذائل متفاوتة بحسب القرب والبعد من
نقطة الوسط

الانسان اذا رسخ فيه الكمال تعدى منه الى غيره فكان اماماً
مقتدى به تصلح به الامم وتسعد به الشعوب وكان له من الميراث
النبوى على قدر ذلك

الانسان مستعد لبقاء السرمدى مع الفيض الدائم واللذة انصافية
إذا طلب السعادة من وجهها والا فنى فناء النبات والحيوان بل كان
شراً منها

اجعل بدنك خادماً لنفسك واجعلها سيدته تدبره تدبير السادات
لعبيدها واياك أن تنزلها عن مركز سيادتها الرفيع الى حضيض العبودية
فتنغمس فى سلك من كانوا أنفسهم يظلمون
السعادة على الحقيقة هى ما لا يلحقها كدر ولا يتقدمها ألم ولا
يعتريها فناء ولا يحيطها خوف وليست الا فى السعادة المعنوية

يجب تربية الاحساس بالفضائل والآداب فى النشء وانهم مع
مربيهم لأشبه شئ بالمنوم تنويماً مغناطيسياً مع منومه وان الانسان قد
يبلغ من التأثير فى غيره الى حد ان يجعل المر الزعاف عنده حلوا للذيد
الطعم اذا أمكنه أن يغرس فى نفسه اعتقاد ذلك فان شأن الخواس
والابدان مع النفوس ، والاعتقادات من أغرب الشئون وأعجبها

لا تصلح أن تكون هادياً لقوم الا اذا علوت عن استعداد الكل
حتى تشرف من أفقك الأعلى على تلك المراتب التى مررت بها زمن
سيرك وترقيك، فتعطى كل أحدا ما يناسبه وترقيه الى أفقه الذى يشترك
اليه ثم توقفه عنده فان الشوق علامة الاستعداد وفقده علامة فقده، ولا
يصلح أن يكون اماماً للناس جميعاً الا من بلغ درجة الرسالة حتى يحيط
بالاستعدادات كلها ويعرف ما يناسبها فيمكنه أن يداويها بما يليق لها

من الدواء وهو الانسان الكامل ، ما أوجب الشقاء الا نظر الناس الى الناس

الفقر كثرة الحاجة فكل من كان أكثر حاجة كان أشد فقرا ولو كان ملكا

اجتهد في أن لا تهيج شهوتك خير من أن تجتهد في تسكينها أو تحصيل مطلوبها بعد هيجانها

اجتهادك في الوصول الى درجة الراضين أسرع عليك من تحصيلك مطالب الطامعين ، السعادة تجل عن أن تكون بهذه الاشياء الخارجية الفانية المكدره التي نجدها عند أشرار الناس وسفلةهم أكثر من خيرهم وملكهم

كل انسان يعتقد أن السعادة في نيل مطلبه لا غير على تفرق أهوائهم وتباين آرائهم والسعادة وراء ذلك كله

اجتهد في أن تملأ نفسك بالكمال لا أن تملأ بيتك بالمال فإنه لا سعادة الا في النفوس

النفس تكمل وتزكو بأنوار العبادة متى صدرت من قلب امتلأ توحيدا وقاض اخلاصا ، وما شرعت العبادات الا لتطهير القلوب بما يدخل فيها من تلك الانوار

لم يقبل الانسان الثقلب في الاخلاق المختلفة والاحوال المتضادة الا بواسطة امتزاج الروح بالبدن والا كان شيئا بسيطا لا يقبل المتضادات يجب على الانسان أن يحاول غرس ملكة الصبر في نفسه وعدم

التأثر بالعوارض التي لا بد منها لكل من كان في دار الحوادث والفناء
وانك في هذا الكون الذي تقتضى ذاته التغير والتكدير وتأبى طبيعته
البقاء والصفاء بمنزلة المحكوم عليه بالقتل نهائيا فلا سبيل له إلا أن يوطن
نفسه على الصبر ويحرك منها ملكة الشجاعة حتى يهون عليه ذلك
المصاب الذي لا بد منه ، وأما الذين لم يمرنوا أنفسهم على هذا الخلق
الفاضل وإن أمكنهم أن يتشبهوا بذويه في ضبط ظواهرهم فلا يمكنهم
أن يحفظوا بواطنهم التي لم تنصبغ بصبغة الفضائل من التألم والاضطراب
إن من العار أن يصبر السراق وقطاع الطريق على ما يلاقون من
المكاره ويتوقعون من المهالك في سبيل عرض لا قيمة له ولا تصبر
أنت على طلب السعادة الابدية

إذا تمت الالة ساقى البدن من السقم الى الصحة ومن النقص
الى التمام ويتعذر ذلك فى لذات الاجسام (فاطله ان شئت فى
الذائد الروحانية)

يلزمك أن تعرف طبيعة الدنيا حتى توطن نفسك على مقتضياتها
فلا تجزع عند حصولها ومن طمع فيما لا يكون أنه يكون فقد طمع فى
المحال ومن طمع فى المحال لم يزل محزونا

ومكلف الايام ضد طباعها متطلب فى الماء جذوة نار
دواء النفوس انما يكون باقتلاع الأدوية من أصولها وأن الذى
قعد بالناس عن درجة الصحة الحقيقية مع كثرة تعلمهم هو ملاحظة
فروع الادواء وآثارها لا مبادئها ومناشئها

أقرب طريق الى السعادة هو الدين ورسوخه في النفوس وهو
أنجم وسيلة للاتحاد بين أفراد الامة وكثرة الخير وقلة الشر وراحة
الحاكين والمحكومين واذا خلت النفوس من الدين لم تكد تنفع
عالمها فان نظرها اذ ذاك يكون قاصراً على المصالح التي تعود عليها،
ولذلك نراها تنقلب عن الفضيلة متى كانت مصلحتها الشخصية
في ذلك فانها هي المحور لديها، والمصالح كلها وان تعددت أنواعها ترجع
عند التحقيق الى مصلحة الشخص ولا تجد أحداً يعمل لغير ذلك (الا
المتدين الذي تخلص من الاغراض كلها وصار عمله خالصاً لوجه الله
تعالى) وفضلاً عن ذلك فان الشريعة جاءت بأدوية كثيرة في علاج
النفوس ولا يوجد في غيرها الا بعض تلك الادوية

من صحبتك فانما يصحبك لغرض يعود عليه ولا يكاد أحد
يعمل عملاً لغير غرض الا الكاملون من ذوى الدين الذين خلصوا
من الاغراض كلها (وقليل ما هم)

اجعل المال وسيلة الى توفر صحة بدنك وراحة قلبك ولا تعكس
الامر فتكون قد قلبت الحقائق وعكست المراتب وجلبت لنفسك الشقاء
الشريعة جاءت بطلب الدنيا والآخرة ولكن على ميزان عدل
وحدود محدودة

الولوع بالاكثر من الملاهي انما هو لعدم تحصيل السعادة في
النفوس، فاضيقها وعدم ابتهاجها وسرورها بلذاتها الذاتية احتاجت الى
أن تتسلى بالمسلية الخارجية، وربما اختارت السكر لتستريح من

ذلك الهم الذي يساورها ، وأذكر هنا قوله تعالى (ومن أعرض عن
ذكرى فإن له معيشة ضنكا)

ما قعد بأكثر الناس عن طلب السعادة الحقيقية الا توهمهم
أنه لا سعادة وراء ما هم فيه وانها قاصرة على تلك السعادة التي كلها
شقاء وعناء

انما غلب الطيش على الانسان دون الرزانة والالانة لوجود الوهم
فيه وتسلط الشيطان عليه وهو مخلوق من مارج من نار فهو في غاية
الاضطراب

قهر النفس حتى تدعن لاحكام العقل ضرورى وان كان
شديداً جداً لغلبة الشهوة وقوتها ولذلك سمى جهادا في الحديث
الشريف (أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك)

لا بد لك من النظر الى عالمك الاسفل بمقتضى الضرورات
الطبيعية ومن النظر الى عالمك الاعلى بمقتضى الشوق الذاتى الى
الكمال ، واياك أن تمنعك البيشة التي أنت فيها عن رجوعك الى
مبدئك الاول بحالة أكمل وهو غايتك الاخيرة، فهو بمنزلة النتيجة التي
لا بد فيها من الحركتين

اجعل الدنيا والآخرة بمنزلة امرأتين لا بد لك منهما ولكن
احدهما من رعاك الناس وسفلتهم غير أنها ضرورية للخدمة الاخرى
وأنت مسئول عنها جميعاً

لا تستريح ما دامت قواك متغلبة متنازعة تجذب كل واحدة
منها قلبك نحو مطلوبها

صالح أعداء قواك ولا تأمنهم وخادعينهم ما استطعت فالحرب
خدعة حتى يقوى سلطان عقلك وينتظم جيش علمك وتدبيرك ، وإذا
لم تكن غالباً فاحذر أن تكون مغلوباً
أخلاق الانسان وغرائبه لا تكاد تحصى ومنها ما لم يعرف
الى الآن

النفس عدوة تفعل معك من الشر والوقوع في المذلة والشقاء
ما لا يفعله الأعداء واذكر هنا قوله صلى الله عليه وسلم (أعدى عدوك
نفسك التي بين جنبيك) ولكنك مجبور على مصادقتهم مع الحذر منها
من عرف الانسان بظاهره دون حقيقته فما عرفه وقد اقتدى
بإبليس في ذلك حيث قال (خلقتني من نار وخلقته من طين) فان
ذلك لصورهما الظاهرية دون الباطنية

ان الانسان لا يصلح أن يكون خليفة عن الله تعالى في أرضه
ومخلوقاته حتي يكون خليفة عنه في عوالمه التي فيه ولا يمكنه أن يعرف
حقوق تلك العوالم الخارجية ويقوم بالعدل فيها على ما ينبغي ويعرف
كيف يعاملها على ما يجب الا اذا كان كذلك في عوالم ذاته الباطنية
ولولا أن فيه تلك المراتب كلها ويتأتى له أن يعرفها من نفسه ويدرك
واجباتها ومقتضياتها وكيفية معاملتها لم يصلح أن يكون خليفة عن الله
على جميعها وهو سر بديع يفرح به من يعرف قدره

قد خلقت لملك عظيم ولكن قد عاقبتك عنه الشهوات ومن
استطاع أن يكون ملكاً كبيراً ثم رضى أن يكون عبداً حقيراً
فليس بعاقل

أترضى من الملك الرفيع وعيشة مع المملأ الأعلى بعيش البهائم؟
الانسان معرض لآلام كثيرة لم يعرض لها الحيوان ولذلك كان
ضعيفاً حتى فى سلطان شهوته عليه ضعفاً لا يكاد يوجد فى غيره من
الحيوانات فاذا الحيوان أسعد من الانسان ان لم يدرك كماله المقصود منه
العاقل من أزال عن نفسه أدناس الرذائل حتى يظهر قلبه وتعود
له صحته قبل أن يتبادى به المرض فتبطل منه تلك القوة التى تؤهلها
لان يسمع من المملأ الأعلى وأن يبصر عجائب الملكوت ، فاذا بطلت
منه تلك القوة التى صار بها انساناً فقد وصل الى حد الموت واذا
لا تنفع فيه العظام ولا تؤثر فيه العبر (فانك لا تسمع الموتى ولا
تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين) وقد علمت أن للقلب بصراً يرى
مالاً يراه الناظرون وسمعاً كذلك الى آخر ما سبق لك ، (فانها
لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)

الانسان قد يكون ذكياً جداً فى بعض الامور لكن
يكون ناقص التعليم أو التركيب فيكون أحق جداً فى بعض آخر
والانسان انفراد من بين سائر أنواع الحيوان بأنه يجمع بين المتضادات
وأنه قد يكون فيه قوة هائلة يستغرب منها وضعف شديد يؤسف عليه
الناس مختلفون فى الاستعداد الى الكمال فمنهم من بطل فيه

ذلك الاستعداد فلا يشتاق اليه أصلاً ، ومنهم من له ما يحرك شوقه
الى الكمال ولكن لا ينهض به الى السلوك في طريقه فيقتصر على
التشهى والتمنى لا غير ، ومنهم من قوى استعدادة للكمال نوعاً ما من
القوة فسلك طريق الخير وتوجه وجهه الكمال ولكن لم يلبث بعد
السير فيه أن ضعفت عزيمته وفترت همته ، ومنهم من علت رتبته عن
ذلك فسار شوطاً بعيداً في اكتساب الفضائل ولكن وقف به استعدادة
دون الغاية

النفس اذا قويت وتكملت وكان السلطان لها لا للجسم بسبب
رجوعها الى فطرتها الاولى أمكنها ان تخوض البحار وتقتحم النيران
فان هذا الكون بموثراته لا يؤثر فيها فانها من عالم أعلى لا يخضع
لنواميس هذا الكون السفلى كما حصل للانبياء عليهم السلام ، وان كان
لا بد لك من الرجوع الى المقررات الحديثة أو بتعبير آخر الى العلوم
الغريبة فانظر الى ما ظهر لهم من حوادث التنويم المغناطيسى والى من
خاض النار المتأججة ولم يؤثر فيه محلول النوشادر المركز كافي مجلاتهم
العلمية ، فاذا بلغك ذلك عنهم وصدقت به فاعلم أن سره ما ذكرنا
أنت مخلوق للحياة الابدية ولذلك أودع فيك النظر في
العواقب

يجب على طالبى طب النفوس المحافظة على صحتها بالجرى على
قانون الحمية ورد صحتها اليها ان كانت قد زالت

لا بد أن تقبل صديقك على ما فيه من عيب حتى تلتفع بما فيه من خير
دواء كل داء من الادواء انما يكون بمعرفة أسبابه وعوارضه ،
وأما تشخيص ما يكون من جزئيات الادواء ومعرفة أسبابها الجزئية
وكيفية التحرز عنها فانما يرجع في الحقيقة الى صاحبه وهذه القواعد
العامّة الكلية تكون له معونة على ذلك ونبراساً يهتدى به في ذلك
الطريق حتى يمكنه أن يستخرج منها أحكاماً جزئية لادوائه الجزئية
التي هو أدري بها

يجب عليك في معالجة أى داء من الادواء الاخلاقية أن تعلم
وجه قبحه وحسن مقابله وما يترتب على كليهما في الدنيا والآخرة ثم
تعمل على اقتلاعه من نفسك بتربيتها على الفضيلة المرة بعد المرة ولا
بد أن تلاقي عناء شديداً حتى تعتاد الفضيلة ، فلا بد لك اذاً من الصبر
الصادق مدة هذا العلاج وعليك أن تتباعد عن كل ما يهيج منك
الشوق الى ذلك التقيح ، فتباعد عن رؤية الصور الجميلة مثلاً في علاج
شهوتها حتى تنساها النفس فلا تزعجك من أجلها ، ولا تتعرض لما يثير
غضبك حتى تتمكن منك فضيلة الحلم ، ولا تغشى مجالس عشاق الدنيا
كثيراً حتى يخف عنك الشره فيها والحرص عليها والتألم من أجلها ، فالبعد
عن أسباب الشر أعظم علاج وأنجع دواء ، والصبر عليه أيسر من الصبر
عن شهوة النفس عند ما تراها حاضرة أمامها ، وإن كان يلزمك عند
ما يهيج غضبك أن تكظم غيظك ولا تسترسل مع نفسك وكذلك
عند هيجان الشهوات كلها ، ولكن أخاف عليك أن تغلبك نفسك

قبراً عنك (والأشياء يسهل تلافيتها قبل أن تصل الى غايتها) ،
 فتدارك كل شيء في مبدئه والا خرج عن طوعك واختيارك ،
 وإياك أن تغشك نفسك او يخذلك وهمك فقتضيات الطبائع
 لا تتغير وطالما كذبت عليك فيما وعدت وغشك فيما زينت (فاذا
 لا بد في كل علاج من العلم والعمل والصبر والحزم والحكمة حتى ترسخ
 ملكة الفضيلة المطلوبة في نفسك فتستريح اذ ذاك من العناء وتكون
 لذاتك بعد فيما كنت تنفر منه أولاً وما أجدرك اذ ذاك أن تقول :
 ونفسي كانت قبل أمانة متى أطعها عصت أو أعص كانت مطيعتي
 فأوردتها بالقهر كل كريمة وأتعبتها كي ما تكون مريحتي
 فعادت ومهما حماه تحملا : ه مني وان خفت عنها تأذت
 اجتهد جهدك في البعد عن خطاء السوء وابتعد بنيك عنهم فالحمية
 رأس الدواء ،

قد اكتشفوا من خواص المعادن والنباتات ما جعلنا في عالم
 جديد ولا بد أن يكون فيك أيها الانسان من الخبائص والاسرار
 ما يفوق ذلك كله ، متى توجهت الى شيء فقد تقيدت به وانحصرت فيه
 الدنيا أقل من ان تحتاج الى هذا التعب ونقصها أظهر من أن
 ينه عليه ولكن أحببها النفوس حبا شديدا فعميت عن نقائصها (وعلى
 قدر محبة الشيء يكون عمل الوهم فيه وتخلي العقل عنه)
 ما تكبر المتكبر الا لصغر في نفسه والمخطاط في همته ولولا ذلك
 ما استعظم ما تكبر به

يمكنك ان تحرك من نفسك احساسا ترتاح اليه فان ألمك انما يكون من تصورات تتصورها ، ويمكنك أن تقلع عنها بالسير في تصورات أخرى ولو بأسباب خارجية تعينك على ذلك أو بآمال تحركها من قلبك وان كانت كاذبة لان النفس تركز الى الوهم وتنخدع بالوعد فتغرق في لذة تلك الاماني وتغفل عن التفكير فيما يؤلم

حرك منك اذا اغتممت فانهن مراوح

وقد صرح علماء التربية بأنه يمكن الانسان أن يولد لنفسه احساسات يرتاح اليها بل قال بعضهم يمكنه أن ينقل نفسه من طبيعة الى طبيعة أخرى وكثيرا ما يتسبب فيما يجعله صفر او يا مثلاً بعد ان كان غير ذلك

يمكنك بالعادة أن تصل الى كل شيء فيصدر بلا تكلف ولا عناء كما تصدر عنك الافعال الطبيعية، وفي امكانك أن تتعود اي شيء، وفي امكان العادة أن تحولك الى أي شيء، والنفس الانسانية من اللطافة بحيث تقبل كل شيء

حافظ على وقتك بقدر ما يمكنك فان وقتك أنفس الاشياء في حقك بل يمكننا أن نقول لك ان وقتك هو نفسك فائق الله في نفسك

لا تكثر من توقع الضرر فتقع فيه كمن يمشى على حائط اذا أكثر من تصور الوقوع لم يلبث أن يقع ، واذا أردت ان تعلاه تعليلاً فلسفياً

قلت ان الجوارح تسارع الى تنفيذ كل ما يقع في القلب ولا يؤخرها
عن ذلك الا صدور حكم منه لها بعدم التنفيذ، فيجوز أن يقع في القلب
تصور أمر من الامور فتسارع الجوارح اليه قبل ان يلتفت الى المنع منه
فيقع المحذور في لحظة التصور الذي طيرته الاعصاب الى الجوارح،
ولو تأخرت لحظة صغيرة بقدر ما تلفت النفس لورد عليها ما ينسخه
ولكنها لا تعرف الانتظار ولا التواني، وان شئت فلاحظ نفسك عندما
تريد أمرين مرتبين ترتيباً طبعياً تعلم انك اذا كنت مشغولاً بالثاني
منهما ظهر على لسانك قبل الاول منهما ثم تذكر الترتيب فتدرك
غاطك ، ولعل توقع الخير أو الشر من أسباب وقوعه لدى التصريف
الالهي كما يشير اليه حديث (أنا عند ظن عبدي بي)

لا تقدم على أمر من الامور الا بعد الفكر والروية وتعود ذلك
وعاقب نفسك اذا أقدمت على شيء متسرع طائشة بمقتضى سائق
الشهوة غير مسترشدة برأى العقل ولا مستضيئة بنور البصيرة
حرك من نفسك المهمة العالية حتي لا تطلب الا معالي الاشياء
ولنا في هذا المعنى

تفكر كيف ترقى للمعالي	ولا تطلب صغيرات الأمور
فرب صغيرة ضيعت فيها	زمانا كان ينفع في الكبير
وفكرك في مدى أمر كبير	كفكرك في مدى أمر حقير

أعدد لأعدائك (من الشره والحرص والغضب وأمثالها) عدة في حالة
الفراغ الذى يمكنك من التمرن على الفضائل وتعودها قبل ان تهجم عليك
سباع تلك الرذائل

ان الصبغة في غالب الناس مبنية على تبادل المنافع بل على المزاينة
فيها وان الانسان لم يتحمل اثقال الاصحاب الا بناء على حكم الاوهام
أو مقتضى الشهوات، وأن ما تلاقيه ممن تعرف أكثر مما تنتفع به منه
اذا ما ضاع منك اليوم خل فلا تحزن عليه الدهر وافرح
فان الخلل عبء أى عبء فمهما استطعت أن تلقيه فاطرح
قد يكون الانسان ساذجا في أمر وفيلسوف في آخر
يكاد يكون الانسان اسما بلا مسمى فلا تدهش عند ما تسمع
قول القائل :

لم يبق من جل هذا الناس باقية ينالها الوهم الا هذه الصور
أو قول الآخر

أنى لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا
وان شئت فحرب حتى تعرف ذلك بالبرهان (ولكن خير لك أن
تقاد في هذا الموضوع)

ليس يرقى الانسان بصنعة فان النمل والعنكبوت أصنع منه ولا
يحسن ملابسه فان كثيرا من الطيور أبهج منظرا وأرق نقشا ورقشامنه،
بل ترقيه بالحقيقة على سواه انما هو باخلاقه وقوة استعدادة لمعرفة
مالا يصل اليه الحيوان من عظمة المبدع وجلاله

الخير المحض لا يوجد في هذا العالم لمكان التغالب ومحبة الذات
فكل ما يكون فيه سعادة قوم يكون ضرراً على قوم آخرين ولو من
بعض الوجوه ، فإذا الخير المحض لا يكون الا في عالم آخر ، أو بعبارة
أخرى لا يجده هاهنا من الناس الا من تخلص من سلطان جسمه
وعلى عليه سلطان روحه فزال عنه الانانية والمطالب الشخصية وصار
ينظر في الاشياء بنظر الله الحكيم الرحيم (وذلك لا يكون الا لكل
المؤمنين)

من سعادة المرء أن يتفق له في صغره من يمرنه على الشريعة ويغرس
في قلبه محبتها وان من السعادة على الاطلاق أن توجد في بيئته طيبة
تسوقك الى كمالك

الانسان الكامل بالنسبة الى بقية الناس كالقلب بالنسبة الى
سائر الاعضاء أو كالانسان بالقياس الى الحيوان
لا تطمع في أن تؤخر قلبك عن شيء يحبه فان المحبة جذابة
لقلب الحب شاء أم أبى ، واذا صرفته عن محبوبه لحظة كما تفعله في
صلاتك لم يلبث أن يجذب اليه بجاذبية المحبة ، وسر ذلك ان هذا
الجذب طبيعي فان أخذك عنه أمر تكلفي فكري لم تستطع ان تستمر
عليه (والغفلة طبيعية في الانسان) ولذلك لا تتم له الامور الفكرية
مهما كانت عنايته بها ، فان شئت ذلك فاجتهد في اخراج تلك المحبة
من قلبك (والحب بالتحب والبغض بالتبغض)

انما اعطاك الفكر كي لا تقف عند حد ولكن شرفك في أن يكون

الكمال لك طبعاً. ونو جعل أمورك كلها خلقية ضيعية نوقفت عند حد محدود، كل يطلب السعادة ولكن قل من يهتدى اليها وأكثر الناس يظنون ما ليس بسعادة سعادة

كل يحاول حيلة يرجو بها دفع المضرة واجتلاب المنفعة والمرء يغلط في تصرف حاله فلربما اختار العناء على الدعة وأما من عرف طريقها على التحقيق فلا يقعه عنها الا ضعف العزيمة أو غلبة الشهوة ولا تكاد تجد في الناس غير أرباب الشهوات ضعاف العزائم الذين لا يتبتون على السير في طريق الكمال وان كانوا يشتاقون اليه

لكل الى شأو العلا وثبات وإنكن عزيز في الرجال ثبات السبب في عدم ادراك الجهلاء للذائد الروحانية أنهم لم يتكلموا فهم بمنزلة الصبيان الذين لا يدركون لذة الملك والجاه وهى من أعظم اللذات، وفي امكانك ان تبطل استعدادك لاي شىء من الاشياء حتى لا تدرك له معنى وان كان من أحسن الاشياء وأنفسها أكثر الناس الآن أشبه شىء بمن قالوا ان هى الا حياتنا الدنيا وان خالفوهم فى العقيدة

العقل كالبحر والشرع كالضوء ولا بد منهما الشرع بمنزلة أكسير مفيد فى ازالة أمراض الحياة وأدواء الاجتماع وثمرته الفوز بالسعادتين وقد تولى ايجاده الحكيم العالم ان الذى أخر الناس عن العمل بالشرعية عدم بحثهم عما فيها

من الأسرار والحكم وما تمسك بها قوم إلا ارتقوا مادياً وأديباً وسعدوا حساً ومعنى وفازوا بالدنيا والآخرة ، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك وقد سماها الله تعالى روحاً في قوله (وكذلك أوحينا إليك روحاً من من أمرنا) وجعلها حياة في قوله (لينذر من كان حياً)

كثيراً ما تستخدم إحدى القوى الثلاثة (الشهوية والفكرية والفضبية) غيرها في تحصيل مطالبها فيغضب صاحبها ويفعل ما يفعل من أجل شهوة المال أو الجمال مثلاً كما تستخدم الفكر عند شدة غلوئها وعظم سلطانها في استنباط الحيل إلى ما ربحها سالبة حريته بالكلية مبطله منه مقتضياته الذاتية ملزمة إياه امتثال إشارتها والخضوع لأوامرها مهما كانت وكيف كانت فتتعاون القوى كلها على شيء واحد وتتوجه جهة واحدة وإن كان المطلب في الحقيقة لأحدها ولذته راجعة إليها دونهما

(الفرق بين أهل الدين وغيرهم)

الإنسان لا يكون إنساناً إلا بالدين والا غلبت عليه الأغراض ما دامت القواعد التي يرسمها لا يراد منها إلا المصالح الحيوية التي تفرق بينه وبين غيره

وما دامت هي المحور والأشياء لأجلها فلا بد أن يقدم مصلحته على غيرها وهي مقدمة بالطبع حتى أن المؤمن الذي يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة يمكنك أن تقول أنه يطلب المصلحة الشخصية

وهي ادخار الأجر وجزيل الثواب عند الله تعالى ، ومن طلب مصلحة أمته فهو إنما يطلب في الحقيقة مصلحة نفسه ولكنه ما ذكرناه في المؤمن لا يمكن أن يكون في غيره ولذلك بينما نجد الواحد من غير أهل الدين انساناً يدافع عن الانسانية بكل قواه نجده حيواناً يفترس بمخالبه كل ضعيف ويبتلع ما يمكنه أن يسيغه من بني نوعه

وسر ذلك هو ما ذكرنا من أن نظرهم لا يتخطى المصالح الدنيوية والمنافع الحيوية فهم وراءها كيف كانت وأين كانت والمعامل يدور مع علقته وجوداً وعدماً ، ولا تكاد توجد فضيلة العدالة والانصاف الحقيقي الا اذا انتفت تلك المصلحة الذاتية والا فلا عدالة ولا انصاف فالأموال كلها يمكننا أن نقول انها راجعة الى المصالح الشخصية وأن الانسان يحب نفسه ويحب كل شئ من أجلها ولكن هناك فرق كبير بين أهل الدين وغيرهم

انما سهل على الناس اتباع الغريبين وراق في نظرهم أن يقلدوهم بسرور وابتهاج في كل ما هم عليه لأنه جاء على مقتضى الهوى فسارعت اليه النفوس

من تطهر قلبه وانجلت عنه الغشاوات علم الحق حقاً والباطل باطلاً فلا يشغله الا ما يعنيه

من استراح من قلق الطبيعة وحركاتها نحو الشهوات الطبيعية فقد سعد سعادة أبدية

قلما يثبت شئ على خلاف مقتضى الطبع فان أردت ثبات
الأشياء وتماها فحاول أن تجعلها طبيعية حتى يتم ما أردت
النفس يشغلها أقل شئ وإذا اشتغلت به غفلت عن غيره وإن
كان لازماً من لوازمه

مبدأ الشهوات تصورات ثم آميال ثم شهوات ويمكنك أن
تقسمها في المرتبة الأولى والثانية لا في الثالثة إلا إذا كنت من
المؤيدين

إذا هاجت الشهوة أبطلت حكم القوة النظرية بالكلية
واستخدمت الوهم والخيال

أنجع علاج لأصلاح النفوس هو غرس محبة الله تعالى في القلب
حتى تذهب الأخلاق الرديئة وتظهر الفضائل ظهوراً طبيعياً وهكذا في
معاملة الأصحاب أو الرؤساء إذا تأصلت المحبة ظهرت الحقوق المطلوبة
والآداب اللازمة بلا تكلف ولا عناء

ليس يراد منك إبطال قوة الشهوة والغضب فإنه لا يمكنك
الخروج عن حكم البشرية بالكلية وأيضاً هي مخلوقة فيك لحكم جليلة
ولكن يراد منك إيقافها عند حدها واجتلاب الخير بها وعدم التوغل
في مقتضياتها

النفس مجبولة على رذائل كثيرة لا بد من إزالتها، ولكونها جبلية
لم يحس بها صاحبها لأنه لم يعهد نفسه خالياً منها وقتاً من الأوقات ولم
تخلق فيه أضدادها من الفضائل حتى يعرفها

لو عرفت ما يلاقيه طلاب الدنيا من الاتعاب والمذلات
والحسرات والحذر والوجل والنفاق لرحمتهم ورثيت لهم
لا تورط نفسك فيما يجلب لك الشقاء في الدنيا والآخرة من
أجل أولادك وأهل بيتك اغتراراً بمحبتهم وما تراه منهم فانهم انما
أحبوك من أجل ما يعود عليهم منك لا من أجل ذاتك فلا تكن
مخدوعاً في عقلك مغبوناً في عملك
لا تتكالب على طلب الدنيا بكائيتك وأخرج نفسك منها طوعاً
قبل أن تخرج منها كرهاً
لا بد أن تلاقى من شدائد الحوادث وآلام الامراض وحرارة
الموت ما لا ينفك فيه الا الملائكات الفاضلة
اطلب تلك الحقائق التي تحس بها ولا تعرفها
تعرف الى ذلك العالم الذي تصير اليه بعد الموت لئلا تدركك
هناك وحشة الغريب الذي أمسى بغير بلاده مع غير أشكاله
ليس من العقل أن تعلم كل شيء في هذا العالم وتجهل كل شيء
في العالم الآخر ولا بد لك منهما
ليس من العقل أن تثبت قدمك وتوطد أورك فيما لا بقاء له
ولا تكون كذلك فيما لا فناء فيه
تعرف الى الروحانيين واعمل بعملهم حتى يكون لك في العالم
الآخر جاه (أو محسوية)
من عجيب أمرك أنك تحب علو الجاه ورفعة الذكر في هذا

العالم وترضى لنفسك بالتحول الابدى والسقوط السرمدى فى العالم
الآخر الذى لا يزول

انك لم تخلق عبثاً ولن تترك سدى فتفكر فيما أنت صائر اليه
لئلا تندم حيث لا ينفع الندم
لا تظن أنك هذا الهيكل الجثمانى والشكل الظاهرى فأنت شئ
آخر أعلى وأعلى

حاول أن تدخل العلم الى أعماق قلبك ليتملك نفسك فتنتفع
به واحذر أن يكون فى ظاهره فقط فتكون من منافق العلماء الذين
قالوا علمنا ولما يدخل العلم فى قلوبهم
حيثما تقلبت وجدت كثيراً من أهل العلم ولكن قل من
تكيفت به نفوسهم

(تأثير عمل الخير والشر فى نفوس العاملين)

ان الذنب ينكت فى القلب نكتة سوداء فاذا بادرت بالندم
أحمى من قلبك ذلك السواد وان توالى الذنوب بلا تطهير النفس منها
بماء التوبة اسود وجه القلب كله فكان بمنزلة المرآة التى فسدت بالسكلية
وكثيراً ما يحركك الذنب الى الذنب ويسوقك الشر الى الشر
حتى تصل الى أفضع الحالات وأسوأ الغايات كما قال تعالى (كانوا
يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا
يعتدون) فجعل معاصيهم فى بدء أمرهم سبباً لكفرهم وارتكابهم أفضع
أنواعه وهو قتل الانبياء بغير حق

وإذاً يكون قد تربت فيه ملكة الشر فلا يميل الى غير القبايح ولا
يستحسن غير الخبائث ويكون ممن زين له سوء عمله فرأه حسناً

زين في عينه القبيح كما زين في عين غيره الحسن

وحينئذ لا تنفع فيه المواعظ بل ولا العقوبات الشديدة ، وانظر
الى حال اللص الذى يحكم عليه بالاحكام القاسية المرة بعد المرة وهو
لا يرعوى ولا ينزجر، واذكر هنا قوله تعالى (انا جعلنا في أعناقهم
اغلالاً فهم الى الاذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سداً
ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) فليس ذلك الا اغلال
الملكات السيئة وسد الطلمات المتراكمة، وتأمل قوله تعالى (ولوترى
اذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من
المؤمنين) ثم قال (ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون) وأن
الانسان ليستغرب جداً عند ما ينظر في هذه الآية كيف يعودون
الى ما نهوا عنه بعد أن عاينوا النار ووقفوا عليها ولكن اذا عرف أن
ملكة الشر قد تأصلت فيهم واندرجت في سلك الغرائز الخلقية
والطباع الاصلية علم أنها لا بد أن يظهر مقتضاها قهراً عنهم، وقال الله
شر الملكات الخبيثة وأرشدك الى تدارك الامور في مباديها قبل أن
تغلبك وتخرج عن ارادتك

وأما الحسنة فتورث في القلب نوراً فتزول ظلمته شيئاً فشيئاً
فيتخرج عن القبيح بقدر ذلك حتى يصل به الامر الى حد لا يمكنه

معه أن يفعل شراً ولا يقارف معصية وهو معنى الحفظ والعصمة وإن كان ذاتياً في الأنبياء.

فإذا وصل إلى ذلك زالت عمايته بالكلية فأبصر عجائب الملكوت وأدرك سر الآيات واطلع على المغيبات وأمكنه أن يخاطب الملائكة ويخاطبوه لأنه التحق بهم وتمت المناسبة بينه وبينهم، والروح كما علمت من عالم النور فخالقتها من جنس خلقهم

ولعلك بعد ذلك تفهم سر الوحي وصلاحيه الأنبياء له دون غيرهم وما ورد في القرآن من مخاطبة الملائكة لمريم حيث قالوا (يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) مع قوله تعالى (ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً) إلى آخر ما ورد في القرآن والسنة

وصاحب هذا المقام في لذة قد تصل به إلى حد الوله لما يرد عليه من الأسرار والأنوار والصفاء والبهاء واستجلاء الجمال الإلهي بما لا يكف مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فلا يزالون عاكفين عليه أو متحركين إليه

كذلك أرواح المحبين دائماً تحركها الاشواق للعالم الأسنى وقد قال بعضهم نحن في لذة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف وقال غيره

عجبت لمن يخرج من الدنيا وما ذاق غير لذة الحيوانات فيها
فأحرص على ما استفتت في هذا المقام من الأسرار النفيسة
والحقائق البديعة وحرك من نفسك الشوق إلى بهجة ذلك العالم الرفيع

الذى هو عالمك الاعلى وقو ذوقك لنيل تلك اللذائذ التى هى أبهى
من كل ما أنت فيه وأرق من كل ما رأيت فى هذا الوجود
على نفسه فليترك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم
(خاتمة فى بيان معنى العالم الذى نوه الدين بذكره).

يعتقد كثير من أهل العلم أنه ممن وردت فيه الآيات والاحاديث
اغترارا بما معه من شهادة ما أنزل الله بها من سلطان أو تصنيف فى
الفقه أو النحو أو البلاغة أو الاصول أو نحو ذلك جاهلا أن ما افتخر
به من ذلك يوجد فى اليهودى والنصرانى وهما هى كتب مدارسهم التى
ألفها آباؤهم وعلماءهم يشهد لها الناظر ويعترف بفضلها المصنف، وكثيراً
ما سمعنا بشيء من هذا القبيل فى المسائل الفقهية عن مستشار نظارة
الحقانية وعن سردار الجيش المصرى بالسودان ، وما تسمعه عن مستشرقى
أوربا أعجب وأغرب فهم شركاؤك فيما علمت فلا بد أن يكونوا
شركاءك فى خاصة ذلك العلم والا وجد الشيء بدون خاصته وهو محال
فاذاً يجب أن يكون سر تفضيل العالم والثناء عليه من الله ورسوله راجعا
الى شيء آخر وأن تكون هذه العلوم التى ترفعنا بها على الجهلاء
وامتلاءنا بها عجباً وكبراً وغروراً وزالت بها سلامة فطرتنا وطهارة قلوبنا
بما أورثتنا من الصفات المهلكة ونخشى أن نكون ممن قال الله فيهم
(وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) أشبه شيء بالصنائع التى
يتعلمها المسلم واليهودى والنصرانى ولا يرجع بها الفاسق عن فسقه ولا

يتميز بها عن بني نوعه الا على قدر ما يتميز العالم بصنعة النجارة مثلاً عن الجاهل بها ، نعم يجب أن يكون سر التفضيل أمراً وراء ذلك كله وهو الذي جعل العلماء ورثة الانبياء وجعل خشية الله خاصة من خواصهم (انما يخشى الله من عباده العلماء) وكان مجلس واحد من مجالس العالم خيراً من عبادة ستين سنة ذلك العلم الذي يبلغ بك تلك الغاية ويحلك في تلك المنزلة الرفيعة ومن أجله احترمك الجهلاء وعظمك الكبراء معتقدين أنك عرفت ما لم يعرفوه ووصلت الى ما لم يصلوا اليه

والقلوب الانسانية تحس بشرف العلم الاعلى ومكانة ذويه وتجل الروحانيين الربانيين اجلالاً للملائكة المقربين وتنظر اليهم نظر أهل الارض لأهل السماء على موجب ذلك الاحساس الذي لا يخلو منه انسان فيه روح الانسانية

ذلك العلم يجلب عن أن يكون هو العلم باحكام الفاعل والمفعول والتصغير والتكبير والمسند والمسند اليه والحقيقة والمجاز وتناقض الموجهات وأحكام المختلطات وفروع الطلاق والبيع والجنائيات الى آخر ما اشرأبت به الاعناق وعظم فيه السباق وتبجحت به النفوس وارتفعت به الرؤوس بل يجب أن يكون هو العلم بمجالات الله تعالى وعظمته وبديع آياته وعظيم أسرارهِ في خلقه مع معرفة خفايا النفوس ودقائق مكرها وتلييسها وكثرة دسائسها وسرعة طيراتها نحو شهواتها فيتهموها في كل شيء ويعاملوها معاملة العدو المحتال ، باحثين وراءها في كل ما تشير به ، خائفين من أن يكون لها فيه هوى دفين وشهوة خفية ، مجاهدين لها ما عاشوا ، ذائقين لقوله صلى الله

عليه وسلم (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبك) وقوله عليه السلام
 (رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر) وجلين من أن يكونوا
 ممن اتخذوا له هواه وأضله الله على علم ، فكانوا ممن عرفوا نفوسهم
 فعرفوا ربهم فامتثلوا قوله تعالى (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل
 الله) فعزلوها عن منصب الرياسة فتخلصوا من غوائلها كلها فلم يتحركوا
 الا لله ولم يسكنوا الا لله ولم ينطقوا الا لله ولم يسكتوا الا الله متحققين
 (أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) فصبروا على بلائه وشكروا على
 نعمائه بل رضوا بقضائه وسارعوا الى رضائه فلم يجدوا في أنفسهم حرجا
 مما قضى وقدر بل سلموا له تسليما ، شأن العبد الصادق في العبودية مع
 مولاه ، فرقين ان يندرجوا في سلك من قال الله فيهم (ولو أنا كتبنا
 عليهم ان يقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه) سائرين في
 الدنيا على قدم الانبياء يتجرعون في سبيل الحق شدة الاذى ، كاطمين
 غيظهم ، صابرين على ما أصابهم بل عافين عن الناس محسنين اليهم
 مشفقين عليهم على نهج من قال الله تعالى في وصفه الكريم (حريص
 عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) (فاعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم
 يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) زاهدين في الدنيا راغبين في الآخرة
 مقبلين على الله تعالى بكليتهم ، داعين اليه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا
 عالمين أنها محل المحن ودار الفتن فلا يحبونها الا على نحو ما رسم الشرع
 لهم . مشفقين من قوله تعالى (يأيتها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم
 الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه

عدواً إنما يدعو حربه ليكونوا من أصحاب السعير) مستبصرين فيها بما بصرهم سيدهم، موقنين بما وعدهم من نعيم وملك عظيم عالمين أنهم سريرة الفناء وشيكة الانقضاء يرون قريباً ما يراه الناس بعيداً

أرى الموت يغتال النفوس ولا أرى بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غد (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت وطن أهلها انهم قادرون عليها أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس) مقتفين أثر من قيل له (ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) واصلين الى روح قوله تعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبينين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) محبين للمرشد الاعظم والنبي الاكرم الذي هداهم الصراط المستقيم وأخرجهم من الظلمات الى النور محبة تزيد على محبة الوالد لولده والولد لوالده، متحققين بما جاء في حديث البخاري من قوله صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين) وما ورد في حديث البخاري أيضاً (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) فوصلوا بذلك الى روح اليقين حتى صارت مظان ثوابه مواقع مرضاته تعالى مما تشرح له صدورهم وتلتذ به نفوسهم، عالمين أنهم لا يبلغون درجة الكمال وينتفي عنهم الحرج والمشقة ويصلون الى

محل الأمن الا اذا تخلل ذلك جميع أجزائهم ورسخ في كل ذراتهم
فيميلون اليه ميلا طبيعيا يتقاضى منهم المسارعة اليه والعكوف عليه
اذ هو محل الانس وحضرة القدس مجتدين في تلك الحضرات من عرائس
الجمال الالهى ما يفوق كل نعيم ويحتقر معه كل لذة سواء حتى
قال قائلهم :

نحن فى لذة (لو علمها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف) فكادو
يهيمون بما يشاهدون من سبحات هذا الجمال ويندوبون عند ما يوغلون
فى سرادقات ذلك الجلال مدهوشين مما يدوقونه فى تلك الحضرات
من مناجاة وألهامات وملاطفات وأنوار وأسرار فكانوا من قوم (يحبهم
ويحبونه أعزة على المؤمنين أذلة على الكافرين) يثبون على ملوك
الدنيا استغناء وعزة على حين أنهم يتواضعون للفقراء ويخضعون للضعفاء
ولكن أبى لهم مقامهم الذى يعرفونه من أنفسهم وعزتهم التى يحسون
بها من أعماق قلوبهم أن يتواضعوا لاهل العظمة والكبرياء وقد قال
تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يفقهون) الى
آخر ما يطول شرحه ولا يمكننا الآن أن نأتى عليه

وبالجملة فقد اتصفوا بكل فضيلة وتخلصوا من كل رزية وأدركوا
من شريف الاحوال ورفيع المقامات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت
ولا خطر على قلب بشر فكانوا بذلك ورثة الرسل وقادة الامم ودواء
العلل وكواكب الظلمات وسرج المشكلات بهم تنحل العقد وتنفرج

الكرب (وراثه نبويه وخلافة المهية) ولذلك كانوا مرجع الامراء والكبراء حتى قال القائل

ان الاكابر يحكمون على الورى وعلى الاكابر تحكم العلماء
وقد قالوا ان الامة تفسد بفساد الامراء والامراء تفسد بفساد العلماء ، فانظر أين أنت من تلك المقامات والى أى حد وصلت من البعد عن تلك الصفات

أيها المتبجح بعلمك المترفع على بني نوعك الغافل عن كون الانسان لا يزال متعلماً طالبا من العلم ما يكون وراء ما علم وكلما ازداد منه رياءً ازداد عطشاً وكلما زاد فضله بان له جهله وقد قال تعالى لأعلم العلماء وأعظم العظماء (وقل رب زدنى علماً) وقال (وفوق كل ذى علم عليم) وقال (وما أوتيتم من العلم الا قليلاً) وان العالم حقاً ليستحي من الله أن يتبجح بعلمه وهو يعلم أنه جعله محل الضعف والجهل والنقص والغفلة والنسيان ويرى أن العلم أمامه متسع الفجاج متلاطم الامواج وهو بساحله يرجو أن يتطير عليه من بحره رشاش ينقع به مزيد غلته ويشفى به بعض علته وأن لم يعرف ذلك فهو من الجهلاء لا من العلماء انظر الى ذلك كله ثم قل لى بعيشك هل أحبيت النبي صلى الله عليه وسلم حباً وجدانياً يزيد على محبتك للناس أجمعين وهل صار هواك تبعاً لما جاء به بل هل سعيت الى ذلك سعيه يوماً من الايام وآلمك من أجله ضميرك وعاتبتك عليه نفسك أم هل أحسست بحب الله تعالى من أعماق قلبك حباً يهون عليك قضاءه ويخفف عنك بلاءه

أم هل صدقت في بيع نفسك لله تعالى (وقد جعل ذلك من صفات المؤمنين فضلاً عن العلماء منهم) تخلصت أعمالك من الأغراض والشوائب حتى صارت كلها لله فلم تتكالب على أمورك الشخصية ولم تنهالك على شهواتك النفسية ولم تذلل لأهل الدنيا ذل العبيد ولم تنافق لهم نفاق صغار النفوس لشام الطباع، وهل ذقت لعزة المؤمنين طمراً أو عرفت لها معنى، وهل أنت ممن قال الله فيهم (إنما يخشى الله من عباده العلماء) أو ممن قال فيهم (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) وهل أنت ممن يحب لأخيه كما يحب لنفسه، وهل أنت ممن يقول لأخيه عند ما يقابله اجلس بنا ساعة نوّمن كما كان يقول ذلك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعضهم لبعض، وهل أنت ممن (اذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً) وهل وهل وهل الخ أم أنت ممن أخذ إلى الأرض واتبع هواه وقد أحاط به الشره واستعبده حب الدنيا فليس يهمه الا شيء يعود عليه ودرهم يصل إليه فقائه عزة العلماء وثروة الاغنياء فهو لا إلى هوئلاً ولا إلى هوئلاً وهو بالجهلاء أشبه منه بالعلماء

نعم يوشك أن تكون من العلماء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (أول ما تسعر به النار يوم القيامة عالم لم يعمل بعلمه فيطيف به أهل النار فيقولون له مالك وقد كنت تأمرنا وتنهانا فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنها كم عن المنكر وآتية) كما

يوشك أن تكون ممن قال الله فيهم (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام) وقد أوحى الله الى بعض أنبيائه (قل لعلماء السوء ألسنتكم أحلى من العسل وقلوبكم أمر من الصبر أفبى يستهزئون وإياي يخادعون فوعزتي وجلالي لأتيحن لهم من الفتنة ما يدع الحليم حيران) وفي الأثر (لا تجالسوا من العلماء إلا من يأخذ بكم عن محبة الدنيا الى محبة الله وعن الكبر الى التواضع وعن التباغض الى التحابب) ولا قدر للدنيا حتى ينبع بها السمادة الابدية ، وقد قال بعض الملوك عند ما حضرته الوفاة كنت أظن انى ملكت كل شىء فاذا كل شىء لا شىء

وفي الأثر أيضاً (أعظم الناس ندامة صانع المعروف عند من لا يشكره وعالم فرط في علمه فلم يعمل به حتى حضره الموت) وقد سقت لك ذلك عسى أن يحرك منى ومنك شوقاً الى العمل بالعلم وندماً على ذلك العمر العزيز وخوفاً من أن يخاطبنا الله عز وجل يوم القيامة بقوله (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) ورجاء في أن نكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا

نحب الايام بنا تب	ما أسرع ما تصل النجب
والشمس تطير بأجنحة	والليل تطايره الشهب
والدهر يجد بفعل الج	مدفليس يليق بك اللعب
ما القصد سواك فخل هوا	ك وكن رجلاً فلك الطلب

سل دهرك أين قرون لار ض يجيبك لهم ذهبوا
 ساروا عنا سيراً عجلاً فكان مسيرهم الخيب
 ما أفصحهم ولقد صمتوا ما أبعدهم ولقد قربوا
 يلاعب جد بفعل الجد مدفليس الأمر به لعب
 واحذر دنياك وزخرفها فجميع مناصبها نصبوا
 فكأنك والأيام وقد فتحت باباً فيه النوب
 وبقيت غريب الدار فلا رسل تأتيك ولا كتب
 وسالك الأهل ومل الصح ب كأنهموا لك ما صحبوا
 فاذا تفر الناقور جثو ت ويومئذ يوم عجب
 فيصبح السمع ويبحثوا الجم ع ويجرى الدمع وينسكب
 وجميع الناس قد اجتمعوا ثم افترقوا ولهم رتب
 ذا مرتفع ذا منخفض ذا منجزم ذا منتصب
 فهناك المكسب والخسرا ن وثم الراحة والتعب

(تم الجزء الاول ويليه الجزء الثاني في الرد على الطبيعيين)

والحمد لله أولاً وأخيراً وظاهرنا وباطنا وصلى الله على سيدنا

محمد وعلى آله وصحبه وسلم